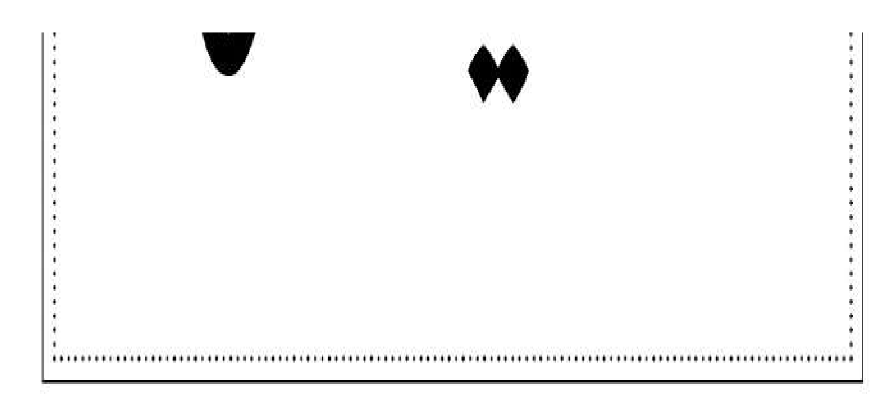


اليوم الأخير





أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



اليوم الأخير

نوفل


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

صدرت عام 2013 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
الطبعة الثانية عشرة، 2017

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**

ر.د.م.ك. (الطبعة الورقية): 978-9953-26-913-9
ر.د.م.ك. (الطبعة الإلكترونية): 978-614-438-453-4

الساعة الواحدة

«قم ودّع اليوم الأخير!»

سمعت الصوت فأفقت من نوم عميق. وبحركة عفويّة نفضت عنّي اللحاف، واستويت جالسًا في سريري. ثمّ فتحت عينيّ وأنا على يقين من أنّني سأبصر طلائع الفجر في غرفتي، وأبصر صاحب الصوت على قيد خطوة، أو أقرب، من سريري. وكنت أتوقّع أن أسمع منه فوق ما سمعت. لقد كان صوتًا صافيًا، جازمًا، حازمًا.

ولكنّ غرفتي كانت في ظلمة عمياء. وكان من المستحيل أن أتميّز أيّ شيء من الأشياء التي فيها. فاعتراني الخوف. وشعرت بما يُشبه دبيب النمل في جسمي من أمّ رأسي حتّى أخمصيّ. وتهيّأ لي أنّ في الغرفة إنسانًا يراني ولا أراه. وإلّا فمن أين الصوت الذي لا يبرح يرنّ في أذني: «قم ودّع اليوم الأخير»؟

مددت يدي إلى قنديل الكهرباء الذي بجانب سريري. وإذا بيدي ترتجف فلا تهتدي إلى المفتاح إلّا بعد عناء. وعندما انطلق النور فتبدّدت الظلمة وجدتُني وحدي، ووجدتُ كلّ شيء في الغرفة مثلما تركتُه وحيث تركتُه عندما أويت إلى فراشي. وكانت الساعة التي على معصمي تشير إلى نصف الليل بالتمام. أمّا السكينة التي تلفّني وتلفّ بيتي والطبيعة خارج بيتي فلم يكن يقلقها شيء غير أنفاسي وأنباضي المضطربة، المتسارعة.

لو أنّني كنت من الذين يرون الرؤى، أو كنت ممّن سبق لهم أن جاءهم هاتف من الغيب لَما أذهلني ما سمعته وما أنا فيه. فقد عرفت أكثر من رجل، وأكثر من امرأة يروون أغرب الروايات عن رؤى أبصروها في اليقظة، أو في المنام، وعن أصوات سمعوها من الغيب. ومنهم زميل من زملائي في الجامعة، وهو أستاذ الطبيعيّات، ومن المفروض فيه أن يكون أبعد الناس عن تصديق تلك الروايات. ولكنّه أكّد لي أنّه ذات مرّة، وهو يتناول غداءه مع عائلته، سمع والده يحذّره بصوت جليّ من سفرة كان ينوي القيام بها فأقلع عنها. وكان والده قد انتقل إلى رحمة ربّه قبل ذلك بعشر

سنوات. وقد أدهشه أن لا يسمع الصوت أحد غيره، وأن لا يصدّقه حتّى أهل بيته. ولقد صدّقته لأنّني ما عرفت في حياتي رجلًا أصدق منه لسانًا، وأنبل خلقًا.

أمّا أنا فقد جاوزت السابعة والخمسين من عمري ولم يحدث لي أن رأيت رؤيا أو سمعت هاتفًا من الغيب. إلّا الليلة. من هنا حيرتي وارتباكي. إنّني رجل تسوقه الأيّام ولا يسوقها. وأعني أنّني أتقبّل بالرضى جميع ما تحمله إليّ من حلو ومن مرّ. فأتكيّف بها ولا أكيّفها. ومَن أنا لأروّض الأيّام فأجعلها رهن إرادتي؟ ها إنّ زوجتي قد هجرتني منذ عام لتعيش مع شابّ أحبّته وأحبّها. ولو لم يكن حبّها له أقوى من حبّها لي لَما تركتني والتصقت به. إنّها في السابعة والثلاثين وهو في الخامسة والعشرين ومن طلّاب الفلسفة عندي. وهما اليوم في سويسرا.

لقد كنت أوثر أن تبقى زوجتي بجانبي وجانب ولدنا المسكين هشام. ولكنّها أبت البقاء. فما حيلتي؟ وعندما يسألني الناس عنها أجيبهم أنّها ذهبت إلى سويسرا بدعوة من أنسباء لها هناك. وأشعر أنّ الناس لا يصدّقون، بل يعرفون، مثلما أعرف، أنّ الحقيقة غير ما أقول. ويؤلمني أشدّ الألم أن ينزلق لساني، ومع لساني روحي، إلى الكذب. فما أظنّني أمقت شيئًا مُقتي لتمويه الحقيقة بالكذب. وما العمل ما دام الذي أنا فيه يُعَدّ عارًا كبيرًا في اعتبار الناس؟ وما أنا ارتكبت العار. وارتكبته زوجتي. وعار زوجتي عاري. وأنا أريد أن أقوم بعملي في الجامعة فأخالط زملائي الأساتذة، وأواجه طلّابي دون أن أشعر ويشعروا بأنّني أجرجر أذيال العار خلفي كيفما اتّجهت.

كان في خاطري أن أنهض اليوم باكرًا جدًّا لأعيد النظر في مخطوط كتابي عن الحركة الصوفيّة وتأثيرها في الفكر العربيّ والعالميّ، فأحمله إلى المطبعة وأذهب من هناك إلى الجرّاح الذي نصح لي باستئصال المرارة. فقد أظهرت الأشعّة أنّها مليئة بالحصى، وأنّها قد تنفجر في أيّ يوم، بل في أيّ لحظة. وها أنا قد نهضت عند منتصف الليل. والذي أنهضني من نومي لم يكن المرارة، ولا المخطوط. وكان صوتًا لا أعرف مصدره ولا أفهم الذي قاله. وهو لا ينفكّ يقرع طبلة أذني:

«قم ودّع اليوم الأخير!»

وأيّ اليوم هو اليوم الذي يعنيه؟ اليوم في قياس الزمان المتعارف عليه بين الناس هو أربع وعشرون ساعة تمتدّ من نصف الليل وحتّى نصف الليل الذي يليه. أفَيَعني الصوت أنّ «اليوم الأخير» قد ابتدأ من نصف هذا الليل وسينتهي عند نصف الليل الآتي؟ فما قولُه برائد الفضاء الذي دار حول الأرض سبع عشرة مرّة في خمس وعشرين ساعة فشهد في خلال يوم واحد سبعة عشر شروقًا للشمس وسبعة عشر غروبًا؟ بل ما قوله إذا قام رائد آخر فراح يدور الساعات، بل الأيّام، بل الشهور حول قطب الأرض المواجه للشمس بحيث لا تغرب عنه الشمس لحظة واحدة، فلا

يكون ليل على الإطلاق؟ وعندئذ فما هو «اليوم»، وأين يبتدئ وينتهي؟ وكيف يكون هنالك «يوم أخير»؟

ولنفرض أنّ ما عناه الصوت كان يومًا ابتدأ عند نصف هذا الليل وسينتهي عند نصف الليل الآتي، فلماذا دعاه الأخير؟ وهل هو الأخير في حياتي، أم في حياة العالم؟ فهنالك أديان تنادي باليوم الأخير وتحثّ المؤمنين على ادّخار الأعمال الصالحة لمواجهته. إنّه اليوم الذي فيه سيحاسَب كلّ إنسان عن أعماله. فيمضي الصالحون إلى جنّات تجري من تحتها الأنهار. ويمضي الطالحون إلى جهنّم النار. ألعلّ هذا هو اليوم الذي من بعده سيأتي يوم الحشر؟ وهنالك دُوَل تملك من وسائل التدمير ما لو فجّرته دفعة واحدة لَما بقي على اليابسة وفي البحار أيّ حيّ، ولَتحوّلت الأرض خرابًا يبابًا. فهل تنشب الحرب غدًا فيكون اليوم يوم الإنسانيّة الأخير؟

لو كان ذلك ما عناه الصوت فلماذا اختارني وحدي لتوديع اليوم الأخير؟ ولو أنّه أيقظ جميع الناس مثلما أيقظني لَكانت الأنوار تتلألأ الآن في كلّ بيت من بيوت القرية كما تتلألأ في غرفتي. ولكنّ الظلام الدامس يلفّ القرية بجميع من فيها وما فيها. والسكينة المخيّمة فيها سكينة رهيبة بعمقها. فلا نباح كلب، ولا صرير جندب، ولا خرير ساقية، ولا هبّة نسيم، ولا وشوشة أوراق على غصن.

لا. لا. إنّ ما عناه الصوت باليوم الأخير هو يومي – يومي أنا وحدي. إنّه اليوم الأخير من عمري. ما في ذلك أيّ شكّ. إنّه الشوط الأخير إلى النهاية – إلى القبر.

القبر. برّ - ر - ر...

– ما بك يا أستاذ؟ لماذا الرجفة؟ عيب عليك وأيّ عيب. ألستَ دكتورًا في الفلسفة؟ وهذا وقت الفلسفة. هذا محكّها. وما قيمة الفلسفة التي لا تصمد لمحكّ القبر؟ ما قيمة أيّ شيء ينهزم من وجه القبر؟ أما قلتَ إنّكَ من الذين تسوقهم الأيّام ولا يسوقونها؟ أما قلتَ إنّك تتقبّل بالرضى جميع ما تحمله إليك؟ وها هي الأيّام قد ساقتك إلى هذا اليوم. وما هو هذا اليوم يسوقك إلى القبر. ففيمَ اضطرابك وارتجافك؟ وما أدراك أنّ القبر الذي يسوقك إليه يومك الأخير لن يكون أدفأ وأرحب من قبر تسكنه الآن؟

– قد يكون. قد يكون... ولكنّني أريد أن أعرف عن الصوت الذي جاءني منذ دقائق بهذه «البشارة» – صوت مَن هو؟

– ليكن صوت ملاك أو صوت شيطان. ليكن صوت القضاء والقدر. أتنكر أنّك سمعته؟

– وكيف أنكر وهو ما يزال يملأ مسمعي ويسري في كلّ قطرة من دمي؟

– ألا تصدّق ما قاله لك؟

– أصدّق. أجل، أصدّق. ولكنّني أوثر أن لا أصدّق.

– ولماذا؟

– لأنّني... لأنّني أكره القبر.

– أمّا القبر فلا يكرهك. القبر لا يكره أحدًا، ولا يكره شيئًا. فهو مفتوح لكلّ ما هبّ ودبّ، ولكلّ ما سال وتجمّد في الكون.

– ولكنّني غير مستعدّ لدخوله اليوم.

– وهل استعدَّ غيرك من قبلك لتستعدَّ أنت؟

– هنالك أعمال كثيرة لا بدّ من إنجازها أوّلًا.

– مثلًا؟

– مثلًا – عمليّة المرارة.

– هه. هه. سيغنيك القبر عنها.

– وكتابي الذي لا بدّ من تسليمه إلى المطبعة وتصحيح تجاربه. إنّه الكتاب الذي أنفقت في تأليفه عشر سنين. وإنّي أودّ أن أعرف كيف يكون وقعه في الأندية الفلسفيّة.

– هه. هه. سيغنيك القبر عنه.

– وزوجتي التي هجرتني. لقد كانت لي معها أيّامٌ عِذاب. وهي ذات وجدان حيّ. ولكنّ شهوتها الجامحة طغت على وجدانها. ويقيني أنّ وجدانها سيستيقظ، وأنّها ستعود إليّ وإلى ولدها المسكين. وأنا أكاد أسمعها الآن تستغفرني. وأودُّ أن تعرفَ أنّني غفرت لها زلّتها منذ الساعة التي دريت بها.

– هه. هه. وزوجتك سيغنيك عنها القبر.

– وولدي هشام. إنّه العبءُ الأثقل في حياتي والأحبّ إلى قلبي. ظننت ساعة ولادته أنّ الزمان كلّه اقتحم باب بيتي ليحمل إليّ السعادة كلّها. ولكنّه ما لبث أن تكشّف عن كائن مشوّه أفظع التشويه. هو اليوم في عامه الثامن عشر، وأكبر ما فيه رأسه. بل إنّه أكبر رأس بشريّ عرفته في حياتي، حتّى لتعجب كيف يحمله عنقه. أمّا الساعدان واليدان والأصابع ففيها من القوّة ما يفوق سنّه بكثير. وأمّا الساقان فطويلتان وهزيلتان وقد غطّتهما قشرة بيضاء لا تنفكّ تتفتّت وتتساقط كأنّها الهِبْرِيَة أو قشرة الرأس. وهو لا يستطيع الوقوف ولا المشي على رجليه. وأمّا اللسان في فمه فلا يصلح لأكثر من الهبهبة. لكنّ في عينيه العسليّتين، الواسعتين، الذابلتين، أعماقًا وأبعادًا وأشباحًا تمنّيتُ لو كان لي أن أسبرها وأدرك مقاييسها ومعانيها.

وهذا الولد هو اليوم في عهدة الخادم وحدها. فكيف أمضي قبل أن أؤمّن له حياته؟

– هه. هه. سيغنيك القبر عن تأمين حياته.

– وهذا البيت الذي ابتعته بالتقسيط منذ ثلاث سنوات لا تزال بعض الأقساط من ثمنه غير مدفوعة. وإذا هي لم تُدفع في أوقاتها بات من حقّ البائع أن يستردّه وأن يهدر جميع ما دفعته له

حتّى الآن. وهو مبلغ ليس باليسير. وأنا ما ابتعته في الريف وعلى بعد أميال من الجامعة، ولا أنا اقتنيتُ سيّارة إلّا امتثالًا لإرادة زوجتي وحبًّا بتوفير الهناء والراحة لها. وما كان أسعدني وأسعدها يوم تسلّمنا البيت وأخذنا نفرشه ونرتّبه ونجمّله وكأنّنا عصفور وعصفورة يبنيان لهما عشًّا. وما كان أحلاها ساعةً عندما ذهبنا معًا إلى وكالة السيّارات فاختارت السيّارة التي وافقت ذوقها، فدفعنا نصف ثمنها، وتعهّدنا بدفع ما تبقّى أقساطًا شهريّة، ثمّ ركبناها إلى البيت. وكان المقوَد في يدها. وما كان أحذقها وألبقها في القيادة!

هذا البيت وهذه السيّارة – أأهدر ما دفعته حتّى الآن من ثمنهما؟ والذي دفعته يمثّل جنى حياتي. إنّه لأكثر من مال. إنّه دمي وفكري وقلبي على مدى سنين، ودمي عزيز عليّ. وكذلك فكري وقلبي.

– هه. هه. هذا البيت وهذه السيّارة سيغنيك القبر عنهما. وإذا كان فكرك وقلبك فيهما فسيغنيك القبر عن فكرك وقلبك كذلك.

– وعلاقاتي مع الجامعة – كيف أنهيها بمثل هذه السرعة – في يوم واحد؟ عليّ اليوم أن أتحدّث في ندوة الفلسفة عن «إبيكتيتوس» وكتابه «إنخيريديون». وعندنا في المساء اجتماع للأساتذة سيحضره الرئيس. ولي في ذمّة الجامعة تعويض التقاعد؛ ولي بعض الديون في ذمّة بعض الزملاء. فمن يقوم بما يترتّب عليّ من أعمال؟ ومن يستوفي ما لي من ديون؟

– هه. هه. سيغنيك القبر عن أعمالك وعمّا لك، أو عليك، من ديون.

– لا. لا. لا. هذا غير معقول. لن يكفيني يوم واحد لتصفية الحساب. لا بدّ من زيادة. لا بدّ من أيّام بعد، بل من شهور، بل من سنين.

– هه. هه. مَن ليس يكفيه يوم واحد لن تكفيه الأبديّة. والقبر كفيل بتصفية جميع الحسابات.

– أريد أن أعرف الساعة التي أموت فيها.

– عرفت اليوم فاضطربت أيّما اضطراب. فكيف بك إذا عرفت الساعة؟

– وأريد أن أعرف كيف أموت. هل تنفجر المرارة؟ أم ينفجر القلب؟ أم ينفجر الدماغ؟ هل أغرق، أم أحترق، أم أختنق؟ أم تزلّ بي قدمي فأدقّ عنقي أو أحطّم جمجمتي؟ هل تلدغني أفعى، أم تصطادني رصاصة طائشة؟ إنّي أريد أن أعرف كيف أموت، وكم يطول نزعي، وما هي الآلام التي يترتّب عليّ أن أتحمّلها، ومن هو الذي سيغمض عينيّ، وكيف ستتلقّى زوجتي نبأ وفاتي. أتراها تحسّ بعض الغصّة في حلقها، وبعض الحرقة في قلبها، فتذرف ولو دمعة واحدة، وتقول ولو كلمة واحدة فيها ما يشبه الأسف أو الندامة؟ بلى. بلى. ستقول «يا حرام!» وستجمد مكانها. وستجحظ عيناها. ثمّ تأخذ رأسها بيديها. ثمّ تغمض عينيها. ثمّ تتنهّد. ثمّ تنحدر دمعتان ودمعتان

ودمعتان على خدّيها. ثمّ ترتمي على أقرب أريكة وقد ضاق صدرها فأعياها التنفّس. وإذ يقترب منها عشيقها ويسألها ما بها تصدّه بحركة من يدها وتقول له: «دعني وشأني».

بلى. بلى. ستعود إلى رشدها. ستذكر ليالينا الملاح. ستذكر كيف كان قلبانا يتناغيان، ويتعانقان، ويذهلان عن كلّ ما في الوجود إلّا عن غبطةٍ هما فيها. ستذكر نشوتنا يوم كنّا عصفورًا وعصفورة نبني معًا عشّنا. ستذكر بهجتنا يوم مولد هشام. وستحنّ لرؤية هشام. وستندم. ثمّ تعود.

ولكن ... هل تراها تعود معه؟ هل تخلع على العلاقة التي بينها وبينه صفةً شرعيّة فتتّخذه بعلًا لها من بعدي؟ لا. لا! إنّي لا أطيق أن ينام في سريري، وأن يأكل بملعقتي، وأن ينعم بأيّ شيء من الأشياء التي اقتنيتها بدم قلبي، وكدّ دماغي. أبدًا، أبدًا. لن يكون ذلك. لن يكون...

– هه. هه. وإذا كان فما همّك والقبر سيريحك من كلّ ما كان وكلّ ما سيكون؟

– برّ - ر - ر ...

الساعة الثانية

أكاد لا أصدّق. لقد انقضت ساعة منذ أن أيقظني الصوت. ساعة كاملة بدقائقها الستّين. وها أنا لا أزال جالسًا في سريري ورأسي يوشك أن ينفجر من كثرة الرسوم والأشباح والأصوات والأحداث والأفكار التي تزدحم فيه.

إذا صدق الصوت – وهو صادق – فلم يبقَ من عمري إلّا ثلاث وعشرون ساعة. ومن بعدها المعزّون والمصلّون والدفّانون و«الله يرحمه». ويرقد الدكتور موسى العسكري رقدته الأخيرة في مثواه الأخير. ويمضي الدود يرعى في جسده، فلا يعفّ منه إلّا عن العظام. وتختفي بالتدريج صورته في عيون الناس، ويتلاشى صوته في آذانهم، وذكره في أذهانهم. وتشرق الشمس في الصباح، والقمر والنجوم في الليل، فلا يسأل أيّ منها: أين هو الدكتور موسى العسكري لا يفتح عينيه لَنوري؟ ويأتي الربيع فتزهر الوردة الخمريّة في حديقتي ولا تقول: أين هو الدكتور موسى لا يقبّلني ولا يشمّني؟ والبلبل الذي بنى عشّه في الياسمينة تحت شبّاكي يمضي يذرذر قلبه ألحانًا ولا يخطر له في بال أن يسأل: أين هو الدكتور موسى لا يصغي لألحاني؟ وتنسى الوردة والياسمينة أنّ يدي هي التي غرستهما. وينسى البلبل أنّه وملهمته يعيشان في ياسمينتي وتحت شبّاكي.

وتتعاقب الفصول والأعوام والأجيال إلى ما شاء الله. وتبلى عظامي وتتحوّل ترابًا. وينسى التراب أنّ فيه بعضًا من ذلك الشيء الذي هو الآن جسدي. وينسى الهواء أنّ فيه من أنفاسي، والبحر أنّ فيه من دموعي ومن لعابي. وينسى الكون أنّه احتوى في فترة من الزمان كائنًا كان يُدعى موسى العسكري. وهكذا يضمحلّ موسى العسكري وكأنّه لم يكن.

ولكن، مَن الذي سيذيع نبأ وفاتي إذا أدركتني الوفاة في بيتي؟ إذ ليس في بيتي سوى الخادم أمّ زيدان، وسوى هشام. وأمّ زيدان امرأة أمّيّة، غبيّة. ولولا أنّها أرملة فقيرة، مسنّة ولولا أنّها تحسن الطهي وخدمة البيت؛ ثمّ لولا أنّها تتفانَى في خدمة هشام وتحبّه حتّى العبادة لَما تحمّلت غباوتها خمسة عشر عامًا. إنّ قلبها لَأنقى من الثلج، وتقواها لا تعرف الحدود. وهي لا تنفكّ تردّد: هشام

سينطق. وهشام سيمشي. وهشام سيكون له شأن كبير في العالم. والله سيستجيب لصلواتي. إنّه، سبحانه وتعالى، لا يبتلي حتّى يعين.

من الأفضل أن أدعوها الآن، وأن أعطيها رقم عميد كليّة الآداب في الجامعة لتتّصل به حال وفاتي. فهو أنسب الذين أعرفهم في هذا البلد للاهتمام بالدفن وما يسبقه وما يليه من ترتيبات. إنّني رجل لا أقارب له هنا ولا أصدقاء. لقد جئت هذا البلد غريبًا ويتيمًا. فشقيت كثيرًا قبل أن حصّلت من الدرس ما حصّلت، وقبل أن نلت درجة الدكتوراه وأصبحت أستاذ الفلسفة في الجامعة. وإنّني رجل منكمش على نفسه إلى حدّ بعيد. ولا أعرف لانكماشي سببًا. فأنا، من حيث المنظر، مقبول – بل جميل بشهادة الكثير من الجنسين. وأنا، من حيث الذكاء، فوق المستوى العادي. ولولا ذلك لما تيسّر لي أن اصبح أستاذ الفلسفة في أشهر جامعة من جامعات هذا البلد.

مهما يكن العمل المنوط بي لا أنكفئ عنه حتّى أنجزه. فكأنّه أمانة مقدّسة في عنقي. وكثيرًا ما أنجزه في شكل أفضل ممّا كان يخطر في بال الذين كلّفوني القيام به. ولا فرق عندي أكانت المكافأة سخيّة أم كانت شحيحة. وقد لا أبالي إذا لم تأتني منه أيّ مكافأة. لذلك يحبّني رؤسائي ولا يندر أن يمتعض منّي زملائي.

يتودّد الناس إليّ ولا أتودّد إلى أحد. ويستشيرونني في الكبيرة والصغيرة من شؤونهم ولا أستشير أحدًا في أمرٍ من أموري. ويشكون إليّ متاعبهم ومشاكلهم ولا أشكو متاعبي ومشاكلي لأحد. ويأتمنونني على أسرارهم وأموالهم ولا أراني في حاجة إلى أيّ إنسان أجعله مستودعًا لسرّي ولِمالي. إنّي أعاشر الناس دون أن أمتزج بهم. فلا أسكر مع السكارى، ولا أعربد مع المعربدين، ولا أقامر مع المقامرين، ولا أفحش مع الفاحشين، ولا أنافق مع المنافقين. إلّا أنّني لا أدين أحدًا منهم. ومعاذ الله أن أترفّع عليهم.

وكثيرًا ما ينخدع بي المتزمّتون في السلوك، والمتعصّبون، في الظاهر، لِما يعتبرونه فضائل اجتماعيّة ودينيّة، فيحسبونني واحدًا منهم. ولكنّهم لا يلبثون أن يكتشفوا كُرهي لكلّ أصناف التزمُّت والتعصُّب، فيبتعدون عنّي، ذلك لأنّي أعرف أنّ الناس غير متساوين – ولا يمكن أن يكونوا متساوين – من حيث المقدرة البدنيّة والعقليّة والخلقيّة، ومن حيث الميل والذوق والاتّجاه والإرادة. فهناك الذين في القمّة. وهناك الذين في القاع. وهناك الذين بين بين. ولأنّني لستُ في القمّة ولا في القاع فأنا أتطلّع إلى الذين فوقي بالكثير من الشوق والإكبار، ولا أنظر إلى الذين تحتي بشيء من التعالي والاحتقار. لأنّني كنت واحدًا منهم قبل أن أكون حيث أنا. أمّا المتزمّتون والمتعصّبون فلا يعرفون أين كانوا بالأمس، ولا أين هم اليوم مِن الذين سبقوهم أشواطًا وأشواطًا.

طلّابي يثقون بي ثقة عمياء، ويعتقدونني عنوان الصدق والعدل. حتّى الراسبون منهم لا يعزون إليّ شيئًا من التسرّع، أو التحيّز، أو قلّة الإنصاف. ولم يحدث أن شكاني أحدهم لرفيقه، أو لرئيس

الدائرة، أو لي. «الدكتور موسى لا يحابي، ولا يصانع، ولا يساير، ولا يحكم إلّا بالعدل والإنصاف». ذلك ما يتناقلونه عنّي فيما بينهم.

إلّا أنّ بي شيئًا من مركّب النقص. فكثيرًا ما أراني دون الذين هم في الواقع دوني. ولذلك يغلبني الخجل في علاقاتي مع الناس – حتّى الذين تربطني بهم صلات قديمة. أمّا الغرباء عنّي فإذا اتّفق لبعض معارفي أن قدّمني إلى واحد منهم شعرت كأنّ بيني وبينه جدارًا لا أستطيع خرقه. فكيف بِدَكّه؟ وشعرت كأنّ لساني به عقدة. فما أهتدي إلى موضوع للحديث بيني وبينه، إلّا إذا هو أخذ المبادرة في الحديث. ولَكَم يزعجني أن أراني في حفلات كوكتيل، أو شاي، أو أيّ نوع من الحفلات التي لا تُعتبر «ناجحة» إلّا إذا سادها الهرج والمرج وانفلتت ألسنة الناس من عقالاتها فراحت تثرثر دونما انقطاع. وليس مَن يدري بماذا تثرثر، ولماذا تثرثر. فالمهمّ أن لا تكفّ عن الثرثرة. فكأنّما الناس في مثل تلك الحفلات جماعة من القِرَدة في غابة من غابات الكونغو أو الملايو. أو كأنّما ألسنتهم دواليب هواء كتلك التي يلهو بها الأولاد.

وأنا، إلى ذلك، جبان. فما اقتربتُ من إنسان، رجلًا كان أو امرأة، إلّا شعرت كأنّني أقترب من دنيا مليئة بالألغاز والأسرار، وليست لي الجرأة على اقتحامها. وفي الواقع مَن يدري أيّ دنيا عجيبة هي دنيا هذا أو ذاك من الناس، وكم فيها من النزعات، والميول، والأشواق، والأفراح، والأحزان، والأوجاع الظاهرة والخفيّة؟ فبأيّ حقّ أقتحمها إلّا إذا شاء صاحبها من تلقائه أن يفتح لي بابها، وإلّا إذا أبحت له اقتحام الدنيا التي هي أنا، أو فتحت له بابها بمحض إرادتي؟ ولكنّني من الذين يغريهم أن يستأثروا بدنياهم. ولعلّ ذلك ما دفع زوجتي على هجري والالتحاق بغيري.

وأنا جبان لأنّني حتّى الساعة لم أحاول اكتشاف المجاهل الهائلة التي في دنياي. فما سألت نفسي مرّة من أنا؟ ولماذا أنا كما أنا وليس غير ما أنا؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟ وما القصد من مجيئي وذهابي؟ ولماذا تزوّجت رؤيا الكوكبيّة لا غيرها فرُزقنا ولدًا تضخّم رأسه، وتقلّصت ساقاه، وانعقد لسانه، ولم نُرزق سواه؟ ألعلّه جاء مشوّهًا ليكون قصاصًا لي ولأمّه ولنفسه، أم ليكون امتحانًا لنا جميعًا؟ قد تكون ذنوبي وذنوب أمّه أكثر من رمل البحر عدًّا. أمّا هو فما ذنبه؟ أسفي عليه تهمله الطبيعة إلى هذا الحدّ وتُغرق غيره بعطاياها التي لا تثمّن. إنّي أحبّه حتّى الكُفر. ولو كان لي لأعطيته لساني وساقيّ.

ولكن، لماذا أتمنّى له ما أتمنّى؟ فقد يكون، كما هو، أسعد حالًا منّي كما أنا. فما نفعه من رِجل تسعى ولا تعلم إلى أين تسعى؟ ومن يدٍ تأخذ وتعطي ولا تدري ماذا تأخذ وماذا تعطي؟ ومن لسانٍ يسأل «لماذا» ولا يملك الجواب على سؤاله؟ فها أنا ذا أدأب وأسعى، وآخذ وأعطي، وأهذر وأثرثر منذ سبعة وخمسين عامًا. وماذا جنيت؟

جنيت «لماذا؟» – ولا شيء غير «لماذا؟». وذلك ما أدركته في هذه الساعة، وقد انقضّت عليّ فيها ألف لماذا ولماذا. فكأنّها كانت تترصّدني في كمين، وكأنّني عشت ما عشت من السنين ولم أكن على علم بوجودها، في حين أنّي درست الفلسفة وأدرّسها، وفي حين أنّي أحمل لقب دكتور في الفلسفة. والفلسفة لا شأن لها إلّا التفتيش عن الجواب على «لماذا؟». ولكنّني درستها ودرّستها كما لو كانت أشياء في الكتب، ولا علاقة لها البتّة بما أقوله وأفعله وأشتهيه أو أهرب منه في حياتي. أمّا الآن – وفي هذه الساعة بالذات – فأشعر أنّ رأسي فرغ من كلّ شيء إلّا هذه الـ«لماذا؟». وأحسّ أنّها اتّخذت شكلًا جديدًا ومعنى لم يكن لها في حياتي من قبل. إنّها تحفر في دماغي كما بازميل، وتفعل في دمي فعل البهار في العين. إنّها تصرّ. تلحّ. تستأسد. إنّها تجلد جلدًا.

لا بأس. لا بأس. يبدو أنّني بدأت أفكّر. وقبل اليوم لم أكن أفكّر. قبل اليوم كنت أسعى لأنّ الناس من حواليّ يسعون. وأحبّ وأكره لأنّهم يحبّون ويكرهون. تعلّمت لأنّهم يتعلّمون. وعلّمت لأنّ التعليم مهنة من المهن الكثيرة التي بها يرتزقون. وهي، في نظرهم، مهنة شريفة. وتزوّجت وبنيت بيتًا لأنّهم يتزوّجون ويبنون البيوت. كنت وإيّاهم زوارق متفاوتة الشكل واللون والحجم تتقاذفها أمواج نهر هائل لا تعرف له بداية أو نهاية، ولا هي تبصر ضفافه أو تدرك قعره. وهذه الزوارق كان بعضها يترافق هنا، ويتفارق هناك، ويتصادم هنالك. ثمّ يغمره الموج وليس مَن يدري إلى أين يمضي وماذا يحلّ به حيث يمضي.

أمّا الآن فإنّي أودّ أن أعرف عن ذلك النهر من أين يجري وإلى أين. وعن تلك الزوارق مَن الذي بناها بمختلف أشكالها وألوانها وأحجامها، ثمّ وضعها على صفحة ذلك النهر ليجري بها شوطًا قصيرًا أو طويلًا ثمّ يعود فيبتلعها. إنّي الآن أسأل «لماذا» كما لم أسألها مرّة في حياتي من قبل.

الكلب لا يسأل «لماذا»، ولا الهرّ، ولا العصفور، ولا الأرزة، ولا السنبلة، ولا الجبل، ولا النهر، ولا البحر، ولا أيّ شيء على وجه الأرض. ويسألها الإنسان. إنّ الذي يملك القدرة على طرح السؤال يملك القدرة على الجواب عليه. هذا الشعور لم يكن لي من قبل. إلّا أنّني أحسّه في هذه الساعة ينبت في أعماقي ويصعد من هناك كما تنبت زهرة النّيلوفر في أعماق النهر ثمّ تصعد إلى وجهه. ويا ليتني عرفت هذا الشعور قبل أن ينصرم حبل عمري فلا يبقى لي منه إلّا ثلاث وعشرون ساعة.

ولكن... ولكن، ما هي الساعة؟ ما هي الدقيقة؟ ما هي الثانية؟ إنّها ساعة ودقيقة وثانية في عرف الآلة الصغيرة التي على معصمي. أمّا في عرف الزمان فهي الزمان كلّه. إذ أنّها تتّصل بكلّ ما كان، وما هو كائن، وما سيكون. ولا سبيل على الإطلاق إلى فصلها عمّا سبقها وعمّا سيلحقها. إنّها الماضي في الماضي، والحاضر في الحاضر، والمستقبل في المستقبل. إنّها أنا في الأمس، والآن، وفي الغد. فأنا الزمان. والزمان أنا. لا هو يفنيني، ولا أنا أفنيه.

كفى. كفى. فرأسي في دوار.

الساعة الثالثة

– أمّ زيدان؟

– نعم. نعم. أمّ زيدان.

– ماذا تريدين؟

– أتسمح لي بالدخول؟

– أدخلي.

وتدخل عليّ أمّ زيدان. وإذ تجدني جالسًا في سريري ورأسي بين يديّ تقف مشدوهة وتمضي تتمتم بعض الكلمات. والأغلب أنّها كانت صلوات. ثمّ تدنو منّي، وبصوت مرتجف تسألني:

– ما بك يا ابني؟ ما بك؟ شغلتَ بالي كثيرًا، كثيرًا.

– لا شيء يشغل البال.

– ولماذا سهرك إلى هذه الساعة؟ لقد فات نصف الليل من زمان، وقد عرفت ذلك من صياح الديك.

– وكيف عرفت أنّني سهران؟

– أبصرت من شبّاكي النور المتدفّق من شبّاكك. أتشكو وجعًا ما يا حبيبي؟ أآتيك بفنجان قهوة، أو شاي، أو بماء ساخن أغسل به رجلَيك؟

– اي. اي. فنجان قهوة. لا بأس.

وتعود أمّ زيدان بعد قليل وفي يدها فنجان القهوة. فأتناوله من يدها وأضعه جانبًا دون أن تمسّه شفتاي. فتعيد العجوز سؤالها:

– ألا تشكو وجعًا يا حبيبي؟

– أبدًا.

– ولا ضيقًا من أيّ نوع؟ إنّي أرى في وجهك ما لم أره من قبل.

– وماذا ترَين يا أمّ زيدان؟

– لا تؤاخذني يا ابني. أنا امرأة عجوز. خمس وسبعون سنة ليست بالعمر القصير. وقد يكون بي شيء من الخرف.

– تكلّمي. تكلّمي يا أمّ زيدان. ماذا ترين في وجهي؟

– أرى في وجهك... أرى في عينَيك... بلى في عينَيك...

– قولي. قولي. ماذا ترين؟

– لا تؤاخذني يا ابني. أرى شرودًا كالذي في عيون الـ... مجانين.

– أصبت يا أمّ زيدان. أصبت المسمار على رأسه.

– ماذا تعني يا ابني؟ إنّك تخيفني.

– أعني أنّك أصبت.

– العياذ بالله!

– أما سمعتِ صوتًا منذ ساعتين؟

– منذ ساعتين؟

– إي. منذ ساعتين تقريبًا.

– لم أسمع غير صوت الديك.

– أمّا أنا فلم أسمع الديك، وسمعت ما أيقظني من رقادي وطيّر النوم من أجفاني.

– يا الله! أتعني أنّ لصًّا دخل البيت فكانت بينك وبينه معركة؟ ليتني لم أكن. وكيف يدخل اللص البيت دون أن أفيق من نومي؟ ليتني لم أكن.

– وأفظع من لصّ.

– وأفظع من لصّ؟! نجّنا يا الله!

– وماذا يبتغي اللصّ في بيتي غير أشياء اشتراها المال ويعوّض عنها المال؟ أمّا هذا فجاء يسلبني ما ليس يشتريه كلّ ما في الدنيا من مال. جاء يسلبني عمري.

– أرجوك، أرجوك يا ابني. لقد ركبتني الرجفة. حتّى لساني يرتجف في فمي، وقلبي في صدري. أرجوك لا تكمل حديثك عن ذلك الوغد الذي جاء يسلبك حياتك وأنتَ من أنتَ بين الناس – رجل شريف، عفيف، نظيف، لم يؤذِ في حياته مخلوقًا. ليت أمّه لم تحبل به ولم تلده. أما عرفته؟

– سمعته ولم أبصره.

– لا كان من يمسُّكَ بسوء. لا كان من يطمع حتّى بشعرة من شعر رأسك، أو بظفر من أظافرك. الحمد لله، الحمد لله، ثمّ الحمد لله يا ابني.

– أمّ زيدان! أتعرفين ما هو الموت؟

– الموت هو الموت يا ابني. ما هذا السؤال؟

– أتحبّين الموت؟

– ومَن يحبّه؟ لا كان الموت.

– أتحبّين الله؟

– ومَن لا يحبّ الله؟ المجد لاسمه.

– والله هو الذي ابتلانا بالموت. فكيف تحبّينه وتكرهين الموت؟

– مَن أنا يا ابني لأفهم إرادة الله سبحانه وتعالى؟ أنا أمّ زيدان لا أكثر ولا أقلّ.

– أتعرفين ما هي الحياة؟

– ومن أنا لأعرف ما هي الحياة؟

– أتحبّين الحياة؟

– بالطبع. ومَن لا يحبّ الحياة؟

– وكيف تحبّين ما لستِ تعرفين؟

– أفّ! ما هذه الأسئلة يا ابني؟

– أمّ زيدان! أتعرفين ما هو الزمان؟

– قلتُ لك إنّني أمّ زيدان لا أكثر ولا أقلّ. وحرام عليك يا ابني أن تسخر بشيخوختي. دعك من مثل هذه الأسئلة واشرب قهوتك. لقد بردت.

– وأنا سأبرد بعد اثنتين وعشرين ساعة.

– إذا ثابرتَ على هذه الوتيرة فسيكون في عينيّ شرود كالذي في عينيك.

– سؤال أخير يا أمّ زيدان. لو قيل لك في هذه الدقيقة إنّه لم يبقَ من عمرك سوى اثنتين وعشرين ساعة فماذا تفعلين؟

– أشكر الله ألف مرّة ومرّة لأنّه سيريحني من أتعابي.

– أتموتين ولا أمنية في قلبك؟

– الصحيح أنّني لا أريد أن أموت قبل أن أسمع هشام يتكلّم، وأراه يمشي. وقبل أن تعود سيّدتي من سفرتها. لقد طالت غربتها، وطال شوقي إليها. وهذا البيت بدونها زهرة بدون أريج، وعود بدون أوتار. وأريد، قبل أن أموت، لو يعود إليّ زيدان فأكحّل عينيّ بمنظر طلعته وأضمّه إلى قلبي حتّى يكفّ قلبي عن النبض. آه، آه، آه لو أراه. لقد انقطعت أخباره عنّي منذ عشرين سنة. خرج من البيت ولم يرجع. وأنا لا أعرف إلى أين ذهب، ولا في أيّ بلاد هو الآن. لكنّني أوصيك يا معلّمي، إذا عاد زيدان، أن تدفع إليه جميع ما توفّر لي عندك من أجور. آه، آه، آه!

– وأنا لي إليك وصيّة يا أمّ زيدان. وهي أن تتّصلي تلفونيًّا بالجامعة حال وفاتي. وإليك رقم التلفون.

– ما هذا، ما هذا يا ابني؟ إنّك تخرجني من عقلي، ومن ثيابي، ومن جلدي. ماذا طرأ عليك؟ لماذا تتكلّم عن الموت وأنت من خير الله في صحّة كاملة؟ أتموت وتبقى أمّ زيدان؟ لا سمح الله، لا سمح الله. أمّا التلفون فأنت تعرف أنّ بينه وبين أمّ زيدان عداوة. فهي لا تميّز الأرقام، وهي لا تفهم شيئًا في هذه الآلات الحديثة. أرجوك، أرجوك يا ابني أن تطرد كلّ هذه الأفكار من رأسك. إنّها أفكار سوء. عدْ إلى فراشك ونم ملء عينيك. فلا تزال أمامك حصّة من الليل.

– وهشام. ألعلّه مستيقظ أم غافٍ؟

– هشام. يقبرني هشام. إنّه نائم كالملاك.

– حسن. حسن يا أمّ زيدان. عودي إلى غرفتك.

– وأنت عد إلى فراشك، حلّفتك بالله يا روح أمّ زيدان، لا تعذّب نفسك وتعذّبني. حرام. وكم هي الساعة الآن؟

– الثالثة.

– نم، نم يا حبيبي، واطرد أفكار السوء، فأمامك أيّام بيض. هشام سينطق، وهشام سيمشي، وأمّ هشام ستعود قريبًا إن شاء الله. نم بحراسة الرحمن.

– هنيئًا لك يا أمّ زيدان. عودي إلى غرفتك.

– وأنت يا ابني عد إلى فراشك. نَمْ، نم، بحراسة الله.

الساعة الرابعة

سخيف أنت يا دكتور، سخيف، سخيف. فيمَ اضطرابك وارتباكك؟ وفيمَ اهتمامك بما سيجري بعد أن تموت: مَن الذي سيذيع نبأ موتك، وأين تُدفن، وكيف، وهل تعود زوجك، وهل ينطق هشام ويمشي، وماذا يحلّ به، ومَن يدفع ما عليك ويستوفي ما لك، أو من الذي سيقوم مقامك في الجامعة؟ ما همّك من كلّ ذلك ما دمت، بعد سويعات معدودات، ستغدو كتلة من عظام لا حراك فيها، ولحمًا لا خير منه إلّا للدّود؟ لا يدنو منك جوع ولا عطش، ولا وجع ولا خوف. لا يقلقك فكر ولا تثيرك شهوة. لا تهرول مع الدقائق المهرولة، ولا تنهشك الرغبات الكاسرات. لا يزعجك الحرّ إذا اشتدّ والقرّ إذا استبدّ. لا يأتيك الفجر بالواجبات الجديدة، والنهار بالمتاعب والمشكلات، والليل بالهواجس والوساوس.

حسبك أن لا تتقزّز بعد اليوم من بشاعات تحملها إليك الصحف، وفظاعات يذيعها الراديو، ومن سعايات ونكايات، ومضاربات ومؤامرات، ومفاسد ومظالم، وأكاذيب وأحابيل، ومطامع وأحقاد، وآمال مقهورة، وصلوات مهدورة، ولذّات مطاياها الأوجاع، وأفراح حبلى بالأحزان تواكبك كيفما اتّجهت في المدينة، وفي القرية – حتّى وفي قعر وادٍ أو على رأس جبل.

لن تسمع بعد اليوم أخبار المجاعات والأوبئة، والجرائم والثورات، وأخبار القنابل الذرّية والهيدروجينيّة. ولا أخبار الرقيق الأسود والأبيض، والحشيش والهيروبيين والكوكايين، والمقامر والمواخير، والرشوة والتزوير والتدجيل، والبغضاء والشحناء والتفرقة تثيرها القوميّات والعصبيّات، أو يثيرها الدين. لا لن تسمع بعد اليوم، ولن تبصر شيئًا ممّا كان يؤلمك ويؤذيك. بل سيجعلك الموت من كلّ ذلك في حصن حصين. وستصبح في الموت أقوى من الموت. لأنّ الموت يميت كلّ شيء إلّا الموت. ففيمَ ارتباكك؟ وفيمَ اضطرابك؟

أنتَ يا دكتور كالحمار ينوء بحمله. فيَتَورّك ويتلوّى من الوجع. وعندما يأتيه مَن يريحه من حمله يرفسه. وأنتَ كالكلب أتلفَه الجوع وإذ امتدّت إليه يدٌ بالطعام عضّها. أو أنت كالذي برّح به

الألم من ضرس نَخِر في فمه يصفع الطبيب عندما يُدخل الكلّابة إلى فمه ليستأصل له ضرسه.

وأنت ما نسيت ليلةً ثار فيها عليك ضرس من أضراسك، فما ذقت طعم النوم. واشتدّ عليك الألم فضاقت بك الدنيا حتّى كدت تهشّم رأسك وتهشّم ما تقع عليه يدك من أثاث. وأقلق أنينك مَن في البيت فحرمتهم لذّة النوم. فما صدّقت أن طلع الفجر حتّى هرولت إلى طبيب الأسنان تدقّ بابه وتتوسّل إليه أن يمضي معك في الحال إلى عيادته ليريحك من ضرسك. وكان لك ما كان. وشعرت، من بعد أن تخلّصت من الضرس النكِد، أنّك تخلّصت من كابوس رهيب، وأنّك انتقلت من بؤس لا يُطاق إلى غبطة لا توصف.

وها أنت تعاني الآن مثل ذلك الوجع، بل هو أفظع منه بكثير. في صدرك ضيق لا يطاق. وفي نفسك وحشة ما بعدها وحشة. وفي رأسك بلبلة ولا بلبلة الذين بنوا برج بابل. وليس في فمك سنّ نخِرة أو ضرس نخِر. فما هو الشيء النخِر الذي فيك؟

إنّه العالم الذي أنت فيه. إنّه الحياة التي تحياها ويحياها معك الناس وكلّ ما في الكون. إنّه أنت. أجل – الحياة ذاتها هي الضرس المعرّض أبدًا للسوس. وسوسها يولد معنا ساعة نولد. نحن ننمو والسوس ينمو. فهو يأكل إذ نأكل، ويشرب إذ نشرب، ويلعب إذ نلعب، ويتزوّج إذ نتزوّج، ويعمل إذ نعمل. ولكنّه لا يستريح ولا ينام عندما نستريح وننام. إنّه يرعى بغير انقطاع، ودونما كلل أو ملل، في عروقنا ومفاصلنا وأمعائنا وكلّ قطرة من دمائنا. يرعى في أدمغتنا وأفئدتنا وأكبادنا. يرعى في أفكارنا وأحلامنا، ورغباتنا ونزواتنا. يرعى في أفراحنا وأتراحنا، وفي جدّنا وهزلنا.

ما من نبتة، مهما يكن شأنها بين النبات، إلّا يمشي السوس في جذورها وساقها وكلّ ورقة من أوراقها، فلا يتوقّف هنيهة، ولا يتقهقر قيد شعرة حتّى يقضي عليها. ما من حشرة تدبّ إلّا يدبّ السوس في دبيبها. ما من طائر يصفّق بجناحَين إلّا يصفّق السوس في كلّ ريشة من جناحَيه. ما من بهيمة تقضم عشبة إلّا يقضمها السوس إذ هي تقضم العشبة. ما من وحش يلتهم فريسة إلّا يلتهمه السوس إذ هو يلتهمها.

حتّى التراب. وحتّى المعادن والصخور والجبال لها سوسها الذي يعمل فيها ليل نهار. فهي لا تستقرّ على حال. وحتّى الشمس والقمر، وبنات نعش والثريّا، وجميع الكواكب والكوكبات الهائمة في الفضاء يقرضها السوس قرضًا لا هدنة فيه ولا هوادة. ولا عبرة إذا كانت عينك العشواء لا تبصر ذلك السوس. إنّه هناك. إنّه في كلّ شيء مثلما هو فيك.

ولكن السوس الذي يفتك بالحياة في كلّ سائل وجامد وحيّ هو ذاته شيء حيّ. وهو ذاته معرّض للموت – أي للسّوس. السوس يأكل السوس. والسوس يولد من السوس. فلا الأكل ينتهي. ولا الولادة تنتهي. أيَكون أنّ الحياة سوسة هائلة تأكل ذاتها بذاتها، وتولّد ذاتها من ذاتها، ولذلك تستمرّ إلى ما لا نهاية؟ أيَكون أنّ الحياة هي الموت، والموت هو الحياة؟

تلك هي الأحجية يا دكتور التي ما أظنّ عقلك بقادر على حلّها. إنّه يصرّ على مدّ خطّ فارق بين الحياة والموت. وإذا السوس يعبث بخطوطه ويتركه فاغر الفم، جاحظ العينين، مشلول اليدين والرجلين. أفَلا تركت عقلك وشأنه يا دكتور؟ أفَلا قلتَ للموت: «مرحبًا يا موت!» واسترحت من هذا الوجيب في قلبك؟

رويدك يا دكتور، رويدك. ما دمت تفكّر في السوس الذي يأكل ويؤكل؛ وما دامت لديك سويعات للتفكير، أفَلا فكّرت في الأشياء التي يقوى السوس على أكلها، والأشياء التي لا قدرة له على أكلها؟

السوس يأكل عينيك. ولكنّه لا يأكل الصوَر التي ارتسمت في عينيك، ولا النور الذي لولاه لَما ارتسمت أيّ صورة في عينيك. تذهب العينان ولا تذهب الصوَر. ويذهب البصر ولا يذهب النور.

والسوس يأكل أذنيك. ولكنّه لا يأكل الأصوات التي دخلت أذنيك. تبلى الأذن ولا يبلى الصوت.

والسوس يأكل رئتيك. ولكنه لا يأكل النسمة التي كانت تحرّك رئتيك.

والسوس يأكل الدم الذي لولاه لَما فكّرت، ولا شعرت، ولا تحرّكت. ولكنّه لا يأكل الفكر والشعور والحركة.

والسوس يأكل الشجرة والحشرة، والصخرة والبقرة. ولكنه لا يأكل القدرة التي منها الشجرة والحشرة، والصخرة والبقرة، والتي لولاها لما كانت شجرة جديدة، وحشرة جديدة، وصخرة جديدة، وبقرة جديدة.

ها أنت قد تدير جهازًا صغيرًا في بيتك فتسمع أصواتًا بليت من زمان تلك الحناجر التي انطلقت منها. لقد أكل السوس الحناجر. أمّا الأصوات فباقية. وسيبلى الجهاز الذي التقطها ولا تبلى.

وما أدراك يا ابن العسكري أنّك لست جهازًا أعجب من ذلك الجهاز بكثير؟ فأنت ترسل الأفكار والأصوات والصوَر باستمرار وتلتقطها باستمرار. وسيبلى الجهاز العجيب الذي هو جسدك، وتبقى الأفكار والأصوات والصوَر التي هي أنت.

تبلى الأشياء، ولكن شيئًا فيها لا يبلى. إنّه القدرة التي تخلق الأشياء وتُبليها، أمّا هي فلا يخلقها شيء، ولا يُبليها أيّ شيء. وأنت يخيفك أن تأتيك ساعة تُمحى فيها من الوجود. فكأنّك لم تكن. والمخيف يا صاحبي هو أن لا تُمحى، وأن تبقى تلتقط وترسل من الأفكار والأصوات والصوَر ما ليس ينقطع له حبل أو تُعرف له نهاية. ذلك هو الأمر المخيف: أن تراك في دردور لا خلاص لك منه. أمّا أن تتلاشى – أن تضمحلّ – أن تُمحى كما تمحى كتابة على الماء فيا ليت! يا ليت!

ما هذا الذي أنا فيه؟ أكاد لا أعرف نفسي. فموسى العسكري الذي استسلم للنوم قبل نصف الليل هو غير موسى العسكري الذي استفاق من النوم عند نصف الليل. ذلك لا عهد له بالتفكير في شؤون الحياة والموت. وهذا لا يستطيع التفكير إلّا في الموت والحياة. وهو يفكّر بإلحاح، وإصرار،

وعناد. وعبثًا يحاول التملّص من أفكاره. إنّها، وقد اندفعت إلى الأمام، تأبى التوقّف والتقهقر. فكأنّها كلب الصيد وقد ملأت خياشيمه رائحة الطريدة فانبرى يفتّش عنها بين الأشواك والصخور والأدغال. يفتّش وأنفه إلى التراب، وذنبه يبصبص في الهواء، ولسانه قد اندلق من فمه لشدّة الإعياء. وهو لن يرتدّ حتّى يهتدي إلى الطريدة ويدلّ صاحبه عليها.

إنّ في خياشيم فكري الآن لَرائحة نادرة لطريدة نادرة. تلك الرائحة لم تكن هناك قبل أن أهاب بي الصوت لتوديع «اليوم الأخير». فكأنّ فكري كذلك كان في سبات عميق. فأيقظه الصوت من سباته إذ أيقظني من سباتي. وها هو يندفع في كلّ جانب غير مبال بما يعترض سبيله من أشواك وصخور وأدغال. إنّه لا يبالي إلّا بالطريدة. وهو واثق من أنّ هناك طريدة لأنّ ريحها في خياشيمه. إلّا أنّني أسأل: أين كانت هذه الطريدة وكانت ريحها؟ ولماذا لم أشعر بوجودهما قبل الآن؟

من الأكيد أنّهما لم تكونا في الهواء الذي تنفّست، أو في الشراب الذي شربت، أو في الطعام الذي أكلت. ولا هما كانتا في ما سمعت وأبصرت ولمست. بل كانتا في جيب خفيّ من الجيوب الكثيرة التي يتألّف منها كياني. وذلك الجيب لم أهتدِ إليه قبل الآن.

لكأنّني جيب هائل ضمنه جيوب ضمنها جيوب وجيوب. وفي كلّ جيب كنز يفضي إلى كنز، وسرّ عظيم يقود إلى سرّ أعظم. لكأنّني اللؤلؤة في المحارة: طبقة فوق طبقة فوق طبقة. وفي النهاية – في المحور – ذرّة تكاد لا تُبصَر. وفي تلك الذرّة سرّ اللؤلؤة كلّها. هكذا أحسّني الآن. وهو إحساس ما عرفت له مثيلًا من قبل.

والأعجب من ذلك أنّ فكري الذي كان يدبّ دبيبًا وئيدًا، رتيبًا كدبيب النمل، بات الآن وكأنّه قد نبت له جناحان. وهذان الجناحان هما تارة جناحا فراشة، وطورًا جناحا خطّاف. فمن أين له هذه القوّة، وهذه السرعة؟ وأين اختبأتا قبل اليوم؟ وهل لهما حدود؟

وما هي القوّة، وأين تكمن: أفي العظم، أم في العضل، أم في الدم، أم في الفكر، أم في العاطفة، أم في مكامن أخرى تستعصي على فهمنا؟

هل مَن ينكر أنّ الثعبان أقوى من العصفور؟ ولكنّني شهدت في صباي حربًا بين ثعبان وعصفور كانت الغلبة فيها للعصفور. ولا زال المشهد ماثلًا لعينيّ. فقد تسلّق الثعبان شجرة بَنت عصفورتان فيها عشّهما. وكان في العشّ خمسة فراخ. وما إن ازدرد الثعبان أوّل فرخ منها وهمّ بالثاني حتّى أقبلت العصفورة الأمّ وفي منقارها بعض الطعمة. وإذ أبصرت الثعبان وقد مدّ رأسه إلى الوكر جنّ جنونها. فراحت ترفرف من فوقه ولا تجسر أن تدنو منه. وراحت تزقزق زقزقةً هي الذعر والتفجّع والاستغاثة في آن معًا، وفي أقسى مظاهرها. وبحركة هي الغاية في الرشاقة،

وفي مثل رقّة الجفن، انقضّت على الثعبان، ونقدته في إحدى عينيه نقدة جعلته يهبط عن الشجرة وكأنّه قطعة من حبل.

فمن أين للعصفورة تلك القوّة التي مكّنتها من أن تظفر بحياتها وحياة فراخها في حربها مع الثعبان؟ ألعلّها في محبّة الأمومة؟ وأين تكمن تلك المحبّة – في العظم، أم في اللحم، أم في الدم؟ ولماذا العظم واللحم والدم، منفردة أو مجتمعة، لا تستطيع القيام بمثل تلك البطولات الخارقة إلّا إذا أثارتها عواطف خارقة؟

قرأت مرّة عن رجل كسيح كان جالسًا في حديقة منزله ينعم بأشعة شمس الصباح. وكان باب الحديقة مفتوحًا. وإذا بكلب دانماركيّ عظيم يدخل الحديقة بغتة. فما إن رآه الرجل حتّى صاح من شدّة الذعر. وللحال دبّ الدم في ساقيه اليابستين. وبقفزة واحدة بلغ باب منزله فتوارى في الداخل وأغلق الباب خلفه. ومن بعدها عاد إنسانًا سويًّا. فما هي القدرة التي دفعت الدم في تلك اللحظة إلى ساقيه؟ وأين كانت قبل ذلك؟ ولماذا استنجدها من قبل فلم تنجده؟ أهِي حبّ الحياة؟ ولكنّه ما فتئ يحبّ الحياة منذ أن عرف الحياة. وهل حبّ الحياة يزيد وينقص، ويضعف ويشتدّ، تبعًا للظروف التي نمرّ بها في الحياة؟

والسرعة ما هي؟

أستطيع أن أزحف برجليّ زحفًا، وأن أمشي الهوينا، وأن أعدو عدوًا. وفي الحالات الثلاث أنا أنا – واحد لا غير. فمَن الذي يأمرني بتعديل خطواتي من البطيء إلى السريع، إلى الأسرع؟ أهوَ فكري؟ ومَن الذي ينفّذ الأمر؟ أهوَ دمي؟ ودمي هو دمي – لا ينقص في اللحظة الواحدة ولا يزيد. فكيف به يتباطأ هنا، ويُسرع هناك، ثمّ يزيد في سرعته هنالك؟ ولماذا يكون لِبطئه حدّ لا يتعدّاه، ولسرعته حدّ لا يتجاوزه؟ وإذا كان فكري هو الآمر، ودمي هو المنفّذ، فكيف ينتهي أمر فكري إلى دمي بسرعة تعجز عن التقاطها أيّة حاسّة من حواسّي؟ فما إن يصدر الأمر حتّى يُنَفّذ. ومَن الذي يأمر فكري بأن يُصدر أوامره؟ ألعلّه «فكر» فوق الفكر؟ ألعلّه يكمن في جيب من الجيوب الخفيّة في كياني التي لم تخطر لي بعد حتّى في الحلم؟

وإذا كانت لفكري المقدرة على التحكّم في خطواتي ما بين البطيء والسريع والأسرع فلماذا لا تكون له المقدرة على التحكّم في جسدي كلّه، فيجعله، متى شاء، شفّافًا كالهواء، وخفيفًا كالنسيم؛ ويجعله، متى شاء، كثيفًا كالتراب، وثقيلًا كأثقل الرواسي؟

وهل قوّة فكري قابلة للنموّ؟ وإلى حدّ محدود، أم إلى حيث لا حدود؟

بالأمس كنت رهين التراب، ولا قدرة لي على التملّص من قبضته سواء زحفت عليه زحفًا، أو مشيت الهوينا، أو عدوت عدوًا. وسرعتي القصوى كانت السرعة القصوى في رجليّ. واليوم أطير

في الجوّ بسرعة تفوق سرعة الصوت، وأشقّ طريقي إلى كواكب غير الأرض. وذلك بفضل فكري.

وبالأمس كنت لا أبصر أبعد من مجال بصري. ومجال بصري، حتّى وإن كان كبصر الزبّاء، لم يكن يتجاوز خطّ الأفق. أمّا اليوم فإنّني أبصر كائنات هي من الدقّة بحيث يتعذّر على عيني المجرّدة أن تراها. وأبصر عوالم هي من البعد والضخامة في مجال عظيم. ولكنّ عيني، قبل أن يسعفها فكري، لم تكن تبصرها. ولولا فكري لَما أبصرت اليوم ما كان بالأمس أبعد من مجال عيني. أوَليس يعني ذلك أن فكري في تفتّح مستمرّ؟

وما دام فكري في تفتّح مستمرّ فمَن الذي يستطيع القول إنّه سيتوقّف في تفتّحه عند هذا الحدّ أو ذلك؟ وكيف تكون لِفكري حدود ما دام له ما يفكّر فيه؟ ثمّ حسب فكري أن يفكّر في فكري ليكون بغير حدود. وإذا كان فكري بغير حدود فلا حدود لِما يستطيع أن يفعله بجسدي وبغيره من الأجساد المحدودة. أليس في يده الأمر والنهي؟ أليس له السلطان والجبروت؟ أليس عليّ أن أنمو بنموّه، وأن أتعلّق به وأهمل ما عداه؟ ولكنّني كنت غريبًا عنه قبل الآن. فما كان أجهلني!

لكأنّني وُلدتُ الساعة. بل لكأنّني أعتق من هذه الساعة ومن كلّ ساعة. فعمري عمر فكري. ومَن يدري ما هو عمر فكري؟

السلعة الخامسة

الدقائق تمرّ. وفكري عاجز عن وقفها. وفي جيب من جيوب فكري المفتاح لوقفها. فمتى أهتدي إلى ذلك الجيب؟ متى أجد المفتاح؟

الدقائق تعدو، وأنا كالأبله أحاول سدّ الطريق عليها فأنتهي بسدّ الطريق على نفسي. وما ذلك إلّا لأنّني لم أتعلّم بعدُ ترويض فكري فأحصره حيث أشاء، وللمدّة التي أشاء، بدلًا من أن يحملني حيث يشاء ومن غير أن يكون لي أقلّ سلطان عليه. أربع ساعات انقضت منذ أن ناداني الصوت وأنا لا أبرح مكاني. هكذا يبدو لي. أمّا في الواقع فقد قطعت في هذه الساعات الأربع مسافات لم أقطعها في سبعة وخمسين عامًا.

الدقائق تقرض الدقائق. وها هي تباشير الفجر في شبّاكي. والليل الذي شدّني إلى سريري أخذ يحشرج. والمصباح الذي استعنت بنوره على مغالبة الظلمة بات يغالبني. إنّه مصباح يضيء بضغط زرّ، وينطفئ بضغط زرّ. ولا خير لي فيه بعد الآن.

تباشير الفجر في شبّاكي. فإلى الشبّاك!

أيّ وليمة هي هذه الوليمة الممدودة الآن أمامي! ومَن الذي أولمَها ودعاني إليها؟ ومَن أنا لأكون جديرًا بمثلها؟

أيّ السلافة هي هذه السلافة التي أخذت تدبّ في دمي وفي كلّ مغرز إبرة من جسدي! ومَن الذي استقطرها، وممّاذا؟

هذه الأنفاس اللطيفة، الرقيقة، الناعمة، المؤنسة، الدافئة التي تنزلق برفق عن وجهي، وعن أهدابي، وعن شعر رأسي، أنفاس مَن هي؟ ولماذا تطمئنّ إليها نفسي وتستسلم لها استسلام الرضيع للنوم على صدر أمّه؟

وهذه النجوم المتغامزة في الأعالي – ألعلّها تتغامز عليّ وقد رأتني أرنو إليها من خلال شبّاكي؟ وماذا تراها تقول عنّي أو تقول لي؟ أتقول: «هوذا ضرير يحاول أن يكحلّ عينيه بنور الفجر لعلّه

يبصر الفجر ويبصرنا، ولكنّه لن يبصر الفجر ولن يبصرنا»؟ أم تقول: «عِمْ صباحًا يا دكتور! لقد سمعناك تشكو الانطفاء والامّحاق. وها أنت ترانا الآن، وبعد قليل لن ترانا. ونحن، مع ذلك، لن ننطفئ، ولن نمّحق»؟ مهما يكن الذي تقوله عنّي، أو تقوله لي، هذه النجوم فهي في تغامزها رائعة، رائعة، رائعة!

وهذه السكتة التي ترين على كلّ ما يمتدّ إليه سمعي – لله ما أرهبها وما أقدسها! فلا عشبة توشوش عشبة، ولا غصن يدغدغ غصنًا، ولا عصفور يناغي عصفورة. لا صرير جندب، ولا نقيق ضفدع، ولا ثغاء شاة، ولا نباح كلب، ولا صياح ديك. لا ثرثرة ألسن، ولا زحف أرجل، ولا قعقعة دواليب، ولا هدير محرّكات. لا صراخ أطفال، ولا نداء باعة، ولا عربدات معربدين. لقد خرست الطبيعة كلّها.

ولكنّها سكتة لو كان لي آذان بعدد الأوراق التي على جميع الأشجار في الأرض لَما سمعت إلّا اليسير اليسير ممّا تحدّث عنه، ولَما فهمت من ذلك اليسير إلّا الأقلّ من اليسير.

وكيف لي أن أسمع وأفهم زحف الجذور في ظلمات التراب؟ ودبيب النّسغ في الجذوع واللحاء والغصون؟ وخرير المياه، واصطراع الأبخرة والغازات في جوف الأرض؟ وشقشقة الأمواج وهمهمة الأعماق في البحار؟ ووسوسة النزعات والشهوات في الأحلام؟ وارتكاض الأجنّة في الأرحام؟ ورنين النجوم في الأفلاك؟

وإذا أنا لم أسمع كلّ ما يُسمَع، فأيّ خير لي في سمع ما أسمع؟ إنّني كالولد يلهو عن البحر بصدَفة على الشاطئ. أو كالتلميذ يقرأ من الكتاب كلمة هنا وكلمة هناك ويحسب أنّه قد قرأ وفهم كلّ ما في الكتاب. ألعلّ ما تسمعه أذني خداع في خداع؟

قد يكون. قد يكون. لست أبالي الآن بما تسمعه أذني وبما لا تسمعه. فهذه النشوة التي تبعثها في نفسي سكتة الفجر، والتي لم أتذوّق مثلها في حياتي من قبل، هي حقيقة لا خداع. وهي مشحونة بالأنغام العذبة التي لم تلتقطها أذني، والتقطها خيالي. وهذه الأنغام تحملني على بساط من الغبطة. ولا همّ لي أدامت هذه الغبطة دقيقة، أم ساعة، أم أبديّة. فحسبي منها أنّها غبطة، وأنّ الزمان تعطّل بين يديها. حسبي أنّها انتشلتني من دنيا المقاييس والمعايير والمحاذير.

وعيني؟ ماذا الذي تبصره عيني من خلال شبّاكي؟

إنّها تبصر غلالة من الحرير الأسود الفائق النعومة وقد ذرذرت عليها كفّ ساحر قليلًا من مسحوق الفضّة. عجيبة هي هذه الغلالة. وأعجب منها المنوال الذي حيكت عليه. وأعجب من المنوال الحائك الذي حاكها. وماذا تحتها؟ أشباح وأشباح وأشباح. ولولا أنّني أبصرت من قبل تلك الأشباح في ضوء النهار الفضّاح لَما عرفت أنّها شجر ومبانٍ، ووهاد وتلال وجبال.

أمّا ماذا يجري الآن في ما تحت الغلالة من شجر ومبانٍ، ووهاد وتلال وجبال، وبحور وأنهار، فعيني لا تبصر شيئًا منه. إلّا أنّني أنجد عيني بخيالي. فأبصر من الشجر أشكالًا أَلِفتها عيني من زمان. منها العتيّ، ومنها الفتيّ. منها الذي يطاول السحاب، والذي التصق بالتراب. منها الذي يثمر لنفسه ولغيره، والذي لا يثمر حتّى لنفسه. وفي كلّ شجرة أوراق تعلّقت بالغصون، وغصون بالفروع، وفروع بالجذوع، وجذوع بالجذور، وجذور بالتراب. ولكلّ منها ثدي يرضع منه الحياة. وجميعها تتعاون وتتفانى في سبيل الحفاظ على الشجرة الأمّ وقدرتها على تجديد نسلها كيلا ينقرض من الأرض. إنّ حبّها للبقاء لا يقلّ في شيء عن حبّي للبقاء. وكرهها للفناء لا يقلّ عن كرهي للفناء.

وأبصر في الوهاد والتلال والجبال، وفي البحور والأنهار حياة تدثّرت بالصمت، ولكنّه صمت يضجّ بربوات الأصوات. وحياة تجري إلى حياة. وحياة تلتفّ على حياة. وحياة تقتات بحياة. إنّها الكثرة في المظهر، والوحدة في الجوهر.

وأبصر في المباني المساكن، والمتاجر، والمصانع، والمعابد، والمستشفيات، والثكنات، والمقاهي، والملاهي، والمحاكم، والسجون، ودور العلم والفنّ وغيرها وغيرها من أصناف المباني التي يشيّدها الناس لشتّى الغايات والمناسبات.

ففي المساكن أبصر أرحامًا تمتلئ وأرحامًا تفرغ. وأبصر طفولة تحبو إلى الصبا، وصبا يندفع نحو الشباب، وشبابًا يعدو إلى الكهولة، وكهولة تهرول إلى الشيخوخة، وشيخوخة تدبّ إلى القبر. أبصر عيونًا تدمع، وعيونًا تضحك، وعضلات يفتّتها الوجع والهلع، وأوداجًا يفجّرها الحقد والغضب. أبصر همومًا تتلبّد غيومًا، وغيومًا تنقشع عن نجوم. أبصر حياة الناس في جدّها وهزلها، وفي مدّها وجزرها.

وفي المتاجر أبصر باعة يترصّدون الشاري ترصّد العنكبوت للذبابة. والكلّ قد علقوا في شباك لا براح لهم منها. إنّها شباك الإله الساحر الماكر القهّار الذي اسمه الدينار.

وفي المصانع أرى بشرًا يعالجون ماكينات لا لحم فيها ولا دم، ولا فكر لها ولا قلب. ولكنّها تستعبد الذين يعالجونها، فتمتصّ لحومهم ودماءهم، وتستبدّ بأفكارهم وقلوبهم باسم التقدّم واسم الدينار.

وفي المعابد أرى بخّورًا وشموعًا تحترق، وجباهًا تنطح الأرض، وأكفًّا ترتفع إلى فوق، وأيديًا تقرع الصدور، وشفاهًا تتمتم ابتهالات وتسابيح وضراعات. فلا أرى الجباه تشرق بالنور، ولا الأكفّ تمتلئ بالخيرات، ولا الصدور تتطهّر بالبخّور، ولا الشفاه تسيل بالبركات.

وفي المستشفيات أرى المباضع تعمل في اللحم والعظم، وفي الأحشاء والأمعاء. وأرى الجراثيم في سباق مع العقاقير، والأسرّة تترنّح بالأوجاع، والذين تجنّدوا للدفاع عن العافية ضدّ السقم أرى

بعضهم يطعن العافية في الظهر. ولا عجب. فلو انتصرت العافية على السقم لَما كان لهم ما يعملون. فمِن سُقم الناس رزقهم ورضا الدينار الذي باسمه يسبّحون.

وفي الثكنات أرى أقوامًا جعلت منهم شرائع الناس دمًى وآلاعيب وذبائح تقدّمها لطاغوت يُدعى الدولة أو الأمّة. وهذه الدمى لا تملك من أمرها غير واجب الطاعة العمياء والخرساء. فلا حقّ لها في الصياح، أو النباح، أو الشكوى مهما تكن المهامّ المنوطة بها. إنّها هناك لتزرع الموت ولتحصد الموت عند الحاجة. وأكرِم بزارع الموت وحاصده من بطل!

وفي المقاهي والملاهي أرى الناس يتدافعون بالمناكب هربًا من فراغ هائل في نفوسهم، تزحف فيه الثواني بأرجل من رصاص فتضيّق عليهم أنفاسهم وتكاد تُزهق منهم الروح. إنّهم يستجيرون من الرمضاء بالنار، ويهربون من الدبّ إلى الجبّ، ويطفئون عطشهم إلى الماء القراح بالماء الأجاج. إنّهم يملأون الفراغ بالفراغ، ويطردون السأم بالسأم، ويهزمون الدقائق بالدقائق. فيبقى الفراغ، ويبقى السأم، وتبقى الدقائق. أمّا هم فيتهرّمون.

وفي المحاكم أرى رجالًا تجلببوا بسلطان القانون. ورجالًا ونساءً يستجدون منهم العدل والرحمة باسم القانون. وأرى الرحمة والعدل يقرعان أبواب المحاكم قرعًا موصولًا، فلا تُفتح لهما الأبواب، ولا يُسمح لهما بالدخول.

وفي السجون أبصر الآلاف المؤلّفة من الذين قضى عليهم القانون بالعيش ضمن جدران كالحة، قاسية، عابسة بينها وبين الشمس المحيية والهواء الطلق والنظافة المنعشة جفاء مقيم. مثلما قضى عليهم بالحرمان من كلمة لطيفة، وبسمة عذبة، ولمسة مؤنسة، وبضروب من التعذيب والتهشيم والتحقير يقشعرّ لها حتّى الشيطان الرجيم. أولئك هم الذين في طبائعهم ما ليس يأتلف وطبيعة القانون. ولذلك يطيعون طبائعهم ويعصون طبيعة القانون. فيقتلون وينهاهم القانون. ويحبّون حيث الحبّ جريمة، ويتزوّجون حيث الزواج زنا في عرف القانون. ويأكلون من طيّبات ما رزقهم ربّهم عندما تكون تلك الطيّبات في حوزةٍ غير حوزتهم. فهم لذلك جَرَب وطاعون ونفايات كريهة في مجتمع سليم الروح والبدن، وطاهر النّفس والأنفاس. والقانون الساهر أبدًا على سلامة المجتمع وطهارته يرى الخير كلّ الخير في نبذهم وحصرهم ضمن السجون ريثما من رجاساتهم يتطهّرون.

وفي دور العلم والفنّ أبصر حشودًا من الطلّاب والطالبات وقد أقبلوا ينهلون المعرفة. وها أنا منهل من تلك المناهل. فأيّ المعرفة هي معرفتي؟ وماذا نهلت من غيري لينهله غيري منّي؟ ولو أنّ ما نهلته كان يطفئ عطشًا لأطفأت عطشي. فكيف أروي غيري وأنا عطشان؟ كيف أنير لغيري السبيل وأنا أسير في ظلمة دامسة؟ كيف أكحّل أجفان غيري بمرود الجمال وأجفاني يتأكّلها الصديد والرّمد؟ كيف أحرّر غيري من ربقة الأرض والسماء وطواغيت الهموم والشهوات، وأنا رقيق السماء والأرض، والشهوة والهمّ؟

إنّي لأبصر بخيالي في لحظات ما يستحيل على عيني أن تبصره في عمر كامل، بل في سلسلة طويلة من الأعمار. وتبقى الأشياء التي لا أبصرها حتّى بخيالي أضعاف أضعاف التي أبصرها. ويبقى يعذّبني شوق عنيد إلى رؤية كلّ ما تحجّب عن بصري وعن خيالي. فمن أين هذا الشوق؟ وكيف السبيل إلى إطفائه؟ ومتى أبصر كلّ شيء؟

إنّها لَوليمة لا أسخى، ولا أبهى، ولا أشهى هذه الوليمة الممدودة الآن، وفي كلّ آن، أمامي. أصنافها تفوق الحصر. وكذلك المدعوّون إليها. والعجيب العجيب في أمرها أنّ المدعوّين إليها هم الطعام والشراب. وهم الآكلون والشاربون. فما يدري الواحد منهم متى يكون الآكل والشارب، ومتى يكون المأكول والمشروب. والذي يأكلونه هو الشهد أحيانًا، وأحلى من الشهد؛ وأحيانًا هو الحنظل، وأمرّ من الحنظل. والذي يشربونه هو آنًا ماء الكوثر، وآونة الماء الأجاج. وقطّ لم يأكل أيّ منهم الشهد دون الحنظل، ولا شرب ماء الكوثر دون الماء الأجاج. وتراهم، مع ذلك، لا ينفكّون يأكلون ويشربون ويتقاتلون على ما يأكلون ويشربون.

ها أنا، ولم يبقَ من عمري غير ساعات معدودات، آكل فلا أشبع، وأشرب فلا أرتوي، وأعرف حقّ المعرفة أنّ الدقائق تبريني بريًا، والجراثيم تنهشني نهشًا، والهموم تهصرني هصرًا. وأتمنّى، مع ذلك، لو يدوم لي ما أنا فيه – لو تدوم لي هذه الوليمة حتّى نهاية الدهر. فمن أين لي هذه الشهيّة وهذه الشراهة؟

لقد كان لي أن أغتبط بما قاله لي الصوت عند منتصف الليل. فأودّع يومي الأخير غير آسف عليه، وعلى ما كان قبله، وما سيأتي بعده. إذ لن يثيرني بعد ذلك أيّ جوع، ولن يحرقني أيّ عطش. ولكنّني غير مغتبط. فمجرّد التفكير بأنّني بعد قليل سأُحذف من بين المدعوّين إلى هذه الوليمة؛ وأنّ الوليمة ستستمرّ سخيّة، شهيّةً، بهيّة ولكن ليس لي بل لغيري – إنّ مجرّد التفكير في ذلك يفسد عليّ النشوة التي حملها إليّ هذا الفجر.

إنّي أودّ أن أعيش! بذلك تهتف كلّ قطرة من دمي، وكلّ نسمة في صدري، وكلّ خليّة في جسدي.

نعم، يا ربّ الوليمة. إنّي أريد أن أُشبع النهم الذي أثارته فيّ وليمتك. والذي يولم مثل هذه الوليمة لا يمكن أن يكون من البخل والبغض والفظاظة بحيث يطرد الذين دعاهم إلى وليمته طردًا. ويطردهم جياعًا، عطاشًا، ومرهقين بشتّى الأحزان والأوجاع والمخاوف. فكيف أوفّق بين جودك ومحبّتك ولطفك التي لا قبلها ولا بعدها ما يماثلها جودًا ومحبّة ولطفًا وبين بخلك وبغضك وفظاظتك التي لا مثيل لها من قبل ومن بعد؟

أودّ أن أعيش. أودّ أن أشبع وأن أرتوي يا ربّ الوليمة. وها أنت تنذرني بأنّ هذا اليوم هو يومي الأخير من وليمتك. فلا فجر بعد هذا الفجر. ولا مفاتن كهذه المفاتن التي نثرتها الآن أمامي. ولا

نشوة كهذه النشوة التي أثارتها تلك المفاتن في نفسي.

إنّي أريد لنشوتي أن تدوم. ولكنّك تختلسها منّي مع كلّ نبض من أنباضي ورفّة من اجفاني لتعوّضني عنها جوعًا جديدًا إلى نشوة جديدة. شبع فجوع. وريّ فظمأ؟ أما كان شبع لا يؤدّي إلى جوع، وريّ لا ينتهي إلى ظمأ؟ أَما كان الأَولى بك لو لم تدعُني إلى وليمتك، فلا آكل منها ولا أشرب ولا أبقى نهبًا لجوع لا يشبع وعطش لا يرتوي؟

هوَذا الديك يصيح. وكأنّني أسمع في صياحه صياح أبديّات من الجوع والعطش. أيقظ غيري أيّها الديك، فأنا يقظان من زمان.

وهذا صوت ناقوس تحمله إليّ سكينة الفجر من بعيد. إنّه ناقوس ديرٍ فيه راهبات. وهو يدعوهنّ للصلاة.

ثمّ هذا صوت المؤذّن ينادي: «حيّ على الصلاة!» إنّه يدعو المؤمنين إلى وليمة يوم جديد، وإلى المثول أمام ربّ الوليمة وتأدية الشكر له على جوع جديد وعطش جديد.

ادعُ غيري إلى الصلاة أيّها الناقوس وأيّها المؤذّن. أمّا أنا فقد صلّيت كثيرًا مع المصلّين. صلّيت من أجل العافية والخير والراحة والسلام والطمأنينة لي ولعيالي وللناس. فلا أنا، ولا عيالي، ولا الناس في عافية وخير وراحة وسلام وطمأنينة. لقد ذهبت صلواتي وصلواتهم صرخة في واد، ونفخة في رماد. وكذلك ذهبت صلوات الذين سبقونا منذ آلاف السنين.

صلّيت بدافع الخوف من ربّ الوليمة. فقد كنت أخشى في كلّ يوم، وفي كلّ لحظة، أن يحرمني من وليمته. وصلّيت بدافع الطمع في نصيب أوفر من الوليمة. فكان نصيبي جوعًا فوق جوع، وعطشًا فوق عطش. وفاتني أنّ الذي أولَمَ هذه الوليمة لم يولمها للخائفين والطامعين.

أمّا الآن، وفي حضرة هذا الصباح الطفل الذي أخذ يعبث بالنجوم فيطفئها نجمةً نجمة، فإنّي أودّ أن أصلّي صلاة جديدة – صلاة لا خوف فيها، ولا طمع، ولا مذلّة:

«يا ربّ الوليمة! أنا جائع. ولولا وليمتك السخيّة، الشهيّة، لما عرفت الجوع.

وأنا عطشان. ولولا وليمتك الغنيّة، البهيّة، لما عرفت العطش.

أنا جائع، والزاد موفور. إلّا أنّني ما إن آكل من زادك فأشبع حتّى يأكل مني زادك فأجوع.

وأنا عطشان، والشراب ميسور. لكنّني ما إن أشرب من شرابك فأرتوي حتّى يشرب منّي شرابك فأعطش.

أقول لعيني: اشبعي! فلا تشبع.

وأقول لأذني: اشبعي! فلا تشبع.

وأقول ليدي: اشبعي! فلا تشبع.

وأقول لأنفي: اشبع! فلا يشبع.

وأقول لفمي: اشبع! فلا يشبع.

وما حيلتي معها، وأنت لا تنفكّ تغريها بأشياء تُسيل اللعاب ولا تُشبع؟

ما حيلتي، وأنت تستردّ بيسارك ما تعطيه بيمينك؟ وما أنت بالبخيل. بل أنت الكرم كلّ الكرم.

ألعلّني لا أُحسن الاختيار فآخذ من وليمتك ما يُغري بالشبع ولا يُشبع، وما يُغري بالريّ ولا يُروي؟

أم لعلّني فاقد الحشمة فآخذ من الوليمة فوق نصيبي فيفوتني حتّى نصيبي؟

أوَليس في وليمتك، يا ربّ الوليمة، ما إذا أكلت منه وشربت شبعت وارتويت الآن، وبعد الآن، وإلى آخر الزمان؟

وكيف لا يكون في وليمتك مثل ذلك الطعام وفي داخلي جوع صارخ إليه؟

وكيف لا يكون في وليمتك مثل ذلك الشراب، وفي داخلي عطش قتّال إليه؟

وهذا العطش وذلك الجوع ما أحسستهما قبل اليوم، وقبل هذا الفجر وهذا الصباح. أمّا الآن فأكاد لا أحسّ من وجودي أيّ شيء سواهما.

فاهدني، يا ربّ الوليمة، إلى الطعام الذي إذا شبعت منه شبعت إلى الأبد.

واهدني إلى الشراب الذي إذا ارتويت منه ارتويت إلى الأبد.

ففي وليمتك الشبع لكلّ جائع يعرف ماذا يأكل، وكيف يأكل.

وفي وليمتك الريّ لكلّ عطشان يعرف ماذا يشرب، وكيف يشرب.

الساعة السادسة

صباح جديد!

وأيّ صباح ليس بالجديد؟ بل أيّ ساعة، أو دقيقة، أو ثانية ليست بالجديدة؟

ولكنْ تبّتِ الحواس البليدة. فهي تألف الأشياء من يوم ليوم، ومن عام لعام فتبدو لها وكأنّها لم يطرأ عليها أيّ تبديل، أو تغيير، أو تعديل. في حين أنّها تتغيّر وتتبدّل وتتعدّل في كلّ رفّة جفن. وكذلك الحواس التي تعمل عليها وتتأثّر بها.

في كلّ صباح أنهض من فراشي وأمضي أقوم بحركات لا حصر لها ولا عدّ. وهذه الحركات تتشابه بين صباح وصباح. ولكنّها لا يمكن أبدًا أن تكون عين الحركات في صباحين متتاليين. ويلازمني، مع ذلك، الشعور العنيد بأنّ الذي يقوم بهذه الحركات هو هو. إنّه أنا.

وهذه الدوّامة الهائلة من الحركة التي تكتنفني من كلّ جانب، والتي لا يستقرّ فيها أيّ شيء على حالة واحدة في لمحتين متتاليتين، تبدو لي وكأنّها تخضع في حركتها لنظام. أوَليس يعني ذلك أن النظام هو وحده الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل في دنيا كلّ ما فيها يتغيّر ويتبدّل باستمرار؟ ثمّ أليس يعني ذلك أن شعوري العنيد باستمرار ما أدعوه «أنا» هو بعض من ذلك النظام؟

أنا في النظام. والنظام فيّ. فما أكبرني! ولكنّ النظام يفهمني فيسيّرني. وأجهله فأنصاع له. فما أصغرني! أفَما من سبيل لي إلى فهمه؟

لكأنّني أسمع في داخلي أصواتًا تؤكّد لي أنّ السبيل موجود، وأنّني سائر فيه. وإلّا لما كان شعوري بالنظام، وشوقي إلى فهمه في جميع مظاهره. فأنا متى فهمته اكتملت به، وفارقني الشعور بالعبوديّة لتقلّبات لا رأي لي فيها، ولا سلطان لي عليها.

إلّا أنّني أعود فأسأل نفسي عن ذلك النظام من أين جاء؟ ومن الذي جاء به؟ وهل من غاية وراءه؟ وما هي تلك الغاية؟ وهل إذا أنا أدركتها أدركت المعرفة التي ينتهي إليها وينطفئ فيها كلّ شوق إلى المعرفة؛ وبلغت الحرّيّة التي يموت لديها الموت، وتختنق جميع المخاوف والهموم

والرغبات والنزوات والمطامع، ويبقى، مع ذلك، الشعور بديمومة خارج حدود الزمان والمكان، وخارج نطاق الخير والشرّ؟

رويدك، رويدك يا موسى العسكري. ولا يغرنّك أنّك تحمل لقب دكتور في الفلسفة. فالأرض التي تجوسها الآن بفكرك أرض وعر، فيها الشوك، وفيها الصخر، وفيها الثعابين والتنانين، والمزالق والمهاوي، والرمال العطشى التي تمتصّ دماء السائرين عليها ولا ترتوي. وفكرك لا يزال طفلًا يحبو. أو هو كالفرخ لم يكتسِ بعد بالريش، ولا امتدّ جناحاه إلى أبعد من حافّة العشّ.

رويدك واسمع ما يقوله الصباح الجديد.

وماذا يقول الصباح الجديد؟

إنّه يهزأ منك كما يهزأ البحر من سمكة فيه تحاول أن تبتلعه. فمن أين لأذنك أن تسمع كلّ ما يقوله هذا الصباح، ولفكرك أن يعي كلّ ما يسوقه في ركابه من عجائب، ولعين خيالك أن تبصر جميع الكائنات التي أطلّت على الأرض لأوّل مرّة، أو لآخر مرّة، مع إطلالته؟ فهناك ربوات الأعشاب والأزهار والحشرات والزحّافات والمجنّحات والبهائم والآدميّين الذين درجوا في هذا الصباح من غياهب الظلمات في التراب والبيوض والأرحام إلى مسارح النور. وهناك ربوات الذين لفّهم هذا الصباح بأكفان الظلمة. إنّه الصباح الأوّل والصباح الأخير لربوات الكائنات.

من الأكيد أنّ بين الذين أيقظهم هذا الصباح وأرسلهم في طلب الرزق، آلافًا مؤلّفة من الآدميّين وغير الآدميّين الذين لن يبصروا صباحًا بعد هذا الصباح. ولكنّهم لا يعرفون. ولذلك يسعون ويزاحمون ويجاهدون. وهؤلاء منهم الضاحكون والهازجون. ومنهم الباكون والنائحون. ولكنّهم جميعًا بأذيال الحياة يتمسّكون ولا تمسّك الرضيع بثدي أمّه. إلّاك يا مسكين. أنت وحدك قد جاءك النبأ بأنّ هذا الصباح سيكون صباحك الأخير. فأيّ معنى لأيّ سعي تسعاه؟ وأيّ نفع في أيّ فكر تفكّره، وخيال تتخيّله، وشهوة تشتهيها، ونيّة تنويها؟

لَخير منك يا مسكين هذا الديك الذي يصيح الآن بأقصى ما في حنجرته من قوّة. إنّه مزهوّ بصوته وبحنجرته وبعرفه الأحمر، وريشه الذي يبدو حديقة من الألوان، وبسلطانه المطلق على الدجاجات في الحوش، وبأنّه يقوم بوظيفته في تجديد نسل الدجاج خير القيام. فهو لا يعرف أن السكّين قد يحزّ حلقومه بعد ساعة أو بعد دقيقة. ولو عرف لَما صاح.

وخير منك هذا البائع المتجوّل الذي ينادي بأعلى صوته: يا الله عَ الخيار، عَ البندوره، عَ الباتنجان! فهو لو عرف أنّه سيموت الليلة لَما رفع صوته بالنداء.

وخير منك تلك العجوز وقد غسلت ثيابها وخرجت تنشرها في الشمس. فهي لو درت أنّها لن تعيش لتلبسها لَما غسلتها ونشرتها في الشمس.

وخير منك جارك وقد جلس أمام الراديو وفتحه إلى أقصى حدوده وراح يستمع إلى المذيع يعرض عليه أخبار العالم. ويا لها من أخبار! لكأنّ الأرض بركان يوشك أن ينفجر بما يتأجّج في جوفه من نيران الحقد والبغض والغضب والجشع والكره والعداوة. ولكنّ جارك لا يمتقع لونه، ولا تتشنّج أعصابه، ولا تضطرب أنباض قلبه. بل كأنّه يشرب ما يسمع من أخبار كما تشرب الصحراء دمع السحاب. فكأنّ البركان إذا انفجر سيطمر كلّ مَن على الأرض إلّاه. فمخاوفه مبطّنة بالرجاء، وعبوسته بالابتسام.

أمّا أنت يا مسكين فيا ليتك كنت كبائع الخيار والبندوره والباذنجان، وكان لك فرحه بربح يجنيه، وقوتٍ يكسبه لنفسه ولبنيه، وأملٍ بيوم بعد هذا اليوم.

ما بال عينك قد احتجبت في هذه اللحظة عن كلّ ما في العالم إلّا عن القميص الذي على بدنك، وإلّا عن بقعة ضيّقة من ذلك القميص تغطّي بعض صدرك؟ فأنت تحملق إلى تلك البقعة الصغيرة كما لو كانت أدهش شيء في الكون. والذي يدهشك منها أنّها لا تنفكّ تختلج بانتظام، فتعلو قليلًا ثمّ تهبط بقدر ما تعلو. وهكذا دواليك. وما من يدٍ تدفعها على العلوّ والهبوط. فمن أين اختلاجها؟ ولماذا اختلاجها؟

– سخيف أنت يا دكتور، سخيف، سخيف! ألعلّك عشت ما عشت من السنين ولم تدرك أنّ اختلاج صدرك ناتج عن اختلاج الرئتين اللتين ضمن صدرك؟

– ومن أين للرئتين اختلاجهما؟

– تبًّا لك من مغفّل! إنّه من الهواء الذي تتنشّقانه عن طريق الأنف أو الفم.

– ولماذا اختلاجهما؟

– لأنّهما عندما تتنشّقان الهواء تنفتحان، وعندما تدفعانه إلى الخارج تنطبقان.

– ولماذا تتنشّق الرئتان الهواء ثمّ تنفثانه؟

– لأنّهما تحرقان الكربون بالأوكسجين. فيتحوّل إلى ثاني أوكسيد الكربون. وهو للجسد سمّ زعاف. ولذلك تنفثه الرئتان.

– ومن أين للرئتين أن تعرفا أنّ لا حياة للجسد بدون الأوكسجين، وأنّه موجود في الهواء؟ ثمّ من أين لهما القدرة على حرقه، وأخذ الصالح منه ونبذ الطالح؟ ألعلّهما تفكّران، وتميّزان، وتعملان عن قصد وتصميم؟ أم لعلّهما درستا الكيمياء في جامعة من الجامعات؟ إنّهما، بما تبديانه من دقّة فائقة في القيام بوظيفتهما، لأحرى بلقب «دكتور في الكيمياء» من أيّ كيميائي عرفته الأرض.

– أما علمت أيّها المغفّل أنّ الجسم كلّه معمل كيميائي هائل، وأنّ الذين يعملون فيه جيش جرّار؟ من ذلك الجيش الرئتان والقلب والكبد والمعدة والكليتان والأمعاء وأصناف كثيرة من الغدد، ثمّ الدم الذي يقوم بدور ضابط الارتباط بين هذه كلّها، فيحمل منها وإليها الموادّ الضروريّة لحياتها

وعملها. يدخل الهواء هذا المعمل وإذا به يتحوّل في مثل طرفة العين نفسًا رتيبًا؛ وإذا النفس الرتيب يدفع قطرات الدم في مجاريها العجيبة إلى القلب ومنه. فينبض القلب نبضه الرتيب.

ويدخل الماء ذلك المعمل ليلطّف ما زاد من حرارته، وليغسل ما علق ببعض أجزائه من أدران، ثمّ ليخرج منه وقد حمل الكثير من تلك الأدران فبات لونه ومذاقه ورائحته عند خروجه من الجسد غير لونه ومذاقه ورائحته عند دخوله. لقد كان طهارة فانقلب قذارة.

وكذلك هي حال الجسد مع ما يدخل إليه من غذاء ما بين لحوم وبقول وحبوب وفاكهة وغيرها وغيرها. فهذه، من بعد أن يُجري عليها الجسد عمليّاته الكيميائيّة العجيبة، يفرزها نفايات كريهة إلى حدّ أنّه – هو ذاته – يتقزّز من لمسها وشمّها. ولكنّه لا يفرزها إلّا من بعد أن يكون قد حوّلها لحمًا في لحمه، وعظمًا في عظمه، ودمًا في دمه، وطاقة مدهشة على الحركة، وعلى التفكير والتخيّل، والشعور باللذّة والألم، والخير والشرّ، والطمأنينة والقلق، والرغبة التي لا تُعانَد في تجديد النسل، والشوق إلى الحياة التي لا يقهرها الموت.

– صحيح. صحيح. ولكنّني لا أفهم كيف تتحوّل حبّة القمح، أو الزبيب، أو الزيتون، أو اللوز، أو البندق وغيرها وغيرها من الحبوب والبقول واللحوم والسوائل التي يتناولها الإنسان – لا أفهم كيف تتحوّل هذه كلّها قداسة ورجاسة، وعفّة ودعارة، وسخطًا ورضى، وطمعًا وقناعة، ورجاء وقنوطًا، وأمانة وخيانة، وشهامة ونذالة، وإيمانًا وإلحادًا، وسلامًا وحربًا، وحياة وموتًا. كيف تكون للجسد هذه القدرة الخارقة على تحويل الأشياء ولا تكون له القدرة على تحويلها لخيره لا لويله، ولحياته لا لموته؟

ثمّ لا أفهم من أين للجيش الجرّار العامل في المعمل الكيميائيّ العجيب الذي هو الجسد – من أين له هذا الانضباط المدهش في العمل، وهذه الدقّة المتناهية في التواقت الذي يرافق كلّ حركة من حركاته. فكلّ ما يجري في الجسد يجري بمعرفة كلّ خليّة، وكلّ قطرة دم فيه. وهو يجري في حينه – لا قبل ولا بعد. ألعلّ جميع العاملين في ذلك المعمل – من شعرة تحت الإبط، إلى قطرة في المثانة، إلى ظفر على الخنصر، إلى خليّة في الدماغ – في تفاهم دائم على ما يجب أن يعملوه أو لا يعملوه، وفي أيّ لحظة يعملونه أو لا يعملونه؟ أم أن هنالك قائدًا يصدر أوامره إلى ذلك الجيش الجرّار فيطيعه الجيش دون أنّ يكون لأيّ من أفراده حقّ الاعتراض؟ ومن هو ذلك القائد؟ وهل هو في الجسد أو خارجه؟ وهل يهدف إلى غاية؟ وما هي غايته؟

– عدت يا مغفّل إلى الهذيان، وإلى الركض في أرض كثيرة الشوك والصخر، والمزالق والمهاوي. ونسيت أنّك لست أكثر من دكتور في الفلسفة، ومن أستاذ في جامعة، ومن زوج هجرته زوجة، ووالد لا يعرف ولده ولا يعرفه ولده. أنت، في الظاهر، ربّ بيت. أمّا في الواقع فبيتك ربّك، بل ربّك كلّ شيء، ولست ربّ شيء.

– أريد أن أعرف كيف تكوّن ذلك المعمل العجيب من نطفة في رحم. وهي نطفة لو أنا نظرت إليها بعيني المجرّدة، أو بعيني المسلّحة بأدقّ المجاهر، لما أبصرت فيها أثرًا لعين أو لأنف، ولا ليد أو رجل، ولا لقلب أو كبد، ولا لفكر أو لعاطفة، ولا لأيّ من العناصر والأجزاء العديدة التي يتألّف منها. وأريد أن أعرف كيف يكتمل بناؤه في فترة من الزمن لا تتعدّى تسعة شهور، ثمّ كيف يأخذ في النموّ إلى أن يغدو رجلًا سويًّا أو امرأة سوية. وإذا به يملأ الأرض صياحًا ونباحًا ونواحًا. فآنًا يشرق بالدمع. وآونة يغرق في الدم. وأخرى يزغرد ويعربد ويقهقه. وما أكثر ما تضيق به الأرض فيتطلّع إلى أبعد منها – إلى الفضاء الأوسع وكلّ ما يدور فيه من عوالم لا حصر لها ولا عدّ.

لكأنّه – وهو من ضآلة الحجم ما هو – يطمح إلى جمع الأكوان كلّها في قبضة يده أو في بؤبؤ عينه. ذلك هو العجب العجب. ألعلّ الإنسان أعظم من سائر الأكوان؟ أم لعلّ الأكوان كلّها في الإنسان؟

إلّا أنّه لا يلبث بعد حين أن تنقطع رئتاه عن الانفتاح والانغلاق، وقلبه عن النبض فينطفئ النور في عينيه، وتخرس الأصوات في أذنيه، وتهرب الحركة من لسانه ومن يديه ورجليه، وينتحر الدم في عروقه. فيغدو جيفة لا أثر فيها لأيّ فكر أو عاطفة، ولا خير يرجى منها إلّا أن تكون مرعى للدود وسمادًا للأعشاب.

ألمثل هذه النهاية الزريّة وُجد الإنسان؟

لو أنّ ولدًا كان يبني أبراجًا من الرمل على الشاطئ ثمّ يعبث بها فيذروها للرياح لقلنا إنّه ولد طائش يلهو بقتل الوقت. ولكنّ الذي كوّن الإنسان فجاء آية الآيات في جمال التكوين ودقته ونظامه – أمِن الممكن أن يكون من الخفّة والطيش بحيث يهدم ويبعثر في لمحة الطّرف ما أنفق السنين في تكوينه ورعايته، لا لقصد إلّا للتسلية وقتل الوقت؟ أمّا مَن هو ذلك المكوّن، أو المهندس، أهو ربّ واحد، أم مجموعة من الأرباب، أم هو ما يدعونه الطبيعة – فما شأني أنا من كلّ ذلك؟ إنّ شأني الأوّل والأخير هو مع الدكتور موسى العسكري – هذا الرجل الجالس الآن أمام شبّاكه يودّع صباحه الأخير، وكان بودّه لو يطول صباحه ويطول فينتهي الزمان ولا ينتهي.

– هذيان. هذيان... هذيان ...

– هذيان؟! وأيّ الناس لا يهذي؟ أيّ شاعر، أو كاتب، أو فيلسوف، أو عالم، أو فنّان، أو عامل، أو رجل دين، أو رجل دولة، أو قائد، أو جنديّ لا يهذي؟ بل أيّ خير في أيّ إنسان لا يهذي بين أناس اختلط حابلهم بنابلهم فلا هم يعرفون معنى الحياة إذ يحيون، ولا معنى الموت إذ يموتون؟ إنّهم أبدًا يهذون. ولكنّهم، في هذيانهم، عن ضالّة يفتّشون. وما هي تلك الضالّة؟ إنّها النظام الذي به يحيون ويموتون. النظام الذي به يحيا كلّ ما في الكون ويموت.

هذيان. نظام. هذيان النظام ونظام الهذيان. وليفهم البُلْه والمغفّلون!

مَن. مَن هذا يقرع الباب؟ آ ! أمّ زيدان؟ ادخلي ادخلي.

– صباح الخير يا ابني! طال رقادك أكثر من المعتاد. فشغلت بالي. وكنت في مثل هذه الساعة تتفقّد الأزهار في الحديقة، وهناك تتناول قهوتك وتدخّن سيكارتك. وها أنا قد أعددت لك القهوة. أرجو أن تكون قد نمت نومًا هنيئًا من بعد أن تركتك قبل ساعات.

– لا أهنأ، ولا أعمق...

– الحمد لله. الحمد لله. ولكن...

– ولكن ماذا يا أمّ زيدان؟

– ولكن... في عينيك ما يقول غير ما تقول.

– مثلًا.

– شرود كالذي أبصرته فيهما قبل ساعات.

– هذيان، يا أمّ زيدان. هذيان.

– هذيان؟! لم أسمع بهذا المرض في حياتي قبل اليوم.

– ولا سمع غيرك. إنّه هذيان النظام يا أمّ زيدان.

– هذيان النظام؟! نجّنا يا الله! وهل هو مرض مخيف يا ابني؟

– جدًّا.

– وهل أنت مصاب به من زمان؟

– منذ نصف الليل الذي فات وما مات.

– ويلي! سلامة عينك يا ابني. عين أمّ زيدان ولا عينك. وماذا تريد أن أعدّ لفطورك؟

– لا شيء. أما ترين بطني كيف يندلق من فرط سمنتي؟ والسمنة خطر وأيّ خطر على من كان في سنّي. إذ أنّها قد تؤدّي إلى انفجار في القلب.

– لا سمح الله. لا سمح الله. ليتني أموت.

– وهشام؟ هل تناول فطوره؟

– هشام. يقبرني هشام. أكل قبل الضوء. أكل بيضتين مقليّتين مع الجامبون، وحصّة كبيرة من «التوست» مع الزبدة والعسل وفنجانًا من القهوة بالحليب. ليتك تأكل قدر ما يأكل هشام.

– أتعرفين أين نحن اليوم من الشهر يا أمّ زيدان؟

– أعرف أنّ اليوم السبت، وأنّنا في حزيران. وها هي الروزنامة على الحائط أمامك.

– بلى. بلى. إنّه السبت والحادي والعشرون من حزيران – أطول نهار في السنة.

وبغتة طغت على وجه أمّ زيدان المتجعّد ابتسامة غريبة. وانكشفت شفتاها الذاويتان عن نابين أصفرين هما كلّ ما تبقّى في فكّها الأسفل من أسنان، وقالت والكلمات تتردّد في الخروج من فمها.

– قاتل الله العجائز. إنّهنّ كثيرات الثرثرة والهواجس والتكهّنات. أتريد أن تسمع الحلم الذي أبصرته عند الفجر؟

– هاتي.

– لا تضحك يا ابني. فأنا أؤمن بأحلامي.

– هاتي.

– حلمت أنّ بائع سمك جاءني وفي يده – لا في سلّته – سمكة وحيدة، وجميلة جدًّا. وقبل أن أفوه بكلمة بادرني بقوله: «لقد اخترت هذه السمكة للدكتور. خذيها بدون ثمن».

قلت: ألعلّك لم تصطد غيرها؟

قال: بل اصطدت أثمن منها وأكبر منها. ولكنّني لا أدري لماذا ارتسمت في عيني صورة الدكتور عندما اصطدتها، فقلت: «هذه يجب أن تكون من نصيبه».

– وأخذت منه السمكة؟

– نعم. أخذتها.

– ودفعت ثمنها؟

– دفعت.

– وانتهى الحلم؟

– وانتهى الحلم.

– ومغزاه؟

– مغزاه أنّ السمكة تأتيك إلى بيتك هي رمز لهديّة ثمينة، أو... لعروس.

– عروس؟! ولمن؟ لي؟!

– إي. إي. عروس لك. وليس من الضروري أن تكون عروسًا جديدة. بل قد تكون... قد تكون... قديمة. وفهمك كفاية. والقهوة في انتظارك.

وكان في صوت أمّ زيدان وفي عينيها شيء من الخبث الطاهر.

الساعة السابعة

قمت في هذا الصباح بجميع الحركات التي اعتدت القيام بها في كلّ صباح: اغتسلت، وحلقت، وتطيّبت، وارتديت ثيابي، وتناولت فطوري، وقرأت جريدة الصباح مع الفطور. فآلمني حتّى الغثيان ما يتخبّط فيه عالم اليوم من تفاهات وبشاعات وخساسات ومشكلات لا مسبّب لها إلّا الجهل، وإلّا الطمع في ما يزيد الإنسان جهلًا وعبوديّة للجهل. ثمّ لبثت مكاني وأنا كالمسحور، لا أدري أنّى أتّجه، وماذا أعمل، ولا ماذا أفكّر أو أقول.

وبغتة طفقت أضحك. ولكنّ ضحكي كان ضحك المعتوه والأبله. ويبدو أنّه كان عاليًا إلى حدّ أن سمعته أمّ زيدان في المطبخ. فهرولت تستجلي الخبر وقد ظنّت، للوهلة الأولى، أنّ زائرًا غريبًا قد دخل عليّ. ولشدّ ما أذهلها أن تجدني وحدي، وحيث تركتني منذ دقائق. فوقفت تنظر إليّ بعينين فيهما من الدهشة أشكال وألوان. وبعد تردّد رفعت يديها إلى جبينها المتغضّن لتردّ عنه خصيلات من شعرها الأشيب، ثمّ لتقول بشيء من الارتباك والخجل:

– يا كسرتي! أظنّك تضحك منّي – من شعري المشعّث، ومريولي الطويل، وفستاني القصير، وجواربي الفضفاضة. بلى. بلى. إنّك تضحك من قيافتي. ما العمل؟ وهل لعجوز مثلي أن تعود صبيّة؟ لا كانت العجائز.

وآلمني أن تفسّر أمّ زيدان ضحكي الأبله ذلك التفسير. فأكّدت لها بكلّ ما أملك من قوّة أنّها لم تكن مصيبة في تفسيرها. وأغلب الظنّ أنّ تأكيدي لم يقنعها.

وكيف أقنع أمّ زيدان أنّني كنت أضحك من نفسي ومن الحركات التي قمت بها في هذا الصباح، وأنا أعرف أنّه آخر صباح أستقبله وأودّعه في حياتي؟ لماذا اغتسلت؟ ولماذا حلقت؟ ولماذا تطيّبت؟ ألعلّ الدود ينفر من جسدي غدًا إلّا إذا فاحت عليه منه رائحة الصابون والكولونيا، وإلّا إذا كانت ذقني طاهرة من الشعر؟ ثمّ لماذا اهتمامي بكسرة بنطلوني، وعقدة رقبتي، ولون جواربي،

ونظافة أسناني، وأظافري، وحذائي، وتسريح شعري بطريقة تغطّي قسمًا كبيرًا من صلعتي؟ ألعلّ الموت موتان: موت أنيق وموت غير أنيق؟ أم هي العادة وسلطانها الذي لا يعانَد؟

حقًّا إنّ للعادة على الناس سلطانًا لا يضاهيه أيّ سلطان. وهم، مع ذلك، لا ينفكّون يتشدّقون بالحريّة. ولو أنا حاولت في هذه الدقيقة أن أفكّر بالناس وشتّى العادات العاتية التي بوحيها يعملون وبأوامرها يأتمرون لبات رأسي في دوار.

وخطر في بالي هشام. وكنت أعرف أنّ أمّ زيدان قد أخرجته إلى الحديقة لينعم بأشعّة شمس الصباح لعلّها تعيد العافية إلى ساقيه، وتحلّ العقدة في لسانه، وتُدخل شيئًا من البهجة إلى نفسه. فوجدته في العجلة التي صنعناها له خصّيصًا، والتي تجري على دولابين كبيرين من المطّاط، ويستطيع تحريكها ذهابًا وإيابًا بيديه في ممرّات الحديقة. ووجدت العجلة قد توقّفت أمام نسرينة قديمة تمدّدت أغصانها الطويلة، المثقلة بالشوك والزهر، على كومة من الحجارة رتّبها البستانيّ هناك في شكل هندسيّ جميل.

كان هشام يتأمّل النسرينة وكأنّه يتأمّل أعظم سرّ في الكون. وقد بدا لي في حالة انخطاف. حتّى إنّه لم يشعر بوجودي من بعد أن أصبحت على قيد باع منه. لقد كان رأسه الكبير مغمورًا بنور الشمس. وعلى وجهه المستطيل، الأمرد، شبه قناع من ذريرات لطيفة لا هي في الظلّ ولا هي في النور، ولا أنت تعرف من الذي حاكها في شكل ذلك القناع المدهش. أمّا عينا الولد العسليّتان، الواسعتان، الذابلتان، فكانتا مسمّرتين بالنسرينة لا يرفّ لهما جفن ولا يستهويهما أيّ مشهد آخر. وما كنت أدري السرّ في انخطافه، أهُوَ في غصون النسرينة، أم في وريقاتها، أم في أشواكها، أم في زهراتها، أم في أريجها، أم في الفراشات اللطيفة الحائمة عليها، أم في تلك الأشياء جميعها. وقد لا يكون في أيّ منها، بل في أشياء لا تبصرها العين، ولا تسمعها الأذن، ولا تلمسها اليد، ولا يشمّها الأنف. مَن يدري؟..

وقفت هنيهة أنظر إلى ذلك المخلوق الحبيب وقلبي يكاد يقفز من صدري إليه. فأنا منذ ولادته لم أشعر بمحبّتي له تتدفّق من كلّ خليّة وكلّ شعرة في بدني كما شعرت في تلك الدقيقة. كنت أودّ لو أعطيه لساني، ورجليّ، والنفسَ الذي في صدري، وكلّ قطرة من دمي. أودّ لو أستطيع أن أخلق من محبّتي أجمل الصور لعينيه، وأعذب الألحان لأذنيه، وأروع الأحلام لفكره وقلبه. بل لو أستطيع أن أجعل من جسدي وروحي درعًا تقيه أنياب المحن ومخالب الشرور. وعندما مرّ في خاطري أنّه بعد سويعات سيفقد أباه، من بعد أن فقد أمّه، كدت أفقد صوابي.

ما ذنبه – لهف قلبي عليه – يولد كسيحًا، معقود اللسان؟ إنّما الأجساد جميعها سجون – حتّى الصحيح منها والجميل. فكيف بالمشوّه؟ إنّه سجن ضمن سجن. وإنّما الناس جميعهم أيتام – حتّى الذين لهم آباء وأمّهات. فكيف بالذين فقدوا آباءهم وأمّهاتهم؟ إنّهم أيتام الأيتام. أصحيح أنّ الله «يفتقد

الآباء في الأبناء»؟ وأيّ العدل هو أن يأكل الآباء الحصرم فلا يضرسوا ويضرس الأبناء؟ أم هي الطبيعة تعبث في بعض الأحيان كما يعبث الأطفال والجهّال والسكارى، فيكون من عبثها مخلوق كهشام، ثمّ يكون منه أن لا يهتدي أحد من مخلوقاتها إلى النظام الذي هو نظامها؟ هذا إذا كانت تسير على نظام.

تتشعّب أفكاري وتتشتّت. ولكنّها لا تلبث أن تعود فتنصبّ على هشام. إنّه الحقيقة التي تملأ كياني الآن – الحقيقة التي بها ولها أحيا. إنّها في دمي. في عظمي. في لحمي. في تلافيف دماغي، وأنباض قلبي. وأنسى أنّ هذا اليوم هو يومي الأخير؛ وأنّني مرتبط بصِلات كثيرة غير صلتي بهشام؛ وأنّني، منذ لحظات، كنت أفكّر في الطبيعة وعبثها أو نظامها، وظلمها أو عدلها.

ويتملّكني شعور عجيب ما عرفته من قبل في حياتي. إنّه الشعور بأنّني بحر يفيض ويفيض بغير نهاية. يفيض ولا ينقص قطرة واحدة. بل يبدو وكأنّه في ازدياد مستمرّ، وكأنّه بغير شطوط. وتمتدّ أمواج هذا البحر، أوّل ما تمتدّ، إلى هشام. ثمّ إلى النسرينة التي أمامه، والفراشات المتنقّلة على زهراتها. ثمّ إلى الحديقة كلّها، ومنها إلى القرية، فإلى الجبال من خلفها، فإلى السماء الزرقاء من فوق الجبال، فإلى الشمس في السماء. إنّها تمتدّ بغير نهاية، وتمتدّ رفيقة، لطيفة، صافية. وهي تغسل كلّ ما تمتدّ إليه دون أن تؤذيه. فكأنّها الأمّ تغسل أطفالها. والذي تغسله يبدو وكأنّه آية الآيات في الطهر والجمال. لا فرق بين بومة وورقاء، وغزالة وخنفساء. أو بين عوسجة وسروة، وملك وصعلوك، وعبقريّ وهمجيّ، ومؤمن وكافر، وفرقد وذرّة غبار.

لقد أصبح الكلّ مزيجًا عجيبًا لا شكل له، ولا لون، ولا مذاق. وأصبحت أنا ذلك الكلّ. لا يعاديني عدوّ، ولا ينافسني منافس، ولا تقرضني الدقائق والساعات، ولا يدفعني أيّ دافع إلى الأمام أو إلى الوراء، أو إلى تحت أو فوق، ولا يساورني أيّ خوف من أيّ شيء في الكون.

وكان آخر ما خطر في بالي أن أسأل نفسي عن ذلك الشعور ما هو؟ فلم أجد كلمة أصفه بها إلّا «المحبّة». ولأوّل مرّة في حياتي فهمت معنى الحياة.

أجل. لقد فاض قلبي بالمحبّة وأنا أتأمّل ولدي وأحاول أن أنفذ إلى ما يدور في قلبه الطاهر ورأسه العجيب إذ هو ينظر إلى النسرينة أمامه فلا يرفّ له جفن. أهي النسرينة؟ أهي الفراشات؟ أهي الشمس والسماء والهواء شغلته عن نفسه إلى حدّ الذهول والانخطاف؟ أم هي الحسرة في نفسه على نفسه وقد قضي عليه أن يعيش في سجن، ضمن سجن، ضمن سجن؟

لست أدري. ولا أنا أذكر كم طال وقوفي على قيد باع منه وتأمّلي له دون أن يشعر بوجودي. وأذكر أنّني لم أتمالك نفسي في النهاية. فقفزت إليه، وطوّقته من خلف بذراعيّ، وانكببت على رأسه أقبّله بلهفة ونهم. وإذا به يجفل كالملسوع، أو كَمَن يوقظ بغتة من نوم عميق. وإذا بالعجلة تنقلب، فيهوي هو منها على الياسمينة ووجهه إلى أسفل. وإذا بي أسمعه يصيح، وهو يهوي:

«بابا! ماذا فعلت بي؟»

جمدت مكاني وأنا لا أصدّق ما أبصرته عيناي وما سمعته أذناي. ورحت أرتجف كمن ثارت في أحشائه ثورة البرداء. وانعقد لساني فما أستطيع النطق بكلمة.

لقد نطق هشام. أصحيح أنّه نطق؟ ولكنّه ينتفض على النسرينة والحجارة التي من تحتها انتفاضة المذبوح. ينتفض بذراعيه القويّتين وساقيه الذاويتين. أصحيح أنّ ساقيه تتحرّكان؟ وهذا الدم القاني الذي اصطبغت به النسرينة والحجارة من أين هو؟ إنّه يتفجّر من جبهة هشام ويسيل من وجهه. لقد ارتطم رأسه بحجر، وخدّشت أشواك النسرينة وجهه. ما في ذلك شكّ. وهو يئن أنينًا يقطع نياط قلبي.

وأنبطح على الصبيّ غير شاعر بوخز أشواك النسرينة في جلدي، أو بوجود أيّ شيء آخر في الكون إلّا الصبيّ. وتنطفئ جميع رغباتي ما خلا رغبة واحدة تنهش ضلوعي نهشًا. وهي أن ألتصق بهشام التصاق اللحم بالعظم. وأن أُفرغ من دمي في عروقه لأعوّض عن الدم الهارب من عروقه، لعلّني أسمعه يناديني ولو مرّة واحدة بعد: «بابا!»

حاولت أن أرفعه بيديّ لأحمله إلى داخل البيت فلم أجد القدرة على حمله. وهالني أن أحسّه كالشلو بين يديّ. لقد ارتخت ساقاه وذراعاه. وارتخى عنقه. وغابت عيناه خلف أجفانهما. وتباعدت أنّاته، فلا تلحق الأنّة الأنّة. وخفتت أنفاسه وأنباضه حتّى أكاد لا أتميّزها بالسمع أو باللمس. أهي إغماءة؟ أم هو...

ويفعل بي شبح الموت فعل السحر. لا. لا. كل شيء إلّا الموت!.. لأمُتْ أنا. لِتَمت أمّه. لِيَمت كلّ حيّ في الأرض. أمّا هشام فيجب أن يبقى. يجب أن يعيش حتّى برجلين كسيحتين، ولسان أخرس. كلّ شيء إلّا أن يموت هشام.

وأنحني على الصبيّ فأرفعه إلى صدري، وأحمله كما كنت أحمله طفلًا، وأدخل به البيت فأضعه في سريره، وأمضي لتوّي إلى التلفون أطلب المستشفى وطبيبًا وسيارة إسعاف بأقصى السرعة. وأفطن إلى أنّ في استطاعتي أن أقوم ببعض الإسعافات الأوليّة. فأغسل الجروح وأضمّدها بالضمادات المطهّرة. ثمّ أفطن إلى أنّني لن أستغني في كلّ ذلك عن بعض المعونة من أمّ زيدان. وأمّ زيدان لم تكن حتّى تلك الدقيقة تعرف شيئًا عمّا جرى. لقد كانت منهمكة في بعض الأشغال المطبخيّة.

من الأفضل أن لا أحاول وصف ما حلّ بأمّ زيدان عندما وقع بصرها عليّ، فرأت شعري المشعّث، ووجهي المجنون، ويديّ وثيابي الملطّخة بالدم. ثمّ عندما أبصرت الولد مسجّى على سريره وقد أغمض عينيه وتضرّج بدمه. لقد أغمي على المسكينة في الحال. وهكذا كنت في مصيبة فأصبحت في مصيبتين.

أخيرًا استفاقت أمّ زيدان. وجاء الطبيب الذي لم يكن يعرف شيئًا عن هشام وعمّا فيه من عاهات. ومن بعد أن أجرى له الإسعافات الضرورية طلب فنجان قهوة وسيكارة وجلس يستريح. ثمّ التفت إليّ وقال:

– كم عمر هذا الولد؟ فأجبته:

– ثماني عشرة سنة. قال:

– صحيح؟ هذا غير معقول. فرأسه وبنيته ينمّان عن عمر أكبر بكثير. لم أرَ في حياتي رأسًا في مثل حجم هذا الرأس، وبنية في متانة هذه البنية. قد يكون الرأس رأس عبقريّ أو رأس أبله. أمّا البنية فبنية جبّار. وأرجو أن يكون الرأس رأس عبقريّ.

وعندما أخبرته بأمر هشام وكيف أنّه نطق وحرّك ساقيه بعد أن وقع له ما وقع استغرب الخبر كثيرًا. ولكنّه لم يعلّق عليه إلا بهزّة من رأسه ثمّ بقوله:

– الدنيا مليئة بالمفاجآت برغم الطبّ والأطبّاء، والعلم والعلماء، والمنجّمين والأنبياء.

قلت: والولد، هل من خطر على حياته؟

قال: أبدًا. أبدًا. إنّه أصحّ منّي ومنك. الجرح الذي في جبهته طفيف. والخدوش التي في وجهه هي من شوك النسرين، ولا يؤبه لها. نبضه عادي. وحرارته طبيعية. ولن يلبث أن يستفيق من هول الصدمة. لقد كانت صدمة لنفسه وأعصابه أكثر منها صدمة لصحّته. ولا حاجة إلى المستشفى.

فكّرت طويلًا من بعد انصراف الطبيب في ما قاله عن أنّ «الدنيا مليئة بالمفاجآت». فها أنا منذ منتصف الليل الفائت أعيش في دوّامة من المفاجآت. والمفاجأة هي أن يحدث لك ما لم يكن له في ضميرك أو ذهنك أقلّ حساب. وأيّ حساب كان في استطاعتي أن أحسب للصوت الذي هتف بي قبل ساعات معدودات: «قم ودّع اليوم الأخير!»؟ ذلك الصوت قد غيّر جميع مجاري حياتي وأثار في داخلي دنيا من الأحاسيس والهواجس والأفكار التي لم تكن تخطر لي في بال. إنّها لسلسلة غريبة موصولة الحلقات، وآخر حلقة فيها ما حدث لي مع هشام.

لو كنت أعلم أنّني عندما غمرت الولد سأسبّب له من الجروح والآلام ما سبّبت، لَلَعنت نفسي ألف لعنة لأنّني فعلت ما فعلت.

لقد كانت نتيجة عملي عكس ما كنت أتوقّع، فجاءت مفاجأة أليمة لي. ولكنّ هذه المفاجأة الأليمة لم تلبث أن حملت إليّ مفاجأة مشحونة بالسرور والغبطة عندما سمعت الولد ينطق فيقول: «بابا! ماذا فعلت بي؟» وما كنت في المفاجأتين غير آلة تديرها يد غير يدي، وتدفعها إرادة غير إرادتي. فيَد مَن هي تلك اليد؟ وإرادة من هي تلك الإرادة؟ ألعلّهما غريبتان عنّي؟ أم لعلّهما يدي وإرادتي العاملتان عن غير وعي منّي؟

«بابا! ماذا فعلت بي؟»

بروحي ذلك الصوت، وتلك الـ«بابا!». لكَم تمنّيت أن أسمعها في خلال ثماني عشرة سنة. ولقد سمعتها في صباح هذا اليوم الذي هو اليوم الأخير من حياتي. فما أقسى القدر!

أقول «سمعتها» ثمّ أعود فأسأل نفسي: أصحيح أنّي سمعتها؟ أليس من الممكن أن تكون أذني قد التقطت صوت الأمنية العظمى الهاجعة في أعمق أعماق كياني منذ ثماني عشرة سنة؟ بلى. بلى. قد لا يكون ما سمعته غير خدعة.

«با - با!»

ويأتيني الصوت في هذه المرّة جليًّا، صافيًا، قويًّا. إنّه هشام يدعوني وقد فتح عينيه الجميلتين واستوى جالسًا في سريره. وتسمع الصوت أمّ زيدان في مطبخها فتهرول إلى حيث الصبيّ وتضمّه بلهفة إلى صدرها غير عابئة بالضمادات على رأسه ووجهه، وهي تشهق وتردّد: «روحي. روحي. يا روح أمّ زيدان!» ثمّ تهبط إلى الأرض، وترفع يديها إلى فوق، وتمضي تتمتم: «نشكرك يا ربّي ونحمدك. نشكرك يا ربّي ونحمدك!» ثمّ تأخذ تقرع الأرض بجبهتها قرعًا موصولًا حتّى ليسمع له صوت كأنّه صوت المطرقة.

وأقترب من السرير فآخذ بيدَيْ هشام، وأغرز في عينيه عينيّ وقد طفر الدمع منهما مدرارًا فما أستطيع وقفه. وأسمعه يخاطبني للمرّة الثالثة:

«با - با! أين الماما؟ لم أرها من زمان».

في تلك اللحظة قُرع جرس الباب. فمضت أمّ زيدان لتعود بعد دقيقة وتقول إنّ جارنا «بولْسانَيْن» ينتظرني في ردهة الاستقبال. فتعوّذت وحوقلت، ومضيت لاستقبال الزائر الثقيل. و«بولسانين» هي الكنية التي أطلقها أحد ظرفاء القرية على الرجل فلبسته لبسًا. ذلك لأنّه لا يستلذّ شيئًا مثلما يستلذّ تسقّط أخبار الضيعة، وزرع الفتنة بين المتآلفين من أبنائها، وتعكير حياة الذين في حياتهم شيء من الصفاء. ويضنيه أن يرى بيوتًا لم تتصدّع أركانها بالخصام والتباغض والنميمة، أو بالكوارث تنقضّ عليها من الغيب.

حيّيت الرجل فحيّاني بمنتهى الحرارة والاحتشام، وقد لبس وجهًا تبدو عليه أمارات القلق والاضطراب. ومن بعد أن فرك يديه فركًا طويلًا وتنهّد تنهّدًا عميقًا قال من غير أن يرفع إليّ بصره:

– شغلتم بالنا يا جار. شغلتم بالنا جدًّا جدًّا.

– لا شغل الله لكم بالًا. بماذا؟

– إحّمّ... سيارة الإسعاف... والطبيب، أمر بسيط إن شاء الله؟

– بسيط جدًّا.

– يعني؟

– وقع هشام فشجّ رأسه قليلًا.

– هشام وقع؟! وشجّ رأسه؟! يِهْ. يِهْ! سلامة قلبه. وكيف وقع وهو، وا ولداه، لا يستطيع المشي؟

وأخبرته كيف وقع هشام وماذا قال الطبيب عنه. فحاول أن يبدو متجهّم الوجه، متلعثم اللسان من شدّة التأثّر، وأن يجهد نفسه في متابعة الحديث فيقول:

– الحمد لله، ثمّ الحمد لله على سلامته. أنت لا تستأهل إلّا كلّ خير يا دكتور. ولكنّ الله، سبحانه، يجرّب خائفيه.

وبعد سكوت:

– تقول إنّ الجرح طفيف؟

– نعم. طفيف جدًّا.

– ولا خطر من التسمّم لا سمح الله؟

– ولا خطر من التسمّم. والصبيّ قد استردّ الآن وعيه وسأل عن والدته.

– سأل عن والدته؟! طبعًا بالإشارة.

– بل بلسانه.

– بلسانه؟!، قالها وكأنّ عقربًا قد لدغته.

– أجل بلسانه.

– عجيب. عجيب. كلّ شيء ممكن عند الله... تقول إنّه سأل عن أمّه؟

– إي... أمّ هشام... سامحها الله.

– وماذا تعني؟

– أعني... طالت غربتها ...

وعندما لم يأنس أيّ رغبة من جانبي في متابعة الحديث شدّ طربوشه على رأسه وأخذ عصاه بيد واستأذن بالانصراف وهو يتصنّع السرور بأنّ ما حدث لهشام لم يكن ذا بال، وبأنّ الولد انحلّت عقدة لسانه:

– السلامة غنيمة. والحمد لله.

انصرف جاري من عندي وتركني مرضّض الفكر. فكأنّه شدّ بي من حالق وقذفني في هوّة سحيقة القعر. فما أبعد العالم الذي كنت فيه عن العالم الذي جرّني إليه! إنّ غبطتي بهشام يناديني «بابا» لا تدانيها غبطة. وانّ المحبّة التي تفور في قلبي من جرّاء ذلك لا تفوقها محبّة. فعلامَ يأتيني هذا الرجل ليفسد عليّ غبطتي ويلوّث محبّتي؟ وعلامَ تؤذيه غبطتي ومحبتي، ويسعده شقائي

واضطرابي وأنا لم أؤذه في حياتي بكلمة أو بإشارة، ولا بفكر أو بنيّة؟ بل إنّني ما تمنّيت يومًا له أو لغيره إلّا الخير.

كان الطبيب صادقًا عندما قال إنّ الدنيا مليئة بالمفاجآت. وكان أكثر صدقًا لو أضاف – وبالمتناقضات. ولذلك يصعب فهمها على الناس. إلّا إذا هم اهتدوا إلى السرّ من وراء تلك المفاجآت والمتناقضات التي تبدو وكأنّها لا تخضع لأيّ نظام ولكنّها، في الواقع، لا يمكن أن تكون إلّا بعضًا من ذلك النظام. وكيف لعالم منظّم أبدع التنظيم أن يكون فيه ما هو خارج عن النظام؟ لئن صحّ ذلك لما كان لهذا العالم أن يستمرّ ملايين الملايين من السنين من غير أن يتفكّك ويتبعثر ويتلف بعضه بعضًا. إلّا أنّه استمرّ وسيستمرّ برغم ما يبدو لنا فيه أنّ ما نحسبه مفاجآت ومتناقضات هو بعض من نظامه؟

تزوّجت رؤيا الكوكبيّة فكان زواجنا مفاجأة لي ولها. ولكنّه كان بعضًا من نظام الكون. وحبلت رؤيا ولكنّها ما درت، ولا أنا دريت، في أيّ ساعة حبلت وبماذا حبلت – بذكر أم بأنثى؟ وبمسخ أم بأبولون أو فينوس؟ فكان حبلها، وكان هشام مفاجأة لنا. ولكنّهما لم يكونا كذلك للنظام الذي يسيّر الكون ويسيّرنا.

وها أنا أسأل عن ذلك النظام أين هو؟ فلا أجد مناصًا من القول إنّه فيّ مثلما هو في كلّ ذرّة من الذرّات التي يتألّف الكون منها. فهو لو لم يكن في كلّ شيء لما كان أيّ شيء. ولكن الأشياء لا تسأل ما هو، وأين هو. وأسأل أنا. ولماذا أسأل؟ لأنّني أودّ أن أعرف. ولماذا أودّ أن أعرف؟ لأنّ حياتي لا تكتمل إلّا بتلك المعرفة. فالنظام هو الذي يدفعني على التفتيش عن النظام. ولولا أنّه أعطاني اليقين بوجوده، ثمّ المقدرة على بلوغه، لما دفعني على التفتيش عنه.

وإذ ذاك فالذي يبدو لنا مفاجآت ومتناقضات ليس سوى المرشد إلى النظام. فأنا ما تزوّجت رؤيا من بين كلّ النساء إلّا لحاجة في نفسي إلى الخبرة التي لن توفّرها لي أيّ امرأة غير رؤيا. وهي لم تتزوّجني إلّا لحاجة في نفسها إلى الخبرة التي لن يحملها إليها غيري. وكلانا كان في حاجة إلى الخبرة الغنيّة التي لن يأتينا بها إلّا هشام. وهشام، بدوره، لم يكن ابنًا لي ولرؤيا إلّا لحاجة في نفسه لن يقضيها له غيري وغير رؤيا.

إنّها لسلسلة عجيبة موصولة الحلقات ومحكمتها منتهى الإحكام. وحلقاتها لا تنتهي عند الناس والأشياء الذين تربطنا بهم صلات مباشرة. بل هي تمتدّ إلى كلّ منظور وغير منظور في الكون. فكلّ ما في الأرض والسماء موصول بكلّ ما في الأرض والسماء. وههنا المعجزة!

مرّت هذه الأفكار في رأسي مرور الأشباح في الحلم. وآنسني مرورها فأحسستني كمن كان ضمن جدران أربعة وبغتة تقلّصت من حوله الجدران وتلاشت فوجد نفسه في عالم آفاقه أبعد بكثير

من مرمى بصره. وفي الحال عادت صورة هشام إلى ذهني فأسرعت إلى حيث كان وإذا بي أفاجَأ مفاجأة لم تصدّقها عيني وتركتني مسمّرًا مكاني من شدّة دهشتي وانفعالي.

لقد كان هشام وأمّ زيدان يمشيان الهوينا في أرض الغرفة، وظهراهما إلى الباب حيث أنا، ويد هشام اليسرى على كتف أمّ زيدان اليمنى، وأمّ زيدان تردّد وكأنّها تصلّي:

«على مهلك يا روح روحي أنت».

فلم أتمالك من أن أخرّ على ركبتيّ، ومن أن أتمتم في قلبي: «ربّي، لقد طفحت نفسي بغبطة الوجود. لقد بدأت أفهمك. ربّي، لا تجعل هذا اليوم يومي الأخير، وليَطُل ما طال الزمان وطالت محبّتك!»

وتدحرجت من عينيّ دمعتان.

الساعة الثامنة

«في كلّ عام يغوص العِلم أعمق فأعمق في طلب ما هو متناه في الصغَر. مثلما يرتفع أعلى فأعلى نحو ما هو متناه في الكِبَر. بإمكاننا أن نقرأ حتّى في الكتب القديمة أنّ أصغر جُزَيء من أجزاء المادّة هو الذرّة – atom – والكلمة تعني ما ليس قابلًا للتجزئة. والذرّات التي اهتدى إليها العلم حتّى اليوم يبلغ عددها 103 ذرّات. وقد يهتدي إلى أكثر في المستقبل. وهكذا باتت المادّة في تركيبها صورة معقّدة جدًّا.

«وعندما تمّ لنا أن نشطر الذرّة بدت صورة المادّة وكأنّ عقدتها أخذت تتبسّط وتنحلّ. فقد وجدنا في الذرّة ذُرَيرتَين هما الإلكترون والبروتون. وخُيّل إلينا أنّ منهما يمكن بناء عالمنا كلّه. ولكن سرعان ما بدّد العلم هذا الخيال، إذ راحت تنكشف لنا ذُرَيرات أخرى أساسيّة في تركيب المادّة. وهذه الذُّرَيرات يبلغ عددها اليوم نحو الثلاثين. والمدهش أنّ أكثريّة هذه الذرَيرات لا تثبت على حال. إنّها تعيش بعضًا من الثانية ثمّ يتداخل بعضها في بعض، ويتحوّل بعضها إلى بعض. ويغلب أن تكون لكلّ من هذه الذريرات ذريرة مقابلة أو مضادّة لها. وهي تشبهها كلّ الشبه حتّى لتبدو وكأنّها انعكاس صورتها في المرآة. وهناك ظروف كثيرة تتولّد فيها الذريرة ونقيضتها في آن واحد. وعندما تلتقي الذريرة بنقيضتها يحدث «انفجار». فتتطاير في جميع الجهات الذرَيراتُ الأخفّ حاملة معها طاقة هائلة. ولبعض الذرَيرات خصائص غريبة تبدو وكأنّها لا تخضع لأيّ نظام.

«وهكذا عادت صورة العالم المتناهي في الصِّغر تزداد تعقّدًا من بعد أن حسبناها تتبسّط.

«لقد تعوّدنا أن ندعو صغير الحجم «بسيطًا». وكبيره «مركّبًا». ولكنّ الدرس أظهر لنا أنّ الصغير ليس أقلّ تعقيدًا من الكبير. وأبسط ما يبدو لنا في الوقت الحاضر هو الفضاء أو «الحقل» الحاوي كلّ شيء، والذي لا ينطبق عليه قولنا «صغير» أو «كبير».

«من الذرَيرات المتناهية في الصغر يقودنا العلم إلى أكبر المجموعات من الكواكب أو العوالم الشمسيّة. فشمسنا التي ليست في تلك العوالم الهائلة سوى نجمة متواضعة هي أثقل وزنًا من الأرض بثلاثمائة ألف مرّة. وفي عالمنا الشمسيّ مائة ألف مليون من أمثال تلك النجمة. وهذه العوالم الشمسيّة لا يزال الكثير منها في طور التكوين. وذلك يزيد الشكّ في ما يعتقده بعضهم بوجود مسكونة ذات حدود في المكان والزمان.

«لقد مضى العلم بعيدًا في درس ما هو متناه في الصغر، وما هو في ضخامة الحجم أبعد من متناول الخيال. والعالم، مع ذلك، لا يزال مليئًا بالأسرار التي استعصت على فهمنا حتّى الآن. ولكنّ عطش الإنسان إلى المعرفة لا ينتهي إلى حدّ. ولا الأسرار في المسكونة تنتهي إلى حدّ...»

هذا الكلام ليس كلامي. إنّه كلام عالم من أشهر العلماء المعاصرين. وقد قرأته أمس في إحدى المجلّات قبل أن أستسلم للنوم، وقبل أن يهتف بي ذلك الهاتف عند نصف الليل. ولا أدري لماذا عاد إلى ذهني وأنا أمشي مع هشام في الحديقة وقد توقّفنا هنيهة أمام النسرينة التي شهدت المعجزة فباتت أعزّ نبتة عندي من جميع نبات الأرض. إذ لولاها لَما نطق هشام ولا مشى.

كنت أفكّر في السرّ العظيم الذي تمّ قبل ساعة، أو بعض الساعة، على مرأى ومسمع منّي. وكنت أحاول أن أجمع في ذهني جميع العناصر التي منها تركّب، وجميع الأسباب التي قادت إليه. فأنتهي أبدًا حيث ابتدأت ولا أبلغ نتيجة. وكيف أبلغ نتيجةً أسبابها تتشعّب وتتعقّد وتمتدّ في الزمان إلى حيث لا يمكن أن ينفذ فكري أو خيالي؟ فلِكَي يولد هشام عندما وُلد وحيث وُلد ومثلما ولد كان لا بدّ لي ولأمّه أن نولد عندما ولدنا وحيث ولدنا ومثلما ولدنا. ولكَي نولد أنا وأمّه عندما ولدنا وحيث ولدنا ومثلما ولدنا كان لوالدينا أن يولدوا عندما ولدوا وحيث ولدوا ومثلما ولدوا. ولكَي يحدث لهشام ما حدث في هذا الصباح كان عليه أن يقف في عجلته امام النسرينة وعليّ أن أباغته فأسبّب له ما سبّبت. وهكذا تعود بنا الأسباب إلى متاهات في الزمان والمكان لا يستطيع اقتحامها أيّ فكر أو أيّ خيال. فكيف إذا عدنا إلى الأسباب التي تجعل من الأجيال البشريّة المتعاقبة مجموعات عجيبة يتشابه أفرادها في أشياء كثيرة من غير أن يتشابه اثنان منهم في كلّ شيء؟

لا شكّ أنّ تفكيري في هذه الأمور كلّها هو الذي أعاد إلى ذهني المقال الذي قرأته أمس. فبدا لي أنّ الإنسان كذلك عالم معقّد ومليء بالأسرار كالعالم اللامتناهي الذي يعيش فيه. فالعالمان، في الواقع، عالم واحد. وليس يمكن فهم الواحد دون فهم الآخر.

إلّا أنّني، وإن استعصى عليّ في الوقت الحاضر فَهم ذينك العالمين – أو ذلك العالم – فليس يستعصي عليّ الشعور بأنّ النظام الذي يسيّر الإنسان والكون هو نظام واحد، وبأنّ في مستطاعي إدراكه يومًا من الأيّام ما دام هو ذاته يلهبني شوقًا إلى فهمه، ويدفعني بغير انقطاع على التفتيش

عنه. وإذ ذاك فلا بدّ لي من القول بأنّ النظام هو أبدًا في داخلي، وبأنّ له غاية من وجودي، مثلما لي غاية من وجوده. والغاية هي أن يتمّ بي وأتمّ به، فأحيا به وأحبّه ويحيا بي ويحبّني.

أمّا أن يكون ذلك النظام عاقلًا أو غير عاقل، وأن يكون مادّة أو روحًا، فجدل لا طائل تحته. إذ أنّنا، حتّى اليوم، لا نستطيع التفريق بين المادّة والروح. فها هو العالِم الذي ذكرت – وهو من أقحاح العلماء الماديّين – يعترف بأنّ المتناهي في الصغر والمتناهي في الكبر لا يقف أيّ منهما عند حدّ. فما من صغير إلّا وهناك ما هو أصغر منه، وما من كبير إلّا وهناك ما هو أكبر منه. وعندئذ فالشيء الوحيد الثابت هو ذلك المجهول الذي في استطاعته أن يصغر إلى ما لا نهاية، وأن يكبر إلى ما لا نهاية. وليس يغيّر في طبيعته شيئًا أن ندعوه مادّة أو أن ندعوه روحًا.

لعلّ لنا في الأرقام أروع مثال على ذلك «المجهول». فالواحد الذي منه تتركّب جميع الأرقام يتجزّأ إلى ما لا نهاية، ويتضاعف إلى ما لا نهاية. ويبقى، مع ذلك، واحدًا. وهو إذا أردته جبلًا كان جبلًا، أو برغشة كان برغشة، أو ملاكًا كان ملاكًا، أو شيطانًا كان شيطانًا. إلّا أنّه ليس، في الواقع، شيئًا من ذلك، بل هو خيال مطلق يتلبّس شتّى الصور المحسوسة كيما يغدو محسوسًا للذين لم يبلغوا بعد الوعي على مستوى المطلق. وأنا واحد منهم. إنّني أحسّه ولا أعيه.

ذلك «المجهول» هو الواحد الأحد الذي دعاه الأقدمون «الله». والإنسان هو أتمّ صورة له على الأرض. ولكنّها صورة ما تزال في طور «التطهير». وتطهيرها لا يجري اعتباطًا، أو كيفما اتّفق. بل هو يتبع نظامًا دقيقًا ومحكمًا وصارمًا إلى أقصى الحدود. وهذا النظام يكافئ الذين يسايرونه ويعاقب الذين يعاندونه. ولأنّ الناس في أغلبيّتهم الساحقة لا يزالون يجهلونه فهم يسايرونه حينًا وحينًا يعاندونه، إمّا عن وعي منهم أو عن غير وعي. لذلك كانت حياتهم مدًّا وجزرًا من الفرح والترح، والطمأنينة والقلق، والنموّ والانحلال، وجميع أصناف المتناقضات ما بين خير وشرّ.

أمّا الذين أدركوا النظام فسايروه عن فهم وعن رضًى فهم القلّة المغبوطة. أولئك هم الذين انكشفت في نفوسهم صورة الواحد الأحد جليّة، صافية، باهرة. فباتوا لا يتقاذفهم مدّ وجزر، ولا يتصارع فيهم خير وشرّ. إنّهم يحيون في المطلق وبالمطلق الذي هو أبدًا هو.

– بابا!

أجفلت عندما سمعت ذلك الصوت الحبيب. ودهشت لنفسي كيف أنّني ابتعدت عن هشام بفكري إلى ذلك الحدّ وأنا ما خرجت معه إلى الحديقة إلّا لأمشي وإيّاه يدًا بيد وجنبًا إلى جنب، وإلّا ليكون بيننا تعارف جديد من بعد ما كان بيننا من تباعد سبّبه الشلل في ساقيه والعقدة في لسانه. وجاء نداؤه تأنيبًا عنيفًا، ووخزة مؤلمة في ضميري. فقلت وفي صوتي شيء من الاعتذار:

– يا روح روح البابا. ماذا تريد؟

– أين أنت؟

– هنا، بجانبك.

– كنتَ بعيدًا جدًّا.

– كنتُ... كنتُ أفتّش عن هشام الذي كان – أين مضى؟ وهشام الذي هو الآن – مِن أين جاء؟ كنت أفكّر كيف عشتَ معنا وعشنا معك طوال ثماني عشرة سنة فلم تعرفنا ولم نعرفك.

– أمّا أنا فقد عرفتكم – عرفتك، وعرفت الماما، وعرفت أمّ زيدان. وقد أحببتكم جميعًا، وبخاصّة أمّ زيدان.

– وكيف عرفتنا وكنت لا تفهم ما نقول، وكنّا لا نفهم ما تقول؟

– بل كنت أفهم كلّ ما تقولون. ولكنّني كنت أشعر كما لو أنّ ضفدعًا كانت تربض أبدًا تحت لساني.

– والآن؟

– لقد ذهبت الضفدع.

– ورجلاك؟

– كنت أحسّ خدرًا دائمًا فيهما.

– والآن؟

– لقد ذهب الخدر. وبوسعي، لو شئت، أن أركض.

– لا، لا. دعنا من الركض وقل لي يا ابني، هل صحيح أنّك كنت تفهم جميع ما تسمع؟

– صحيح. صحيح. وإلّا فكيف حفظت ما حفظت من الكلام؟

– إذن فهمت ما دار بيني وبين أمّك من جدل في أكثر من مناسبة.

– فهمت كلّ شيء.

– وأنت تعرف أين أمّك الآن؟

– أعرف.

– وتعرف لماذا هي حيث هي؟

– أعرف.

– وأنت تحبّها؟

– أحبّها.

– وتحبّ أن تعود إليك؟

– أحبّ.

– وتؤمن بأنّها ستعود؟

– أؤمن.

– وأنا – هل تحبّني كثيرًا يا هشام؟
– كثيرًا، كثيرًا.
– وإذا أنا هجرتك كما هجرتك الماما – هل يشقّ ذلك عليك؟
– بابا! لا تنغّص عليّ هذه الدقائق الحلوة.

وبكى الصبيّ، فكانت كلّ دمعة من دموعه كلّابة تشدّ على حلقومي فأكاد أختنق. وأنا ما طرحت عليه سؤالي الأخير إلّا لأنّ الصوت الذي سمعته عند نصف الليل عاد في تلك الدقيقة فدوّى في أذني جافًّا، صارمًا، ورهيبًا: «قم ودّع اليوم الأخير!» وعزّ عليّ جدًّا أن يكون اليوم الذي وجدت فيه نفسي، ووجدت ولدي الوحيد، الحبيب، هو اليوم الأخير في حياتي.

كنت، قبل اليوم، أعيش كما تعيش النبتة والحشرة، وكما يعيش الحيوان والسواد الأعظم من بني الإنسان. ولكنّني، من بعد أن حصل لهشام ما حصل، بدأت أحيا. اليوم شعرت بأنّ نافذة جديدة على الحياة قد انفتحت في داخلي. وأنّ الحياة التي أطلّ عليها من تلك النافذة حياة لا نهاية لِما فيها من دهشة، ونظام، وجمال، وكمال. أيَكون انفتاح النافذة إيذانًا بانغلاقها؟ أتكون الفاتحة في حياتي هي الخاتمة؟

على أنّني توجّعت للصبيّ ينقله سؤالي من جوّ طافح بالبهجة إلى جوّ متجهّم، مربدّ، مكهرب. فحاولت جهدي أن أعود بهشام إلى الجوّ اللطيف الذي كان فيه. وكادت جميع محاولاتي تبوء بالفشل لو لم تسعفني أمّ زيدان – بارك الله في قلبها الطاهر، المحبّ. فقد خرجت بغتة من البيت واندفعت نحو هشام، فطوّقته بذراعيها، وطفقت تقبّله حينًا، وحينًا تقبّل الأرض أمام قدميه، وهي لا تنفكّ تردّد:

– يقبرني! يقبرني!! كفاه مشيًا. لقد تعبت رجلاه. تقبرني رجلاه. كفى. كفى. ادخل به البيت يا دكتور. دعه يستريح. ادخل، ادخل يا دكتور. ولي عندك سؤال.

لا أدري لماذا آلمتني كلمة «دكتور» تخرج من فم أمّ زيدان في تلك الدقيقة. لقد أحسستها نبلة في قلبي وفي دماغي. دكتور؟! وأيّ دكتور؟ دكتور في الفلسفة... وكيف لأمّ زيدان والذين هم فوق أمّ زيدان علمًا بما لا يُقاس أن يفهموا ماذا فعلته بي الساعات الثماني منذ نصف الليل؟

تلك الساعات الثماني التي تبدو لي الآن وكأنّها ثمانية دهور جعلتني أسخر بكلّ فلسفة تلقّنتها في الكتب ولَقّنتها من الكتب. فهذه جميعها لم تكن عندي غير نظريّات يتوجّب عليّ حفظها ثمّ عرضها بدقّة وأمانة وبراعة. ولأنّني حفظتها كوفئت بلقب «دكتور». ولأنّني أحسنت عرضها أصبحت أستاذ الفلسفة في جامعة محترمة، وأصبحت أتقاضى مرتّبًا محترمًا. وذلك يعني أنّني اتّخذت من الفلسفة بضاعة أكسب منها رزقي، كما يتخذ أيّ تاجر من بضاعته وسيلة لكسب رزقه. وقطّ لم

أتخذ من أيّ فلسفة سراجًا ينير طريقي في دياجير الأيّام والليالي؛ أو درعًا تقيني صدمات أحداثها ومفاجآتها؛ او زورقًا يمخر بي عباب الوجود ويبعث في نفسي الثقة بأنّه لن يتحطّم بي ويحطّمني.

وها هي الفلسفات التي درستها ودرّستها حتّى اليوم تنهار جميعها أمام صوت يهتف بي في المنام: «قم ودّع اليوم الأخير»؛ وأمام شبح الموت الذي يبعثه ذلك الصوت في نفسي المذعورة؛ وأمام زوجتي تهجرني لتلتحق برجل غيري؛ وأمام العوسجة التي ردّت النطق إلى لسان ولدي، والحركة إلى ساقيه؛ وأمام «بولسانين» وحقده على كلّ إنسان يتمتّع بشيء من النعمة والراحة؛ وحتّى أمام أمّ زيدان التي ما برحت تردّد: «هشام سينطق. هشام سيمشي».

أجل. لقد انهارت جميع تلك الفلسفات أمام ما مرّ بي في الساعات الثماني الأخيرة من حياتي. فأيّ قيمة بعد للقب «دكتور في الفلسفة»؟ إنّه ليسخر بي أفظع السخرية من بعد أن كنت أعتزّ به أعظم الاعتزاز.

بل أيّ قيمة بعد هذا لأيّ جهد يبذله الإنسان ولا يكون له عونًا في مجابهة ما يطرأ عليه من أحداث نافعة أو ضارّة، ومفاجآت مؤلمة أو سارة؟

أيّ قيمة للفنون الجميلة لا تتجمّل بها حياة الذين يبدعونها، فتغدو طاهرة من الرياء والتدجيل، والمكر والنفاق، والحقد والغضب، والفحش والتهتّك، والظلم والغطرسة، والكره والجشع، وحبّ الظهور والمجد الباطل؟

وأيّ قيمة للأدب لا يتأدّب به الذين يخلقونه أوّلًا، كيما يتأدّب به الذين يقرأونه؟

ما نفع الشاعر أن يقال في قصيدة نظمها إنّها قصيدة «عصماء»، وهو عندما يخلو بروحه يجدها عمياء، خرساء، شوهاء؟ أو يجدها أضعف من أن تصمد لنسمة هواء، فكيف بعاصفة هوجاء؟

ما نفع كاتب الرواية أو القصّة أن يسوق إليك صورًا صادقة من الحياة التي يحياها الناس في كلّ يوم ما دام هو نفسه لا يستخلص من تلك الصور عِبَرًا تمكّنه من أن يجعل من حياته قدوة يقتدي بها الناس؟

لا. لا قيمة لأيّ فلسفة، أو فنّ، أو أدب، أو دين إلّا على قدر ما يترجمها الفيلسوف، والفنّان، والأديب، والمتديّن إلى قوّة تخلق فيه المناعة ضدّ جميع الأضاليل، والأوهام، والترّهات، والمخاوف، والبشاعات التي ما تزال تشوّه حياة الإنسان على الارض.

— نعم. نعم يا أمّ زيدان.

— نسيتَ ما قلته لك عندما تركنا الحديقة.

— وماذا قلتِ لي؟

— قلت: لي عندك سؤال.

– بلى. بلى يا أمّ زيدان. تذكّرت. وما هو سؤالك؟

– أريد أن تقيس لي طول حبيب قلبي هشام. أن تقيسه بالمتر. طوله مع طول ذراعه مرفوعة فوق رأسه.

– ولماذا يا أمّ زيدان؟

اضطربت أمّ زيدان قليلًا، وابتسمت عن النابين الأصفرين الباقيين في فكّها الأسفل، ومن بعد أن فركت يديها بطرف مريولها قالت بشيء من الخجل والتردّد:

– إهْ - هِهْ... لا تؤاخذني يا ابني. لا تضحك منّي. أنتم الفلاسفة لا تؤمنون. أمّا نحن العجائز فنؤمن.

– بماذا يا أمّ زيدان؟

– من زمان... من زمان... نذرت نذرًا. وقد استحقّ.

– ولمن النذر؟

– للسيّدة عليها السلام.

– وما هو النذر؟

– شمعتان بطول هشام و«شَيْلِة إيْدو» إذا استجابت العذراء لطلبي وشَفَتْه. وقد استجابت – عليها السلام – وبقي أن أفي بما نذرت.

– من كلّ بدّ. وماذا تريدين منّي يا أمّ زيدان؟

– أريد ثمن الشمعتين.

– خذي ثمن أربع شمعات – عشرين – مائة شمعة. مالي وكلّ ما أملك رهن أمرك يا أمّ زيدان.

– لا. لا. أريد أن أدفع الثمن من مالي الخاصّ – من المال الذي توفّر لي عندك في مدّة وجودي معكم. ثمّ أريد أن يضيء هشام الشمعتين بيده. هكذا نذرت.

– وإذا لم تجدي شمعتين بالطول الذي ترغبين؟

– أوصي صانع الشمع فيسكب لي شمعتين بالطول الذي أريد.

– ليكن لك ما تريدين يا أمّ زيدان.

لقد كان بإمكاني أن أسخر بأمّ زيدان، فأسألها من أين لها الثقة بأن السيّدة – عليها السلام – هي التي حلّت العقدة في لسان هشام وردّت القوّة إلى ساقيه؟ ولماذا لم تفعل ذلك من تلقائها، ومن زمان، ومن غير أن تستدرّ أمّ زيدان عطفها بشمعتين كبيرتين؟ وإذا كانت لها القدرة على شفاء المرضى فلماذا لا تشفي كلّ مريض في الأرض، وهكذا تُغني الناس عن الطبّ والأطّباء،

والممرّضات والمستشفيات؟ أم إنّها لا تساعد إلّا الذين يسترضونها بشيء من الأشياء، ويستعطفونها بمذلّة تبلغ حدّ الانسحاق؟

كان بإمكاني أن أقول ذلك، وأكثر من ذلك، لأمّ زيدان. ولكنّني، من بعد أن سمعت منها ما سمعت، ولمست من حرارة إيمانها ما لمست، وجدتني بين يديها كالطفل بين يدي عملاق. ووجدت جميع ما حشوت به رأسي من فلسفات يتناثر هباء في وجه نسمة من تقواها الساذجة، أو سذاجتها التقيّة. لقد كانت هي الدكتور في الفلسفة، لا أنا. وكانت شمعتاها أقوى من أيّ صاروخين يطلقهما العلماء إلى الفضاء الخارجيّ.

وشعرت أنّني كنت أولى بسخريتها منها بسخريتي.

الساعة التاسعة

سرعان ما انتشر الخبر في القرية أنّ عجيبة قد تمّت في بيت الدكتور موسى العسكري. وأنّ السيدة – عليها السلام – هي التي اجترحت العجيبة استجابةً لنذر أمّ زيدان. وإذا برجال القرية ونسائها – كبارهم وصغارهم، مثقّفيهم وبسطائهم – يزحفون على بيتي فرادى وجماعات. فيغدو بيتي وكأنّه مقهى أو مزار. ويتعب لساني من الردّ على أسئلة الناس. فكلّهم يريد أن يعرف كيف حصل ما حصل، وفي أيّ ساعة ودقيقة، وفي أيّ مكان، وماذا كان شعوري عندما تراءى لي أنّ الصبيّ قد مات، ثمّ عندما فتح عينيه وناداني: «بابا!» ثمّ عندما وقف على رجليه ومشى. وكلّهم يريد أن يرى الصبيّ بعينه، ويلمسه بيده، ليتأكّد من صدق روايتي. وبعضهم كان يريد أن يتبرّك ولو بشعرة من شعر هشام، أو بخيط من الثياب التي على بدنه.

إلّا أنّني حلت دونهم ودون الصبيّ خشية أن يرهقوه. فادّعيت أنّه نائم، وأنّ الطبيب أمر بأن لا يزعجه أحد في خلال أسبوع كامل. ولولا ذلك لنتفوا الشعر الذي على رأسه والثياب التي على بدنه.

لم تدهشني دهشة جيراني القرويّين لما تمّ منذ ساعة لهشام بين أغصان النسرينة وأشواكها وأزهارها والحجارة التي من تحتها. فدهشتي لا تقلّ عن دهشتهم في شيء، بل هي تفوقها بكثير. إلّا أنّ دهشتي غير دهشتهم.

هؤلاء القرويّون – وغير المثقّفين منهم بالأخصّ – يؤمنون أعمق الإيمان بأنّ الذي حدث لهشام كان «عجيبة»، أي أنّه كان تجاوزًا على النظام السرمديّ الذي به يسير الكون. وهذا التجاوز لا يستطيعه إلّا خالق الكون والنظام، وإلّا في حالات استثنائيّة. كأن ترتفع إليه ضراعة حارّة من أحد مخلوقاته، إمّا مباشرةً أو بوساطة صفيّ من أصفيائه، أو وليّ من اوليائه. فكأنّه لا ينتبه إلى أيّ حاجة من حاجات مخلوقاته إلّا إذا هم نبّهوه إليها. ولا يسمعهم إلّا إذا هم نادوه. وكأنّ قلبه لا يلين

إلّا إذا توسّطتَ لديه قدّيسًا من القدّيسين، وإلّا إذا أضأت له الشموع، أو سكبت الدموع، أو قدّمت القرابين.

والغريب في أمرهم أنّهم لا يخاطبون ربّهم إلّا بصيغة الأمر والنهي. فكأنّهم الأسياد المطلقون، وكأنّه الخادم المطيع، الأمين:

«ربّنا، هبنا العافية والقوّة والثروة والجاه والبنين الصالحين. ربّنا، أغدق علينا الطيّبات من خيراتك. ربّنا، احفظ الأحياء من أحبّائنا، وارحم الذين ماتوا، واسكنهم فسيح جنانك. ربّنا، انصرنا وارفعنا واخذل أعداءنا وأذِلّهم. ربّنا، اغفر لنا ذنوبنا، وردّ عنّا الكارثات، وأنزل علينا البركات.

«ربّنا، لا تحاسبنا على أخطائنا، ولا تستمع لصلوات أعدائنا، ولا تسلّط علينا الظالمين والمبغضين والكافرين، ولا تمكّن منّا للناقمين والحاسدين والمنافقين. ربّنا، لا تهملنا، ولا تُشح بوجهك عنّا، ولا تحرمنا من رحمتك يا أرحم الراحمين!»

هكذا يأمرون ربّهم وينهون إذ هم إليه يضرعون. وينسون أنّ ربّهم الذي إليه يضرعون هو أبدًا فيهم، وأنّه أدرى بحاجاتهم منهم. وأنّهم، مهما أفاضوا في الضراعة، لن يبدّلوا حرفًا في نظامه، ولن يزيدوا قطرة في محيط محبّته لمخلوقاته، ولن ينبّهوه إلى ما هو غافل عنه. فهو ما غفل لمحة واحدة عن دودة في صخرة، أو حصاة على جبل، أو شوكة في واد، أو سمكة في بحر، أو مذنّب في الفضاء. إنّه النظام الذي يشمل الكون وكلّ ما فيه.

وينسون كذلك، عندما يرفعون ضراعاتهم، أن يحاسبوا أنفسهم عمّا إذا كانوا حقيقين بالذي من أجله يضرعون. فما أكثر السارقين الذين يضرعون إلى الله كي لا يهدي إليهم المسروقين؛ والقاتلين الذين يريدون من الله أن يعمي عنهم عيون القضاء وأهل المقتولين؛ والظالمين الذين يتمنّون على الله أن يمكّن لهم من المظلومين؛ والفاسقين الذين يرجون من ربّهم أن يثمر لهم فسقهم اللذة دون الألم، والعافية دون المرض، والطمأنينة دون الخوف، والحياة دون الموت.

والله في عرف الصالحين من الناس والطالحين هو أعدل العادلين وأرحم الراحمين. فكيف يمسك حقًّا عن صاحبه، أو يعطيه لغير صاحبه؟ إنّما ينال كلّ مخلوق ما يستحقّه من خير ومن شرّ – لا أكثر ولا أقلّ. وينال من غير أن يطلبه، ومن غير أن يتوسّط له أحد في ما ينال وما لا ينال. وأيّ مجال للوساطة بين الله وبين مخلوقاته التي هي منه وفيه؟

هذه الأفكار ما كانت تخطر لي في بال قبل اليوم. أمّا اليوم ففكري يكاد يكون موصدًا دون أيّ شيء سواها. لكأنّني كنت في غيبوبة فاستفقت منها على دنيا غير التي غبت عنها. فلا أنا أذكر ما كان منّي في غيبوبتي. ولا أنا أفهم الدنيا التي استفقت عليها. إلّا أنّني أريد أن أذكر، وأريد أن أفهم. ولماذا؟ لأنّ شعورًا عنيدًا جدًّا، وهو الشعور بأنّ الدنيا التي استفقت عليها ليست سوى امتداد للتي غبت عنها. وأن لا سبيل لي إلى فهم الواحدة بمنأى عن الأخرى.

لقد عشت حتّى اليوم كما يعيش وَتَدٌ في حائط. فالغاية من الوتد في الحائط هي أن يحمل كلّ ما يحمِّله الناس، لا فرق بين لوحة فنيّة أو عباءة متهرّئة، ولا بين سيف مصقول ومسمار صدئ. وأنا حملت اليتم والفاقة والذلّ في مطلع حياتي. ثمّ حملت صنوفًا من الكتب والدفاتر. ثمّ وظيفة أستاذ الفلسفة. ثمّ لقب دكتور في الفلسفة. ثمّ زوجة لم تلبث أن هجرتني. ثمّ ابنًا كسيحًا أخرس. وها هو الحائط ينهار فيطمر الوتد بأنقاضه. وها هو الوتد يتململ تحت الأنقاض، ويودّ لو يأتيه مَن يرفعها عنه، ومَن يفسّر له الأسباب التي أدّت إلى انهيار الحائط، مثلما يودّ أن يعرف العلاقة التي بينه وبين الحائط، وبين ما تعلّق عليه من أحداث وأشياء وأشخاص على مدى سبع وخمسين من السنين.

إنّي أريد اليوم ما لم أكن أريده قبل اليوم. أريد أن أعرف السرّ في الصلة التي بيني وبين هشام وأمّ هشام، بل بيني وبين كلّ ما له علاقة بحياتي من أشخاص وأحداث. هل هي علاقة طارئة؟ هل هي بنت ساعتها؟ أم أنّها تتواقت في أدقّ تفاصيلها مع العلاقات التي تربط الكون في جزئيّاته وكلّيّاته كما تتواقت حركات النجوم في أفلاكها، وحركات الأعضاء الحيّة في الأجسام الحيّة؟

وكيف لأيّ علاقة أن تكون بنت ساعتها في كون ارتبط بعضه ببعض أوثق الارتباط منذ فجر الزمان؟ والذي يبدو لي الآن هو أنّ كلّ علاقة في الكون هي علاقة قديمة قِدَم الكون والزمان. وإذا هي لم تظهر للعيان إلّا في لمحة معلومة من الزمان فذلك لا يعني أنّها لم تكن موجودة قبل تلك اللمحة. ويعني أنّها كانت نطفة ثمّ جنينًا في رحم الزمان، وعندما اكتمل وقتها قذفتها الرحم فظهرت للعيان. أمّا متى يكتمل وقت هذه العلاقة، أو ذلك الحَدَث، وإلى أيّ حدّ يسهم كلّ مخلوق في ما يجلب إليه، أو يدفع عنه من علاقات وأحداث فأمر يغريني أن أعرفه، ويرهقني أن أفكّر فيه.

أجل. إنّي أريد أن أعرف. وهذه الإرادة لم تكن لي قبل أن سمعت الهاتف في نصف الليل، وقبل أن يحدث ما حدث لهشام. فمن أين جاءتني إن لم تكن بذورها هاجعة في كياني من زمان، ثمّ تكاملت لها ظروف الانتقال من البذرة إلى النبتة؟

تلك هي دهشتي. فما أبعدها عن دهشة جيراني القرويين الذين جاؤوني يستفسرون عن كلّ شيء إلّا عنها. يتحدّثون عن الطقس، والمواسم، والأسعار؛ عن فساد الحكم والحكّام؛ عن الكونغو، والجزائر، ولاوس؛ عن الشيوعيّة والرأسماليّة، والأسلحة النوويّة، والأقمار الصناعيّة، والسفن الفضائيّة. يتحدّثون ولا يملّون، وإلى العجيبة لا يعودون. فكأنّها لم تكن أكثر من حصاة وقعت في بِركة حياتهم فأحدثت بعض التغاضين على وجهها ثمّ اختفت.

كنت في حلقة من الجيران، وكان أحدهم يجادلني في ثورة فيدل كاسترو، عندما رنّ جرس التلفون. إنّه رئيس دائرة الفلسفة يستفسر عن سبب تأخّري في الذهاب إلى الجامعة. وكنت قد نسيت الجامعة تمامًا، ونسيت مواعيدي فيها. فتلعثمت ولم أجد ما أجيبه به. لقد كان عليّ أن أخلق له عذرًا معقولًا ومقبولًا. فلم أهتدِ إلى عذر. أأخبره بالهاتف الذي جاءني في نصف الليل؟ أم أخبره بما

حدث لهشام منذ ساعة؟ أم أكشف له ما في نفسي من حيرة وثورة، وزهد في الجامعات والمحاضرات والفلسفات؟ إلّا أنّه أسعفني بقوله:

– أرجو يا دكتور أن لا يكون السبب انحرافًا في صحّتك.

قلت وكأنّ كلّ كلمة قلتها كانت شفرة حادّة تمزّق لساني:

– نعم. نعم. إنّه صداع أليم لم أعرف مثله في حياتي. ولعلّه لن يطول.

– سلامتك يا دكتور. سلامتك. إلزَم بيتك. دارِ صحّتك. سأطلب إلى الدكتور مرجان أن ينوب عنك.

– لا بأس. لا بأس.

– أتريدني أن أرسل إليك طبيبًا؟

– لا. لا حاجة إلى طبيب. شكرًا.

– سلامتك. دارِ صحتك.

علّقت سمّاعة التلفون وبودّي لو أضرب بها رأسي. لقد شقّ عليّ جدًّا أن ألجأ إلى الكذب. إنّه سلاح الضعفاء والجبناء والخادعين والماكرين والمرائين والمراوغين. والذين سلاحهم الكذب كيف تأمن جانبهم ما دمت لا تدري متى يصدقون ومتى يكذبون؟ إلّا أنّني أعود فأعزّي نفسي بأنّ ما قلته للرئيس لم يكن كذبًا صرفًا إذا هو حُمِلَ على محمل المجاز. أوَلَست، في الواقع، أشكو صداعًا أليمًا؟ ألا يكون الصداع صداعًا إلّا في الرأس؟ إنّ صداعي هو صداع في القلب، في الفكر، في النفس، في الروح. وهو أشدّ هولًا من الصداع في الرأس. أقول ذلك لعلّني أجد فيه بعض العزاء لنفسي عن كذبي. ثمّ أعود فأقول: بئس العزاء!

وزاد في طيني بلّة الحديث الذي دار على الأثر بيني وبين جيراني القرويّين عندما عدت لآخذ مكاني بينهم. فقد سألني أحدهم:

– هل قرأت جرائد الصباح يا دكتور؟

ولمّا جاءه جوابي بالنفي راح يكيل الشتائم للصحافة والصحافيّين، وللسياسة والسياسيّين، ويفرغ كلّ ما في جعبته من آراء وتوجيهات لو عمل الناس بها لباتوا من دنياهم في مثل جنّة النعيم:

– حسنًا فعلت يا دكتور. البعد عن الجرائد راحة. وماذا في الجرائد؟ – أكاذيب. أكاذيب. أكاذيب. وماذا في السياسة؟ – أكاذييب. أكاذيب. أكاذيب. والكذب يمقته الله، ويمقته الأناس الصادقون. إنّه أخسّ ما في الناس من خسائس.

فأجابه أحدهم:

– والصادقون أين تجدهم؟

– أين تجدهم؟!

– نعم، أين تجدهم؟ وهل في الناس من ليس يكذب ولو كذبة «بيضاء»؟
– هاك الدكتور موسى. إنّي لأقسم بأنّه لا يكذب كذبة سوداء أو بيضاء.
والتفت إليّ هذا الناقم على الكذب والكاذبين وكأنّه يقول: «أرأيت إلى هذه الشهادة أؤدّيها فيك؟» وما كان يدري أنّ شهادته جاءت تنكأ الجرح الذي تركته كذبتي في نفسي، ثمّ تذرّ عليه ملحًا. ولا أنّ الحاضرين كانوا يتغامزون عليه. إذ أنّه مشهور في القرية بأكاذيبه واختلاقاته ومبالغاته.
وتشعّب الحديث، وكثر الأخذ والردّ، ولم يبقَ أيّ أثر في أذهان القوم للعجيبة التي حملتهم إلى بيتي. وأخيرًا نهضوا مودّعين. فتنفّست الصعداء، ومشيت معهم إلى الباب وأنا أفكّر في الهوّة السحيقة التي باتت تفصلني اليوم عنهم وعن باقي الناس ولا تبصرها عين غير عيني.
يعيش الناس وكأنّ كلّ واحد منهم على موعد قريب أو بعيد مع أعزّ أمنية من أمانيه: الجائع مع الرغيف؛ والمريض مع العافية؛ والعبد مع الحرّية؛ والفقير مع الثروة؛ والعاطل عن العمل مع العمل؛ والمغمور مع الشهرة؛ والحبيب مع من يحبّ؛ والزارع مع الخصب؛ والمحارب مع النصر. وهلمّجرًّا. إنّهم يعيشون وكأنّهم على موعد مع السعادة في هذه الدنيا وفي الآخرة. وأعيش ولا موعد لي إلّا مع القبر. فأنا رجل يودّع يومه الأخير الذي لم يبقَ له منه غير سويعات قليلات.
إلّا أنّني لا أعرف، في الواقع، ماذا أودّع عندما أودّع يومي الأخير. ولا أنا أعرف ماذا أستقبل عندما يستقبلني القبر. فقبل اليوم الأخير كانت لي أيّام وأيّام. وهذه الأيّام لم تكن لي وحدي. بل كان فيها نصيب لربوات الربوات من الكائنات. فكيف أقطع رباطاتي بها ما لم تنقطع الرباطات التي بينها وبين الكائنات؟ وهذه الأيّام لم تبتدئ ساعة خرجتُ من بطن أمّي. بل هي تتّصل بأيّام وأيّام سبقتها منذ فجر الزمان. فكيف أبتر الصلة بينها وبين الأيّام التي ستليها حتّى آخر الزمان؟
هكذا تصطرع الأفكار في رأسي فما أدري أيّها الفاسد وأيّها الصحيح. ولا أدري أأنا لا شيء أم أنا كلّ شيء. وهكذا يتفاقم شعوري بالغربة عن الناس وأنا بينهم.
وأنا كذلك، وقد هممت بغلق الباب من بعد أن انصرف الجيران من عندي، إذا بسيّارة ضخمة، فخمة، تتوقّف عند مدخل الحديقة فيترجّل منها شيخ طويل القامة، نحيلها، حاسر الرأس، كثيف الشعر، أشيَبه، أنيق الهندام، وهو يحمل في يده عصا جوزيّة اللون، معقوفة الرأس، ويحمل على أنفه نظّارتين.
توقّل الرجل السلالم الحجريّة على مهل، وكنت لا أزال واقفًا في الباب. وعندما أصبح على بعد خطوتين منّي توقّف قليلًا وقال وهو يلهث من التعب:
– درَجك طويل يا دكتور. أما فكّرت عندما بنيته أنّك ستمسي يومًا ما مثلي؟ هذا درَج للشباب لا للشيوخ. ولا للّذين يعانون ارتفاعًا في ضغط الدم.

ثمّ اقترب مني ومدّ يده مصافحًا. فصافحني بحرارة وصافحته بحرارة. ولا أذكر أنّي رأيته في حياتي من قبل. ولأنّني آنست في صوته وفي وجهه شيئًا من خفّة الروح، وطيبة القلب، والانفتاح المستحبّ قلت مداعبًا:

– حياتنا كلّها أدراج يا سيّدي، ولعلّ درجي أقصرها. وكلّها ضغط، ولعلّ ضغط الدم أيسرها.

ويبدو أنّ مداعبتي لاقت استحسانه فكهكه، ونقل عصاه من يده اليمنى إلى اليسرى، ثمّ وضع يمناه على كتفي دونما تكلّف وقال على مهل:

– هذا كلام لا يفوه به إلّا فيلسوف. ولا عجب. فأنت فيلسوف ودكتور في الفلسفة. السيّدة رؤيا لم تبالغ في شيء عندما أخبرتني عنك. أتسمح أن ندخل؟ تعبت من الوقوف.

– تفضّل. تفضّل. البيت بيتك.

خشيت أن يشعر الرجل بالتغيّر الفجائي في صوتي وفي ملامحي. فقد أجفلت عندما سمعته يذكر رؤيا. وأحببت أن أعرف كيف اتّصل بها، وأين، ومتى، وهل باحت له بما بيني وبينها وغير ذلك من ظروفنا البيتيّة. لذلك آثرت أن أستقبله في مكتبتي حيث لا يزعجنا زائر ولا يسمعنا أحد. فما ان استقرّ بنا المقام حتّى بادرني بقوله:

– ما أظنّك تعرفني.

– لا. لم يحصل لي الشرف قبل الآن.

– اسمي كريم نمرود... فقاطعته:

– تاجر الساعات الشهير؟

– هِه. هِه. شهير. نعم شهير. ولو تدري بماذا أنا شهير.

– بساعاتك السويسرية الممتازة.

– هذا في عرف الناس. أمّا في الواقع فشهرتي من نوع آخر. ولعلّه نوع فريد.

– شهرتان خير من شهرة واحدة.

– شهرتي الحقيقيّة يا دكتور هي في مقدرتي على النسيان.

– حقًّا إنّها لشهرة من نوع جديد. تاجر ساعات وينسى؟

– لا فضّ فوك. تاجر ساعات وينسى. وههنا النكتة. فالساعة ما وُجدت إلّا للتذكير. التذكير بالدقائق والأيّام والأعوام التي تمر. والتذكير بالأعمال والواجبات التي يترتّب علينا القيام بها. والتذكير بالمواعيد مع الناس والأحداث والأقدار. وها أنا، وأصناف الساعات تتحوّطني طوال النهار والليل، أنسى مواعيدي. وأكاد في بعض الظروف أنسى اسمي واسم الشارع الذي فيه أسكن. ومن الخير أن أخبرك الآن لماذا جئتك في هذا الصباح قبل أن أنسى الأمر الذي من أجله جئت.

– تفضّل. تفضّل.

– كنت في سويسرا منذ شهر تقريبًا. أتعرف سويسرا يا دكتور؟

– لا. ويا للأسف.

– يجب أن تزورها. بلاد ممتازة بكلّ شيء. كنت في زوريخ. وفي الفندق الذي نزلته حصل لي شرف التعرّف إلى زوجتك السيّدة رؤيا وشقيقها السيّد عصام. إنّها سيّدة رقيقة ولطيفة ومهذّبة – وجميلة جدًّا. ولو كان لي أن أعود إلى شبابي لكنت من أخطر المزاحمين لك عليها. إنّي أحسدك يا دكتور.

– هذا لطف منك يا سيّدي.

– وشقيقها شابّ من أطيب الشبّان وأظرفهم.

– وهذا من لطفك...

– سويسرا فريدة بين بلدان العالم. فيها الجبال، والأودية، والأنهار، والبحيرات. وفيها كلّ أجناس البشر، وكلّ أصناف الطقس. في سويسرا تتنفّس بملء رئتيك، وتنسى همومك. اللهمّ أن يكون جيبك عامرًا بالمال.

وتمادى زائري في الحديث عن سويسرا، ثمّ انتقل إلى الحديث عن الساعات، ثمّ إلى السياسة الدوليّة. حتّى خشيت أن ينسى الأمر الذي من أجله قدم إليّ. فما عرفت كيف أذكّره به من غير أن أقطع عليه حديثه بطريقة قد يبدو فيها شيء من الخشونة. أخيرًا تجاسرت فقلت:

– وزوجتي. هل هي في صحّة حسنة؟

– أرأيت يا دكتور، أرأيت كيف نسيت ما جئت من أجله؟ ألا توافقني على أنّني سيّد النسّائين؟

– سيّد النسّائين. إنّه للَقب غريب – وكبير.

– ولكنّه ليس باللّقب المشرّف.

– لنعد إلى أمّ هشام.

– أجل. أجل. لنعد إلى أمّ هشام قبل أن أنسى الوصيّة التي حمّلتني إيّاها.

– أيّ وصيّة؟

– أوصتني أوّلًا أن أنقل قبلة منها لهشام.

– وثانيًا؟

– وكلّفتني ثانيًا نقل هذه الرسالة إليك.

ومدّ يده إلى جيبه فأخرج منه مظروفًا سمينًا مختومًا ومعنونًا باسمي بخطّ رؤيا. فأخذته بيد ترتجف وقلب ينبض بسرعة لا عهد له بها من قبل. وسمعت زائري يقول وكأنّه يخاطبني من خلف سجف كثيفة:

– اعذرني يا دكتور. اعذر نسياني. لقد كان عليّ أن أحمل هذه الرسالة إليك حال عودتي من سويسرا – أي منذ شهر. هكذا أوصتني السيّدة رؤيا وكرّرت وصيّتها مرّات. إلّا أنّني نسيتها في جيب هذه البذلة التي كنت أرتديها عندما غادرت سويسرا، والتي خلعتها حال وصولي إلى البيت واتّفق أن ارتديتها في هذا الصباح. ثمّ اتّفق، من بعد أن بلغت محلّي، أن مددتُ يدي إلى الجيب الذي فيه الرسالة. فضربت جبهتي بكفّي حتّى كاد يطير صوابي. وخوفًا من أن أعود فأنساها أمرت السائق في الحال أن يحملني إلى هذه القرية، وإلى بيتك فيها. اعذرني يا دكتور. ولا تنسَ أنّني سيّد النسّائين. أرجو أن لا يكون في الرسالة مواعيد أو شؤون أخرى فات وقتها. اعذرني.

الساعة العاشرة

ماذا دهاك يا دكتور؟

ما هذه الرجفة في يدك – في قلبك – حتّى في أمعائك؟ وما لأفكارك تتشتّت في كلّ ناحية فكأنّها القطيع من الغنم وقد باغته الذئب، أو كأنّها حفنة من التبن يذروها ولد في الريح؟

ليس الذي في يدك غير رسالة. فلماذا اضطرابك منها وخوفك من فضّها؟ إنّها ورقة ارتسمت عليها كلمات. ومتى كنت من الذين ترتعد فرائصهم لدى النظر إلى الكلمات؟ وماذا يمكن أن تحمل إليك تلك الكلمات فوق ما حملته الكلمات التي سمعتَها عند منتصف الليل؟ ومَن كان هذا اليوم يومه الأخير فما همّه من رسالة تأتيه من أيّ الناس مهما يكن موضوعها؟ إنّه لمنتهى الجبن أن ترى مركبك يغرق وتراك تغرق معه، ثمّ أن تخشى على حذائك من البلل.

وماذا يمكن أن يكون في هذه الرسالة ممّا يبعث الرجفة في يدك وقلبك وأمعائك؟ هَبها تحمل إليك حكمًا مبرمًا بإعدامك، فلن يكون غير تصديق للحكم الذي صدر عليك عند نصف الليل.

أليس أنَّك مدعوّ لقطع روابطك بجميع الناس والأشياء؟ فاقطعها غير خائف وغير متردّد. إنّها قيود طالما نهشت لحمك وعظمك، وامتصّت دمك. وها هي زوجك قد قطعت ما بينك وبينها من روابط زوجيّة. فأراحتك من قطعها. إنّها بشكرك لأحرى بها من لومك. وها هي رسالة منها في يدك، ففضّها واقرأها وكأنّك تقرأ خبرًا عن الطقس، أو تقرأ أبجد هوّز حطي كلمن. ولا يهمّنّك على الإطلاق كيف تبتدئ وكيف تنتهي، وماذا تقول بين البداية والنهاية.

هكذا كنت أخاطب نفسي وأنا أهمّ بفضّ الرسالة من رؤيا. ولكنّ يدي ما انفكّت ترتجف وهي تمزّق المظروف وتستخرج منه الرسالة. وقلبي ما انفكّ ينبض بسرعة عندما راحت يداي تفتحان الورقة:

«موسى!..»

إنّها لكلمة لا أكثر. والكلمة هي اسمي. وهذا الاسم قد سمعته آلاف المرّات في حياتي. وأبصرته على الورق آلاف المرّات. ولكَم وقّعته بيدي، وفي مناسبات لا حصر لها ولا عدّ. فما أثار مرّة في نفسي ما يثيره الآن من عنيف الانفعالات. لكأنّ أذني تسابق عيني إليه. فتسمعه لا من فم أمّ، أو أب، أو صديق، أو رفيق، أو معلّم، أو تلميذ، أو أيّ إنسان آخر. بل من فم رؤيا. وتسمعه أين؟ ومتى؟

تسمعه على شاطئ البحر، وفي ضوء القمر، ليلة رضيت رؤيا لأوّل مرّة أن ترافقني في نزهة ليليّة وأصرّت على أن لا يشاركنا فيها غير البحر والقمر.

بروحي تلك الصخرة التي جلسنا عليها ما كان أبدع تكوينها. لقد كانت تشبه عرشًا ملكيًّا أدار ظهره إلى اليابسة ووجهه إلى البحر. وكانت، وهي الصخرة الصلدة، تبدو لنا أنعم ملمسًا من الخزّ والديباج، وتعلو عن الموج المتفقّئ عند أسفلها قرابة قامتين.

ولله تلك الليلة ما كان أصفى سماءها، وأرقّ هواءها، وأسطع نجمها، وأحنّ قمرها، وأعذب وشوشات الموج في أذنيها. حتّى تلك الليلة كانت رؤيا لا تخاطبني إلّا بلقب «دكتور». وكنت لا أخاطبها إلّا بلقب «آنسة». فلا هي تستطيع أن تنسى أنّي أستاذها في الجامعة. ولا أنا أستطيع أن أنسى أنّها طالبة من الطالبات عندي. أمّا في تلك الليلة فما امتدّ بنا الحديث نحو الساعة حتّى أخذنا نشعر أنّه حديث متعثّر وغير طبيعيّ. فسكتنا. وطال سكوتنا.

ولكنّ البحر لم يسكت. ولا سكت النسيم والقمر ولا أيّ نجم من النجوم المعلّقة فوق رأسَينا. فهذه جميعها كانت تعرف ما بنا، وتعرف أنّ حديثنا المتقطّع عن الدروس والامتحانات والطقس وبعض الطلّاب والأساتذة لم يكن غير تغطية وتمويه لأشياء أخرى كنّا نودّ أن نتكلّم عنها فلا نجد الجرأة على الكلام. فما لبثت أن أمدّتنا بعون من عندها. وإذا بي أستدير بغتة نحو جليستي وآخذها بيديها، ثمّ أخاطب البحر، ولا أخاطبها، فأقول:

– اسكت يا بحر!

وإذا بها تضغط على يديّ بكلتا يديها، وبكلّ قدرتها، ثمّ تخاطب القمر ولا تخاطبني، فتقول:

– اسكت يا قمر!

وعندها أجد في نفسي الجرأة لأسألها:

– ولماذا تريدين من القمر أن يسكت؟

فتجيبني بسؤال:

– بل لماذا تريد من البحر أن يسكت؟ فأجيبها:

– لأنّ عندي ما أقوله. وهو غير الذي يقول، وأهمّ ممّا يقول. أمّا أنت فلماذا تريدين من القمر أن يسكت؟

– لأنّ عندي ما أقوله. وهو غير الذي يقول، وخير ممّا يقول.
– قولي ما عندك.
– بل قل أنت ما عندك.

وظننت أنّ عندي من الكلام على قدر ما في البحر من موج. إلّا أنّني عندما فتحت فمي لأتكلّم لم أجد ما أفوه به غير اسمها. فهتفت بصوت متهدّج:

– رؤيا!..

وكانت حالها كحالي. فردّت عليّ بصوت متهدّج:

– موسى!..

وخرس البحر. وخرس القمر. واختنق الهواء. وجمدت النجوم في أبراجها. لقد سكِر الكون بسكرتنا، وراح قلبه ينبض في قلبَينا. ولأوّل مرّة في حياتي عرفت غبطة الذهول عن نفسي ونشوة الذوبان في نفس أخرى، وقد باتت تلك النفس تمثّل في نظري البحر وما فيه، والسماء وما فيها، والأرض وما فيها، وما فوقها وتحتها وحواليها. لقد كنّا اثنين في واحد. وكان ذلك الواحد كلّ شيء وفي كلّ شيء. وكان بغير بداية أو نهاية.

تلك هي النشوة التي تذوّقتها مرّة واحدة في حياتي – نشوة باتت دقائقها أبديّات، فغرق فيها الزمان والمكان، وتعطّل الشعور بكلّ شيء إلّا بها. فلا همّ، ولا غمّ، ولا خوف من فاقة أو من مرض أو من موت. لقد أمست المسكونة بأسرها حليفة وفيّة لي ولرؤيا، وشاهدةً على غبطتي وغبطتها. ولم يخامرني أو يخامرها أقلّ شكّ في أنّ نشوتنا ستدوم ما دام الزمان.

ولكَم أدهشني من تلك النشوة أنّها استطاعت أن تستبدّ ذلك الاستبداد برجل مثلي وهب قلبه وفكره ووقته ولحمه ودمه لعمله – لتدريس الفلسفة في جامعة. حتّى بات يحسب نفسه في مأمن من كلّ غواية، وكلّ ثورة قد تبعثها في لحمه ودمه نظرة من عين أنثى، ونبرة من صوتها، ولمسة من يدها، ونفَس من أنفاسها. فما كان أغباني ساعة لم أحسب للحبّ حسابًا، وساعة حسبت أنّ نشوة الحبّ ستدوم ما دام الزمان. فها هي لم يبقَ منها اليوم غير الذكرى. وإنّها لذكرى أليمة، إنّها كالقفص يذكّرك بالكنار الغرّيد الذي كان فيه ثمّ طار منه.

لذلك عندما فضضت الرسالة ووقعت عيني على اسمي بخطّ رؤيا سمعت في الحال صوتها يخاطبني على تلك الصخرة التي تشبه العرش. فاشتعل دمي، وارتقص قلبي، وحاولت أن أستعيد طعم النشوة التي تذوّقتها في تلك الليلة فما استطعت. إلّا أنّني شعرت بأن أبوابًا مغلقة في داخلي أخذت تنفتح. هي الأبواب التي أغلقتها رؤيا عندما هجرتني لتسعد بحبّ إنسان غيري. ويبدو أن السعادة التي كانت ترجوها في حبّها الجديد قد هربت منها. وإلّا فما معنى رسالتها؟ إنّها تريد أن تفتح الأبواب التي أغلقتها بيدها. وقد عرفت كيف تفتحها.

وكيف لي أن أفسّر رسالتها الغريبة غير ذلك التفسير؟ لقد ظننت، عندما فضضتها، أنّني سأجد فيها ضروبًا من التحليل والتعليل وتبرئة النفس، حتّى لقد خطر لي أنّها ربّما أصبحت في حاجة إلى المال فجاءت تستنجدني. أو أنّها اشتاقت إلى هشام فأرسلت تسألني عنه. أو أنّها في حاجة إلى وثيقة ما لا يستطيع الحصول عليها غيري. أو أنّها تطلب الطلاق.

ولكن الرسالة لم يكن فيها شيء من ذلك. وكلّ ما جاء فيها هو النداء الذي ذكرت:

«موسى!..»

فلا تأريخ للشهر والسنة. ولا عنوان. ولا توقيع. ولا أيّ خبر من الأخبار. حتّى كدت أحسب المسألة ضربًا من العبث، لولا أنّني تأكّدت من أنّ الخطّ هو خطّها. ولولا أنّني سمعت في تلك الحروف صوتها ليلة نادتني لأوّل مرّة باسمي فأدخلت تلك النشوة إلى قلبي إذ جعلتني أشعر كما لو كنت سيّد الكون بغير منازع.

لا. لا. ليس في المسألة أيّ عبث. إنّ رؤيا تعود بي عشرين عامًا إلى الوراء – إلى ليلة الصخرة والبحر والقمر والنجوم. تلك هي الحقيقة الوحيدة الثابتة في حياتها. مثلما هي الحقيقة الوحيدة الثابتة في حياتي. وهي تعرف ذلك وتعرف أنّ ما هي فيه الآن هو ما يتكشّف عنه السراب للسائرين في الصحراء. إنّها تتوجّع وتستجير. وتودّ لو تبعث الماضي حيًّا. ويدها لا تطاوعها في نبش القبور. إنّها تستنكف من ذكر الطيش الذي حملها على هجر زوجها وولدها وبيتها. وكبرياؤها تأبَى عليها الاعتذار أو تبرير ما لا مبرّر له.

لقد كان بإمكانها أن تلقي كلّ اللوم على الشيطان الذي غرّر بها فجعلها تفعل الذي فعلت. أو أن تلومني أنا فتقول إنّ انصرافي إلى عملي في الجامعة صرفني عن الاهتمام بها. وإنّها، كأنثى، لا تطيق عيشًا لا يدغدغ أنوثتها من حين إلى حين بالكلام المعسول؛ فالدلال ضرورة في حياتها مثلما هو الهواء والماء والغذاء – بل أكثر. أو أنّها، كأمّ، تلقّت صدمة عنيفة لأمومتها إذ جاء بكرها ووحيدها ولدًا مشوّهًا، ثمّ إذ نضبت رحمها بعد ذلك فلم تحبل ولم تلد. ومن يدري؟ فقد لا يكون الذنب في ذلك ذنبها، بل ذنب زوجها.

أجل. لقد كان بإمكان رؤيا أن تقول ذلك، أو أكثر من ذلك، في تبرئة ساحتها، وترميم ما انهار من العلاقات الطيّبة بيني وبينها. ولكنّها لم تفعل، بل اكتفت بأن نادتني باسمي مثلما نادتني في أوّل ليلة تقاربنا فيها وتعارفنا، فكانت لنا تلك النشوة السماويّة التي يبدو أنّها محرّمة على بني البشر إلّا مرّة واحدة في العمر، ولمدى دقائق معدودات لا ساعات، ولا أبديّات كما خيّل إلينا آنذاك. وهذا النداء أسمعه من رؤيا في الظروف التي هي فيها، والظروف التي أنا فيها، لهو أبلغ وأعذب خطاب يمكن أن يأتيني منها. إنّها لفنّانة وأيّ فنّانة عندما تستغني بكلمة واحدة عن مجلّدات من الكلمات.

فلو أنّها انصرفت إلى الاعتذار، أو إلى تبرئة النفس، أو إلى إلقاء اللوم عليّ أو على الظُروف لشككت في صدقها وفي نيّتها. وقلت إنّها تسترضيني لغرض في نفسها يتعدّاني إلى غيري. ولكنّها اكتفت بالنداء الذي وجّهته إليّ لأوّل مرّة في حياتها، فكان له فعل السحر في نفسها ونفسي، وكان منه أنّنا ارتفعنا فوق الشاروبيم والساروفيم، وشعرنا أنّنا بين ذراعي القدرة التي منها وإليها كلّ شيء، تعانقنا ونعانقها عناق النور للنور والحياة للحياة. فكأنّها بذلك النداء تقول لي: ها أنا قد عدت إلى النقطة التي منها انطلقنا. فهل تعود؟

آه رؤيا، رؤيا!

لكم تمنّيت لو أعود. ولكن أيّ خير في العودة إلّا إذا عاد الجسم كما كان، والقلب كما كان، والفكر كما كان، وعاد الشوق يتأجّج طيّ الضلوع؟ وهذه هيهات أن تعود. لقد رضّضتها وضرّستها الأيّام والليالي، وكادت تطفئ لواعج الشوق فيها.

أقول «كادت» لأنّني ما برحت أحنّ إليك يا رؤيا. ويشوقني أن أسمع صوتك وألمح وجهك ولو مرّة بعد. فأنت لا تدرين أنّ هذا اليوم هو يومي الأخير. وفي أعماق أعماقي أمنية لا أجسر أن أبوح بها حتّى لنفسي. وهي أن تبدر منك بادرة أشتمّ منها أنّك نادمة على سلوكك الشائن معي. وها هي رسالتك التي حملها إليّ تاجر الساعات تبدو وكأنّها تلك البادرة. إلّا أنّني أطمع في أكثر منها.

وهنا العجب العجاب. فلماذا أطمع في ترضية منك فوق التي حملتها إليّ رسالتك؟ بل لماذا أطمع في أيّ ترضية على الإطلاق؟ أليس أنّ ساعاتي على الأرض باتت معدودة؟ فما نفعي من كلمة تقولينها أو لا تقولينها، ومن عمل تعملينه أو لا تعملينه أنت أو أيّ إنسان من الناس؟

لقد انتهت حساباتي مع العالم، أو هي توشك أن تنتهي. فحريّ بي أن أجعل من الساعات المتبقّية لي في هذه الدنيا أعيادًا تحسدني عليها الدنيا. بل حريّ بي أن آخذ ثأري من الدنيا، فأهتف في وجهها:

«اليوم أخلع نيرك عن عاتقي يا دنيا.

اليوم أمسح منك عينيّ، وأطهّر أذنيّ، وأغسل يديّ.

اليوم أتفلّك من فكري، وأتقيّأك من قلبي، وأفرزك من دمي.

اليوم لا رضاك يرضيني، ولا غضبك يغضبني، ولا وعودك تغريني، ولا مَطْلك يؤذيني.

اليوم يومي ويومك الأخير. فحيث لا أكون أنا لا تكونين. وحيث أنتهي تنتهين».

هكذا كان بودّي أن أخاطب الدنيا. أن أبرأ منها. أن أكبر عليها. أن أزدريها فلا ألقي إليها أيّ بال. ولكنّني لست أجد الجرأة في نفسي على فعل شيء من ذلك. وكيف أبرأ من الدنيا – كيف أزدريها – وأنا ما تزال لي حاجات إليها ومطامع فيها؟ من هذه الحاجات حاجتي إلى رؤيا، وإلى كلمة ندامة ومحبّة منها. ومن هذه المطامع مطمعي في أن أصبح رئيس فرع الفلسفة في الجامعة،

وأن يتفتّح ابني هشام عن عبقريّ تعتزّ به الإنسانيّة فلا تذكره إلّا ذكرت أباه معه. إنّي أودّ أن أخلد. وإذا لم يكن لي من أعمالي ما يخلّدني فليأتني الخلود ولو في أعمال يقوم بها إنسان من صلبي. فحسبي أن يقال إنّه ابن فلان.

ما مرّ في خاطري خيال هشام حتّى نسيت ما كان بيني وبين الدنيا منذ لحظات، وما وجّهته إليها من لواذع الكلم. فدنيا فيها هشام لدنيا لا أقوى على مغادرتها بإرادتي. وعلى الأخصّ من بعد أن استردّ ذلك الصبيّ الحبيب مقدرة النطق والمشي. فكيف بي أتفلها أو أتقيأها؟ إنّها لتشدّني إليها بحبال ولا الحبال التي تُشَدّ بها البواخر الجبّارة إلى الشاطئ.

كنت أعرف أنّ الصبيّ في غرفته. وأنّه مستسلم للنوم. وكنت أودّ له أن ينام نومًا طويلًا وعميقًا من بعد الذي حدث له في الحديقة. ورغم ذلك، لم أتمالك من الاقتراب من باب غرفته وفتحه بمنتهى الخفّة والبطء مخافة أن أوقظه. ولشدّ ما أذهلني أن أرى الصبيّ جالسًا في فراشه وقد أخذ رأسه بين يديه كمن يفكّر أو يتأمّل أو يصلّي. ولكنّه لم يلبث أن شعر بوجودي، فرفع إليّ عينيه وناداني بصوت يقطر عذوبة ومحبّة:

– جئت في وقتك يا بابا. تعالَ واجلس بجانبي ودعني أقصّ عليك ما رأيته في نومي وما كنت أفكّر فيه الآن.

جلست إلى جانب الصبيّ، وطوّقت عنقه بذراعي، وقبّلته على جبينه ثمّ قلت:

– هات ما عندك.

قال، وكان في قوله شيء من الحسرة واللهفة:

– ليتني أتقن التصوير.

– ولماذا التصوير وحده من بين كلّ الفنون؟

– لعلّني استطيع تصويره قبل أن تهرب صورته من عينيّ.

– ومَن هو هذا الذي تريد تصويره؟

– الرجل الذي أهدى إليّ نجمة الصبح.

– نجمة الصبح؟!

– نعم. نجمة الصبح.

– أفصح يا بنيّ. لست أفهم.

– اسمع يا بابا. وصدّق كلّ ما أرويه لك. وسأحاول أن أرويه كما وقع – أو كما أذكره – بالتمام. نمت، كما تعلم، من بعد الذي حدث لي مع النسرينة. فلم يطل أن وجدتني أسير وحدي في بلقع لا أبصر له بداية أو نهاية ولا أعرف كيف دخلته، ومن أين، ولماذا. ولا كنت أدري إلى أين يؤدّي بي الشِّعب الضيّق الذي أسير فيه. والعجيب يا بابا أنّني في كلّ السنين التي حُرمت فيها نعمة

المشي والنطق كنت دائمًا أراني في نومي أسير؛ وأحيانًا أطير. وما أكثر ما كنت أجادل، وأخطب في جموع غفيرة من الناس.

وبغتة – كما يحدث في المنام – انتهيت من البلقع الرهيب إلى سرداب ضيّق، مظلم حيث أخذت أسمع من خلفي صوتًا قاسيًا ينتهرني: «إيّاك أن تتوقّف أو أن تلتفت إلى الوراء». ومن حين إلى حين كنت أحسّ وقع قضيب آنًا على ظهري، وآونة على كتفي. وكنت في سيري أرتطم بأشياء لا أدري أمِنَ الجماد هي، أم من النبات، أم هي مخلوقات حيّة. وكان لي من كلّ ذلك عياء كبير ورعب عظيم.

وعندما أخذ منّي العياء والرعب كلّ مأخذ، فكدت أرتمي على الأرض، سمعت صوتًا يناديني. وكان غير الصوت الذي كان يحذّرني من التوقّف ومن التلفّت إلى الوراء. وسمعت الصوت يقول بعذوبة انتعشت لها عظامي ومفاصلي، ومشت بردًا وسلامًا في دمي:

«لا تجزع. فنجمة الصبح تنتظرك عند نهاية السرداب».

وبلغت نهاية السرداب. وإذا بي وجهًا لوجه مع رجل حسبته ماردًا من المردة. يكسوه رداء أزرق بلون السماء في الربيع، وتجلّله لحية طويلة، بيضاء، وتغطّي رأسه عمامة بلون ردائه، وتنطلق من عينيه الواسعتين دفقات من النور الهادئ، الدافئ. ولولا ذلك النور لَما استطعت أن أبصر قيافته وأن أتميّز ملامحه. فالوقت كان نحو انبلاج الفجر، والنجوم كانت ما تزال تتغامز في السماء. ومن غير أن أخاطبه أو يخاطبني بكلمة مدّ يمناه إلى السماء فتناول من نجماتها أسطعها وأروعها وعلّقها على صدري كما يُعلّق الوسام. وقال:

«هذه نجمة الصبح».

واختفى. وعندما حاولت أن أناديه خانني صوتي. وأفقت من نومي، وأنا لا أصدّق أنّ الذي أهدى إليّ نجمة الصبح لم يكن غير طيف في منام».

وانقطع الصبيّ عن الكلام وقد علت وجهه سحابة من الحيرة والكآبة. ثمّ التفت إليّ وقال:

– ما هو تفسيرك لهذا الحلم يا بابا؟

قلت:

– ليتني كنت مفسّر أحلام يا هشام.

– ألا تعتقد أنّ للأحلام دلالاتها؟

– ما من شيء في الكون إلّا له دلالته ومعناه. ولكن من أين لنا أن نفهم دلالة كلّ شيء ومعناه؟

– ليتنا نفهم.

وعاد الصبيّ فأخذ رأسه بين يديه كمن يفكّر، أو يتأمّل، أو يصلّي. وانقطع عن الكلام فانقطعت.

الساعة الحادية عشرة

جاءتني أمّ زيدان وهي تفرك يدًا بيد، وقد تبلّلت أهدابها، وعقد الحزن سحابة على وجهها المتغضّن، وتقاربت خطواتها حتّى لتحسبها دبيب النمل. وبصوت كأنّه صوت الأمل المخنوق قالت:

– واحسرتي عليه! واحسرتي عليها!

– على مَن يا أمّ زيدان؟

– على هذا المسكين المتعثّر الحظّ، وزوجته المتعثّرة الحظّ.

– ومَن هو؟

– المختار.

– أيّ مختار؟ مختار الضيعة؟

– اي. اي. مختار الضيعة – أبو شكر الله.

– وماذا حلّ به؟ هل مات؟

– يا ليته مات.

– ولماذا تحسّرك عليه؟

– أما تسمع العويل في بيته؟

– بلى. بلى. سمعته الآن يا أمّ زيدان. ومَن أدراك أنّ مصدره بيت المختار؟

– أخبرتني جارتنا منذ دقيقة.

– وما الخبر؟

ودقّت أم زيدان كفًّا بكفّ، ولطمت خدّيها بكفّيها، وجرّت أناملها من جبهتها نزولًا إلى ذقنها كأنّها تودّ أن تحفر في وجهها أخاديد فوق التي فيه. ثمّ ارتمت على أقرب كرسيّ وراحت تنبش شعرها وتضرب ركبتيها بكفّيها وهي تردّد:

– المجد لاسمك يا ربّي. أين قلبك؟ أين رحمتك؟ أين عدلك؟ لا تؤاخذني يا ربّي. اغفر لي يا ربّي!

– وما دخل الله في الأمر يا أمّ زيدان؟

– ما دخل الله؟! ومَن غيره يعطي الحياة ثمّ يستردّها؟ مَن غيره يعطي البعض البنين ويحرم منهم الآخرين؟ مَن غيره يوزّع الأرزاق، ويحكم في الأعناق، ويرفع ويخفض، وفي يده حساب الدنيا وحساب الآخرة؟

– الخبر. الخبر يا أمّ زيدان. ما هو الخبر؟

– الله – سبحانه في ملكه – أعطى المختار صبيًّا وحيدًا بعد سبع بنات، ثمّ ندم على عطيّته فاستردّها.

– تعنين أنّ شكر الله ابن المختار مات؟

– نعم. نعم. مات. مات. وليس له من العمر أكثر من ثلاث سنوات. الصبيّ الوحيد يولد بعد سبع بنات فيأخذه اليوم الله ويترك أخواته. وليس من أمل بعد لأمّه أن تحبل وتلد. سبحانك يا ربّي. سبحانك في ملكك.

– وكيف مات الصبيّ؟

– وقع في البئر فاختنق. ولم ينتشلوا جثّته بعد. يا حرام. يا حرام. يا ويل قلب أمّه. وممّا يزيد في نكبة المسكينة أنّها هي التي رفعته بيديها إلى حافّة البئر لتريه الشمس المنعكسة فيها، وإذا بها تلتهي بالحديث مع جارتها، فيفلت الصبيّ من بين يديها ويهوي في البئر. وَيْلي عليها! ويل قلبها! يا مسكينة. يا مسكينة. سيقول الناس إنّها هي التي قتلته بيدها. فلو لم ترفعه إلى حافّة البئر لَما وقع في البئر. يا ويلها من ألسنة الناس! يا ويلها من زوجها!

– من زوجها؟!

– نعم. من زوجها قبل كلّ الناس.

– ولماذا يا أمّ زيدان؟

– لأنّه وحش. لأنّه ليس من البشر. لأنّه يكره البنات كرهه للموت. فلو أنّ بناته السبع غرقن في البئر دفعة واحدة، أو لو أنّ الطاعون جرفهنّ في دقيقة واحدة لما ابتلّ له جفن. وكرهه للبنات جعله يكره زوجته التي جاءته بسبع بنات على التوالي. لقد ذاقت المسكينة منه الأمرّين. كان يجرش الملح على ظهرها. وحاول أكثر من مرّة أن يخنقها فكان الجيران ينقذونها من بين يديه.

– إلى هذا الحدّ؟

– وأكثر بكثير. أخباره كأخبار الجنّ والحيّات، لا نهاية لها. وأنا، مع ذلك، أرثي لحاله وأشفق عليه.

– مَن كان مثله كان بالجَلْد أَوْلى منه بالشفقة.

– لا. لا. الحقّ يجب أن يقال. بنت، بنتان، ثلاث بنات – ممكن. معقول. محمول. ولكن سبع بنات – الواحدة تلو الأخرى... تلك هي النكبة. تلك هي المصيبة العمياء. وهي كافية لأن تُخرج أكبر العقلاء من عقله. لا. لا. الحقّ يجب أن يُقال.

– الحقّ يا أمّ زيدان أنّ البنت إنسان والصبيّ إنسان. ولولا البنت لما كان الصبيّ. ولولا الصبيّ لما كانت البنت. فلا مجال للتفضيل.

– بسلامة عقلك يا دكتور. البنت مثل الصبيّ؟! لا. لا. لا. ظفر صبيّ واحد يساوي عشرين بنتًا. جنسنا – جنس حواء – لا يُركن إليه. ليس أكثر من مشاكله ومتاعبه.

– ولكنّه ملح الأرض.

– ملحها وسُوسها. وخمرها وخلّها.

– وهذا القول ينطبق على جنس آدم كذلك.

هنا تبسّمت أمّ زيدان عن النابين الأصفرين الباقيين في فكّها الأسفل، وخفّت حدّتها. فاقتربت منّي، وربّتت كتفي وهي تقول:

– عَلِي وِزْوَيْك. وزويك وعلي. الحقّ معك يا ابني. الجنسان – جنس حوّاء وجنس آدم – فيهما البركة. لا هذا كلّه عسل ولا هذاك كلّه علقم. ولكن – سبحان الله! الصبيّ معزّته غير معزّة البنت. قل مهما شئت.

– أما تظنّين يا أمّ زيدان أنّ الذي خلقهما ذكرًا وأنثى أدرى بتدبير خلقه منّي ومنك؟

– يي. المجد لاسمه. بالطبع. بالطبع. هو أدرى من جميع الناس. ولكنّي ما من أجل ذلك أتيتك الآن. قاتل الله الخَرَف.

– من أجل ماذا؟

– جئت أسألك لتذهب إلى بيت المختار.

– والقصد من ذهابي؟

– أن تواسيهم في مصابهم. كلمة منك قد تسند قلوبهم الخاوية، الخالية. حرام. مواساتهم رحمة.

– فتّشت، وفتّش غيري من زمان، يا أمّ زيدان، عن الكلمة التي تواسي في الموت فلم أجدها ولم يجدها غيري. المواساة في الموت – حتّى أصدقها – تعب مهدور وملح مرشوش على جرح مفتوح.

– يكفي المحزون أن يأتيه من يلهيه عن حزنه.

– بل خير ما يمكن فعله في سبيل المحزون هو أن نحبسه مع حزنه. ليس ينفع الذي يخاف الموت أيّ كلام عن الحياة بعد الموت. وينفعه أن يبقى وحده وجهًا لوجه مع الموت. فإمّا ان يلتهمه

الموت، وإمّا أن يلتهم هو الموت وإمّا أن يألف الموت فلا يخشاه ولا يهرب منه.

– هذا هو الكفر بعينه يا ابني. ومَنذا يطاوعه قلبه أن يحبس الخروف والذئب في قفص واحد؟

– ولكن إذا كان الخروف يعلم حقّ العلم أنّ الذئب آكله ذات يوم لا محالة، ولا مفرّ من ذلك اليوم، أفَلَيس من الخير له أن يألف الذئب ويصادقه استعدادًا لذلك اليوم؟ أوَليس من التجنّي على الخروف أن نندفع أمامه في شتيمة الذئب وتقبيحه بدلًا من أن نمهّد للصداقة بين الاثنين؟

– نجّنا يا الله. نجّنا يا الله. ما هذا الكلام يا ابني؟ ومن يستطيع أن يتّخذ من الموت صديقًا له؟

– والذي لا يصادق الموت تبقى حياته موتًا مستمرًّا.

– قل ما شئت. أمّا أنا فلن أصادق الموت.

– ألعلّكِ تخشينه كثيرًا؟

– أخشاه لا لنفسي بل لغيري.

– لو جاءك الموت في هذه اللحظة أكنتِ تقولين له: أهلًا وسهلًا!؟

– تريد الصحيح؟ لا. إني أريده أن يتمهّل قليلًا بعد.

– إلى متى بالتقريب؟

– إلى... إلى أن تعود السيّدة رؤيا. فقد اشتقت إليها كثيرًا. وإلى أن يكبر هشام – يقبرني هشام – ويتزوّج. وإلى...

– وإلى أن يكون لِهشام صبيّ.

– اي. اي. وإلى...

– وإلى أن يعود زيدان.

– اي. اي. لهف قلبي على زيدان. ترى هل يعود؟

– وإلى أن يتزوّج زيدان – إذا كان لم يتزوّج بعد. وإلى أن يبني له بيتًا ويأخذك لتسكني معه. وإلى أن يولد له أوّل صبيّ. وإلى أن يكبر الصبيّ فيناديك «يا ستّي!»...

– إي. إي. صحيح. صحيح. لكأنّك تقرأ أفكاري.

– وإلى أن يتقاعد الدكتور موسى العسكري فيستريح من العمل المرهق في الجامعة.

– بلى. بلى. لكأنّك تقرأ أفكاري بالتمام.

– وهكذا يبدو أنّ أمّ زيدان تريد أن يموت الموت ولا تموت.

– أتريد أن أقول لك الصحيح الصحيح؟

– الصحيح الصحيح.

– لو كان لي في هذه الدقيقة أن أتفل في وجه الموت، أن أفقأ عينيه، أن أكسر ساقيه وذراعيه، أن أدقّ عنقه، أن أخنقه لَما تردّدت لمحة واحدة.

– ولكنّه هو الذي سيفقأ عينيك، ويكسر ساقيك وذراعيك، ويدقّ عنقك. هو الذي سيخنقك. هكذا كان شأنه مع الذين سبقونا. وهكذا سيكون شأنه معنا ومع الآتين بعدنا. فأين المهرب؟

– ولذلك أعضّ على جرحي وأسكت.

وسكتت أمّ زيدان بالفعل. وكأنّي بها، من بعد الحديث الذي دار بيني وبينها عن الموت، اقتنعت بوجاهة قولي إنّ خير مؤاساة للمنكوب بالموت أن تتركه وحده وجهًا لوجه مع الموت. فلم تحاول إقناعي ثانية بالذهاب إلى بيت المختار لتأدية «الواجبات» التي تفرضها اللياقة في مثل تلك الظروف. ولكنّها، بعد سكوت وحيرة، عادت فقالت:

– كنت أودّك أن تذهب. فلِمَركزك قيمة كبيرة في نظر المختار وأهل الضيعة. أمّا أنا فمن أنا؟ ولكنّ قلبي لا يطاوعني على البقاء في البيت والمناحة قائمة على مقربة منّي. حرام. حرام أن يبكي الميتَ أهلُه لا غير. فلِلباكين مؤاساة إذا رافقت دموعُ غيرهم دموعَهم. ما قيمة الجيرة، وما نفع الجار الذي لا يغسل جرح جاره بدمعه؟ إنّي ذاهبة الآن. ولكنّني سأعود لأقدّم طعام الغداء لك ولهشام. يقبرني هشام. للأموات علينا حقّ. وللأحياء حقوق.

وانصرفت من عندي أمّ زيدان وتركتني في بحران وأيّ بحران:

المختار يكره البنات فيولد له منهنّ سبع – الواحدة تلو الأخرى. ومعنى ذلك أنّ المختار، في عرف المختار، ابتُلي بنكبة ما بعدها نكبة. ولكنّ البنات السبع قد انحدرن جميعهنّ من صلب المختار. أوَليس يعني ذلك أنّ نكبة المختار انحدرت من صلبه، وأنّ المختار يعاقب المختار؟ ففيم يحقد المختار على كلّ ما في الأرض والسماء إلّا على المختار؟ ومِن أين للمختار هذا الشعور بأنّ الحياة أساءت إليه عندما قامت بوظيفة من وظائفها التي لا حصر لها ولا عدّ؟ ومتى كانت الحياة تستشير المختار وغير المختار في تصريف شؤونها؟

والمختار، من بعد «نكبته» بالبنات السبع، أصبح ولا أمنية لديه أغلى من أن يولد له غلام. وقد ولد له غلام، فغفر للحياة «إساءتها» بالبنات. ويبدو أنّ الحياة لم تغفر له إساءته إليها إذ جحد جميلها وفضّلها عليه، وراح يدّعي أنّه أدرى منها بما يترتّب عليها من وظائف وواجبات. لذلك لم تلبث أن سلبته ذلك الغلام. فهل تراها، بفعلتها هذه، قد فتحت عينيه، وغسلت قلبه من الحقد عليها، وجعلته يؤمن بحكمتها وعدلها وجمالها في كلّ ما تفعله أو تمسك عن فعله؟ إنّي أشكّ في ذلك. لا بل أبتّ بأنّ المختار بات أشدّ حقدًا اليوم على الحياة منه في كلّ يوم. فما نفعه من التعازي والمعزّين؟ وهل مَن يستطيع أن يقول له إنّه أساء إلى الحياة فارتدّت إساءته إليه؟

هكذا كنت أُفكّر عندما سمعت صوتًا في داخلي يسخر بي فيقول:

«إنّك تبسّط الأمور كثيرًا يا دكتور عندما تنظر إلى ما حصل اليوم في بيت المختار كما لو كان حسابًا بين المختار والحياة، وكما لو أنّ المختار أساء إلى الحياة فردّت الحياة إساءته مضاعفة إليه.

والحقيقة هي أنّ ما حصل في بيت المختار يتناول أكثر من المختار بكثير. إنّه يتناول زوجة المختار، وكلّ واحدة من بناته السبع، والصبيّ الذي غرق في البئر، وأقارب المختار وزوجته، وأصدقاءهما وأعداءهما، وجيرانهما – وأنت منهم. ويتناول في الواقع، وفي درجات متفاوتة، كلّ مَن اتّصل بهم من قريب ومن بعيد. لا. ليست المسألة من البساطة بحيث تتراءى لك».

وما أدري لماذا انتقلت بغتة بفكري إلى حكاية الرجل المولود أعمى في الإنجيل. فقد ورد على لسان الحواريّ يوحنّا أنّه فيما كان يسوع يسير مع تلاميذه أبصر رجلًا أعمى منذ مولده. فسأله تلاميذه: «يا ربّ مَن أخطأ، أهذا أم أبواه حتّى وُلد أعمى؟» فأجابهم: «لا هذا ولا أبواه. لكن لتظهر أعمال الله فيه.» ولا أنا أدري لماذا وقفت عند هذه الحكاية وكأنّني واقف على عتبة سرّ من أعظم الأسرار في الكون، وكأنّني أقرأ الحكاية لأوّل مرّة، في حين أنّي قرأتها وسمعتها مرّات من قبل.

رَجل يولد من بطن أمّه أعمى. ههنا ما هو جدير بالتفكير العميق، العميق.

رأيت مرّة والدة تضرب ولدها البالغ من العمر سبع سنوات لأنّه لم يطعها في أمر من الأمور. ثمّ رأيت الولد يفلت من يَدَي أمّه ويعدو هاربًا فيعثر، ويقع على الأرض، ويشجّ رأسه، ويأخذ يبكي بكاء مرًّا ويعول عويلًا منكرًا. وعندها رأيت أمّه تهرول نحوه وهي تردّد بأعلى صوتها: «تستاهل. تستاهل!» وهي تعني أنّ ولدها قد لقي القصاص الذي استحقّه بسبب معاندته لإرادتها.

ولكَم سمعت الناس يشمتون بسارق إذا تلقّفه السجن، وقاتل إذا هو تدلّى من المشنقة، ومتبجّح بغناه إذا هو أفلس، ومتباه بقوّة عضلاته إذا هو لقي مَن يلقمه التراب. أوَليس معنى ذلك أنّ الناس يعترفون بوجود نظام إذا تعدّاه أحدهم جلب لنفسه المتاعب والأوجاع؟ إنّه اعتراف بصدق الحكمة القديمة القائلة إنّ الإنسان لا يحصد غير الذي يزرع.

وجليّ أن تلاميذ يسوع كانوا يعتقدون أوثق الاعتقاد أنّ العاهات والمصائب على أنواعها ليست سوى قصاص عادل للّذين تنزل بهم والذين يشاركونهم فيها إلى حدّ كبير أو صغير. فهي حصادهم لما زرعوه. إنّها نياتهم وأفكارهم وأعمالهم وقد ارتدّت إليهم.

ولكنّ التلاميذ ارتبكوا أشدّ الارتباك عندما حاولوا أن يطبّقوا قانون الزرع والحصاد على رجل وُلد من بطن أمّه أعمى. إذ كيف كان لذلك الرجل أن «يزرع» أيّ البذور وهو ما يزال جنينًا في الرحم؟ وإذا هو لم يزرع أيّ بذور تستوجب العمى وزرعها أبواه فأيّ العدل هو العدل الذي يقضي بأن يحصد الولد ما زرعه أبواه حتّى قبل ولادته؟ إنّه الظلم الذي ما بعده ظلم أن يأكل الآباء الحصرم فلا يضرسوا ويضرس الأبناء. وأيّ الناس يطاوعه قلبه أو فكره أن يقول لطفل مولود أعمى: «تستاهل!»؟

فكّرت في هذه الأحجية وفكّرت حتّى كاد ينفلق رأسي. ولم أهتدِ إلى جواب. وبغتة خطر لي خاطر غريب. وهو أنّ تلاميذ المسيح لم يكونوا من البلاهة بحيث يعتقدون أنّ الجنين يمكن أن

يخطئ وهو في بطن أمّه. فالخطأ هو تجاوز القاعدة، أو القانون، أو النظام، سواء كان التجاوز عن عمد أو عن غير عمد. والجنين في بطن أمّه لا يملك القدرة على مثل ذلك التجاوز. فكيف يخطئ؟

ولكنّ الرجل وُلد أعمى. والعمى، كغيره من العاهات والمصائب، لا يمكن أن يكون غير نتيجة لتجاوز النظام الذي يقضي على كلّ إنسان أن يحصد ما زرع. ألعلّ التلاميذ عندما سألوا معلّمهم ذلك السؤال كانوا يقصدون أنّ الرجل قد «أخطأ» قبل أن كان جنينًا في بطن أمّه؟ أي أنّه عاش ومات ثمّ عاد فوُلد؛ وأنّه تجاوز النظام في حياته السابقة تجاوزًا استحقّ من أجله أن يعيش حياته الجديدة مكفوف البصر.

بلى. بلى. ذلك ما عناه تلاميذ يسوع بسؤالهم. وذلك ما فهمه معلّمهم منهم. ولولا أنّه كان يعتقد اعتقادهم أنّ الناس يولدون ويموتون أكثر من مرّة لأنّبهم أقذع التأنيب فقال لهم: «يا مجانين! كيف كان لهذا الرجل أن يخطئ وهو جنين في بطن أمّه؟» إلّا أنّه لم يفعل شيئًا من ذلك واكتفى بجواب ينفي «الخطأ» عن الولد وأبويه، ولكنّه لا ينفي أنّ العمى هو قصاص تتجلّى فيه «أعمال الله»، أو مشيئته، أو نظامه. ولا هو ينفي أنّ مثل ذلك القصاص يمكن أن ينزل بالذي ارتكب الخطأ مباشرة والذين لهم به صلات وثيقة. فكأنّهم شركاؤه في الخطأ، ولكن بدرجات متفاوتة. فنصيب الولد جاء أكبر من نصيب الوالدين. وليس من المعقول أن يتساوى نصيب الوالدة ونصيب الوالد.

وهكذا يبدو أنّ «أعمال الله»، أو مشيئته، أو نظامه، هي التي قضت على الرجل أن يولد أعمى لأنّه عمل أعمالًا، أو فكّر أفكارًا، أو نوى نيّات، أو اشتهى شهوات مغايرة للنظام. ومن الأكيد أنّ ذلك لم يتأتّ له وهو جنين في بطن أمّه. إذًا متى وأين، إن لم يكن في حياة سابقة؟

لو أنّ ملاكًا هبط من السماء قبل دقائق ليقول لي إنّ الناس يولدون ويموتون، ثمّ يولدون ويموتون مرارًا وتكرارًا لشككت في سلامة عقله. أمّا الآن، وقد نقلتني نكبة المختار إلى نكبة الرجل المولود اعمى في حكاية الإنجيل فإنّي أشكّ في سلامة عقل كلّ إنسان يقول غير هذا القول. ومن أعجب العجب أن يتولّد عندي هذا الشعور – بل هذا اليقين – في مثل رفّة الجفن. فكأنّ غشاوة كثيفة كانت على عينيّ فانتزعتها يد خفيّة، رفيقة، ومزّقتها ثمّ بعثرتها هباء في الفضاء. أمّا كيف تولّد عندي ذلك اليقين في مثل هذه السرعة فأمر لا أملك الجواب عليه. ولا أنا أستطيع أن أسوق عنه الأدلّة والبراهين القاطعة. وكلّ ما يمكنني قوله هو أنّني كنت في فراغ هائل وفجأة نبتت لي هذه الفكرة فملأت الفراغ.

لا. ليست الفكرة بالجديدة عليّ. فقد قرأت عنها من زمان في بعض دراساتي الفلسفيّة. وكأنّني أذكر أنّ فيثاغورس كان من القائلين بها، وأنّ في الهند والصين وغيرهما من ديار الشرق الأقصى مئات الملايين من الذين تقوم تلك الفكرة بمثابة حجر الزاوية في معتقداتهم الدينيّة والدنيويّة. إلّا

أنّها لم تلقَ من جانبي أيّ استعداد لتقبّلها أكثر ممّا تلقى حبّة القمح أو قطرة الماء من جانب الصخرة الصلدة.

أمّا الآن، وقد أثارني موت الطفل شكر الله ابن المختار، فقد انقضّ عليّ انقضاض الصاعقة ذلك السؤال الوارد في الإنجيل: «مَن أخطأ، أهذا أم أبواه؟» وبمثل انقضاض الصاعقة جاءني الجواب. وهو، وإن اختلف في الشكل عن الجواب الوارد في الإنجيل، ليس يختلف عنه في المعنى. والجواب هو أنّ الولد ووالديه تجاوزوا في حياة سابقة، «مشئة الله» التي هي نظام حياتهم فكان الذي أصابهم جميعًا نتيجة حتميّة لذلك التجاوز. لقد جلبوا البليّة، أو الوجع، أو القصاص، لأنفسهم بأنفسهم. فالمسؤوليّة هي مسؤوليّتهم أوّلًا وآخرًا.

والناس قد يجلبون الأوجاع لأنفسهم بأعمال يعملونها، أو أفكار يفكّرونها، أو شهوات يشتهونها وهم يعرفون حقّ المعرفة أنّها تجاوز على النظام. وإذ ذاك فأوجاعهم هي جواب النظام على تجاوزهم. وقد يتجاوز الناس النظام عن غير وعي، أو عن جهلهم للنظام. وإذ ذاك فأوجاعهم هي المنبّه لهم إلى وجود النظام الذي عينه أبدًا يقظى، وميزانه لا يطرأ عليه أيّ خلل، ولا هو يعرف المحاباة. أمّا كيف ينفّذ ذلك النظام ذاته بذاته فيجعل موسى العسكري يتزوّج رؤيا الكوكبيّة لتلد له ولدًا مشوّهًا ثمّ تهجره. و«يبتلي» المختار بسبع بنات ثمّ «يهبه» صبيًّا ويستردّه بعد ثلاث سنوات – فأمور لا أفهمها ولا أحاول فهمها.

لعلّ الذي راقني من هذه الفكرة، في الدرجة الأولى، هو أنّها تقضي على رهبة الموت فتجعل منه خادمًا أمينًا للحياة لا خصمًا لدودًا لها. ثمّ أنّها تردّ إلى «العدل» و«الحقّ» و«الحياة» معناها. فما يصيبني من لذّة وألم هو حصاد ما أزرعه في هذه الحياة وما زرعته في حيوات سابقات من بذور صالحة أو طالحة. وذلك هو العدل كلّ العدل: أن يكون ثوابي في يدي، وعقابي في يدي. فلا أعاتب الله، ولا الدهر، ولا الطبيعة، ولا أيّ إنسان في ما يصيبني من وجع. فأنا قضاء نفسي. وأنا قدَرها. وأنا السبب الأوّل والأخير في كلّ ما بيني وبين الناس من تفاوت في الحظوظ.

كذلك هو الحقّ كلّ الحقّ أن تتهيّأ لي الفرصة الكافية لدرس النظام وتطبيقه عن فهم وعن رضى. وهل من يستطيع القول إنّ عمرًا واحدًا، مهما طال، هو فرصة كافية لدرس النظام وفهمه وتطبيقه؟ فكيف بذلك العمر إذا هو لم يتجاوز بضع سنوات، بل بضع ساعات، بل بضع دقائق؟

وكذلك هي الحياة التي مداها الزمان كلّه، والتي تنتهي بنا إلى معرفة النظام الذي منه كلّ شيء، وفيه كلّ شيء، وإلى اندماجنا في ذلك النظام اندماج قطرة الماء في الجدول، والجدول في النهر، والنهر في البحر، والبحر في المحيط. إنّها غير الحياة التي يترصّدها الموت منذ أن تبصر النور في المهد وإلى أن تلفّها ظلمة اللحد. ومعناها أبعد من أن يعقله أيّ عقل أو يتخيّله أيّ خيال. إنّها الأزل والأبد. إنّها حياة الله.

وإنّي لأسأل بعد هذا: لماذا يصعب على الناس أن يتقبّلوا فكرة تجدّد الشخصيّة البشريّة مرارًا وتكرارًا بعد الموت كيما تكتمل لها أسباب المعرفة والحريّة والخلود، ويهون عليهم أن يتقبّلوا فكرة تجديد تلك الشخصيّة مرّة واحدة «يوم القيامة». أو فكرة امّحاقها بالموت امّحاقًا لا تجديد بعده؟

أيّهما أقرب إلى منطق الحياة، وإلى العدل والرأفة والمحبّة. أن يقول الله للإنسان:

«إنّي خلقتك لتمجّدني. وإنّي، وإن يكن الزمان كلّه في قبضتي، لم أعطك منه غير فسحة أدناها ساعة أو بعض الساعة، وأقصاها قرن أو بعض القرن. ثمّ أميتك وأتركك ميتًا حتّى يوم القيامة. ويوم القيامة لا يعرف موعده غيري. فقد يأتي بعد ألف عام. وقد يأتي بعد ألف ألف عام. في ذلك اليوم أعود فأجمع عظامك أينما كانت وكيفما تحوّلت، فأكسوها باللحم، وأنفخ فيها الحياة، فأردّك بشرًا سويًّا. ثمّ أدينك بما فعلته في خلال عمرك على الأرض. فإذا رجحت كفّة الصالح منه على الطالح أسكنتك إلى الأبد جنّات تجري من تحتها الأنهار. وإذا رجحت كفّة الطالح على الصالح زججتك إلى أبد الدهر في نار لا ينطفئ لها أوار. فلا لهيبها يخبو لحظة ولا أنت تحترق فتترمّد.»

أو أن يخاطب الله الإنسان هكذا:

«صورة أنت كصورتي. ومثال كمثالي. ولكنّك لا تعرف نفسك ولا تعرفني. أمّا أنا فأعرف نفسي وأعرفك. لذلك خلقت لك الأرض والسموات وكلّ ما فيها لتكون لك منها عدّة تساعدك في الوصول إلى معرفة نفسك ومعرفتي. ومددت لك بساط الزمان كلّه لتتمكّن من بلوغ تلك المعرفة. ولأسهّل عملك عليك فقد جعلت حياتك مراحل تتلو مراحل. فعمل وراحة. وشبع وجوع. ويقظة ونوم. وطفولة وصبا، وشباب وكهولة، وشيخوخة ثمّ موت. وإنّي لأميتك وأحييك ثمّ أميتك وأحييك، ثمّ أميتك وأحييك إلى أن تتمّ لك معرفة نفسك ومعرفتي، فتغدو خارج نطاق الزمان والمكان، وأبعد من متناول النموّ والانحلال، وفوق سلطان الخير والشرّ»؟

أجل. أيّهما أقرب إلى منطق العدل، والحقّ، والحياة: أن يخاطب الله الإنسان بذلك الخطاب أم بهذا؟

بهذا المنطق أستطيع أن أتقبّل كلّ ما جرى لي حتّى اليوم مع نفسي ومع الناس. فلا أعجب لأنّني كُوّنت كما كوّنت، وتدرّجت في حياتي كما تدرّجت، واتّصلت من الناس بمن اتّصلت، وتزوّجت رؤيا لا غيرها من النساء، ورُزقت وإيّاها الولد الذي رُزقنا، ثمّ كان بيننا ما كان من هجر وسوء تفاهم. فجميع ذلك لم يكن غير حصادي لبذور زرعتها، وغير دروس لي في معرفة نفسي. ولكنّها دروس فاتني من معانيها الشيء الكثير قبل أن أدركت اليوم ما أدركت.

صحيح أنّ «مصائب قوم عند قوم فوائد». وكيف كان لي أن أعرف قبل ساعة أنّ مصيبة المختار بابنه ستأتيني منها مثل تلك الفائدة؟

أمّا المختار نفسه فما أظنّه يفيد من مصيبته غير عمى جديد يضاف إلى سابق عماه. فهو سيبقى يكره البنات فوق كرهه لهنّ في أيّ يوم مضى. وهو لن يكفّ عن لوم الكون وربّ الكون على اختطاف وحيده منه. إلّا نفسه، فهو لن يلومها في أيّ شيء. ولكنّ قلب المختار المغلق الآن دون حقيقة نفسه وحقيقة الكون لا بدّ من أن يأتيه يوم يأخذ فيه بالانفتاح، إن لم يكن في هذا العمر ففي أعمار لاحقات، ذلك ما تؤكّده لي «نكبة» المختار.

الساعة الثانية عشرة

– هشام! أيّنا أسَنّ: أنت أم أنا؟

– ما هذا السؤال يا بابا؟

– سؤال وجيه يا ابني. أجبني.

– وكيف أجيبك؟

– أجبني. أجبني. فإنّي أشعر الآن أنّك أعتق منّي.

– ومن أين لك ذلك الشعور؟ إنّه لشعور غريب جدًّا.

– لست أدري. ولكنّه شعور عميق وعنيد.

– وكيف أكون أعتق منك وأنا ولدك وأنت والدي؟

– ظننتك تملك الجواب. أفَما تذكر أين كنت، وماذا عملت طوال المدّة التي عشتها معنا معقود اللسان، مشلول الرجلين؟

– أذكر أشياء. وتفوتني أشياء.

– أخبرني بعض ما تذكر.

– أذكر أنّني لم أكن وحدي حتّى في الساعات التي لم يكن فيها حواليّ أيّ إنسان.

– تعني أنّك كنت تجالس أناسًا تبصرهم ولا يبصرهم غيرك؟

– بل كنت أسمع أصواتًا لا يسمعها غيري.

– تسمع أصواتًا ولا تبصر أصحابها؟

– نعم. نعم. والغريب أنّني ما كنت أسمعها بأذنيّ لا أكثر. بل بعينيّ كذلك، وبكلّ جارحة من جوارحي. كنت أحسّها رعشات في دمي، فكأنّني قيثارة كثيرة الأوتار، وكأنّها أصابع لطيفة وغير منظورة تداعب تلك الأوتار. ما أظنّني أستطيع أن أصف لك ذلك أو أن أفسّره.

– حاول.

– لا جدوى من المحاولة.
– وشعورك بتلك الرعشات – هل كان شعور اطمئنان وغبطة، أم شعور قلق وانتظار؟
– كان إلى الاطمئنان والغبطة أقرب بكثير منه إلى القلق والانتظار.
– أكنتَ تحسّ في تلك الحالات زحف الزمان – زحف الثواني والدقائق والساعات؟
– لا.
– أتدري كم عمرك يا هشام؟
– لا. لست أدري.
– في هذا اليوم يكتمل عامك الثامن عشر. وها أنت تبدو لي أكبر من عمرك بكثير. بل أكبر منّي بكثير. حتّى كأنّني الولد وأنت الوالد.
– هذا كلام مضحك يا بابا.
– بل المضحك أن تجد فيه ما يضحك. هل فكّرت في الموت يا هشام؟
– أبدًا.
– أبدًا، أبدًا لم يخطر الموت في بالك؟
– الأصوات التي كانت تكلّمني لم تكلّمني يومًا عن الموت.
– وعمّاذا كانت تكلّمك؟
– عن أشياء كثيرة إلّا الموت.
– ألم يكن الموت في قاموسها؟
– لست أدري. ولكنّني قبل اليوم لم أفكّر في الموت.
– أمّا اليوم فقد بدأت تفكّر؟
– فكّرت فيه من بعد أن أخبرتني أمّ زيدان بما كان من أمر ابن المختار.
– وهل أحزنك الخبر؟
– لا. لم أشعر بأيّ حزن. ولماذا أحزن؟
– لأنّ الولد كان ثمّ غدا وكأنّه لم يكن. ولأنّ في موته حرقة لوالديه وأخواته.
– وأين كان الولد قبل أن يكون؟
– في ذمّة الزمان.
– وأين هو الآن؟
– في ذمّة الزمان.
– والذي في ذمّة الزمان هل عرفه أحد حتّى الساعة؟

– ما أظنّ أيّ الناس يستطيع أن يعرف ما في ذمّة الزمان منذ أن كان الزمان، أي من الأزل وإلى الأبد.

– والذي يجهل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون في ذمّة الزمان كيف يفرح ويحزن؟ فقد ينقلب حزنه فرحًا وفرحه حزنًا.

– أرأيت أنّك أكبر منّي بكثير؟ لقد عشتُ ما عشتُ من السنين ولم يخطر في بالي أن أطرح على نفسي مثل هذا السؤال. كلّنا يجهل ما في ذمّة الزمان، ثمّ يريد أن لا يهبط عليه من كفّ الزمان غير اللذّة الدائمة والسعادة التي لا تذوي. وينسى أنّ الذي في «ذمّة الزمان» ليس إلّا الأعمال والحركات والنيّات والشهوات التي صدرت عنه وعن غيره من الكائنات، وأنّ هذه جميعها بذور تنبت في حينها، وتؤتي أكلها في حينها. ألا تخشى الموت يا هشام؟

– قلت لك يا بابا إنّني لم أفكّر في الموت قبل اليوم.

– أمّا وقد فكّرت فيه اليوم فهل تراك تخشاه؟

– ما أظنّ. ما دام أنّي كنت في ذمّة الزمان وسأبقى في ذمّة الزمان.

– أرأيت أنّك أكبر من والدك وأعقل من والدك؟ أمّا أنا فما أكاد أحسبني قادرًا على مجابهة الموت حتّى تنهار عزيمتي لمجرّد ذكره. طوباك يا بنيّ، طوباك!

دار هذا الحديث بيني وبين هشام في المكتبة، وتوقّف عندما دقّت الساعة الثانية عشرة. فانتفض الولد كمن قد مسّه سلك مكهرب. وحيّرتني، بل أقلقتني، انتفاضته فقلت:

– لماذا انتفاضتك يا ابني؟

فكان جوابه:

– لست أدري. كأنّ صوتًا رنّ في أذني، وكأن يدًا لمست كتفي.

– صوت مَن، ويد مَن؟

– أعرف ولا أعرف. فكأنّي سمعت ذلك الصوت وأحسست تلك اللمسة من قبل. أمّا متى، وكيف، وأين، فلست أذكر.

في تلك اللحظة دخلت علينا أمّ زيدان لتقول إنّ شحّاذًا في الباب، وليس لديها من النقد الصغير ما تعطيه. وكنت أعرف أنّ أمّ زيدان لم تردّ يومًا متسوّلًا. فقد كانت تقول: «مَن يدري؟ فقد يجور علينا الدهر فيكرهنا على التسوّل. والذي يحسن إلى الفقراء في هذه الدنيا يحسن الله إليه في الآخرة». لذلك ناولتها بعض النقد الصغير الذي كان في جيبي. فانصرفت لتعود بعد دقيقة وقد امتقع وجهها وبدت عليه أمارات الحيرة والارتباك. وبصوت متلجلج قالت:

– هذا الشحّاذ ليس كالشحّاذين. لقد أبى أن يأخذ النقود، وهو يصرّ على مقابلتك. في عينيه ما لم أره من قبل في عينيّ أيّ إنسان.

– لينتظرني يا أمّ زيدان. قولي له إنّي سأقابله.

وانصرفت أمّ زيدان. وإذا بهشام ينهض عن كرسيّه ويهمّ باللّحاق بها. فأمسكه بيده وأطلب إليه البقاء في مكانه ريثما أقابل الشحّاذ وأعود. ولشدّ ما أدهشني أن أرى وجه الولد قد تبدّلت ملامحه فبدا وكأنّه في برقع من نور. ثمّ بدا لي أنّ جسمه كان يرتعش ارتعاشًا في منتهى اللطافة من أمّ رأسه حتّى أخمصيه، وأنّ عينيه كانتا عينَي إنسان ذاهل عن كلّ شيء – حتّى عن نفسه.

مضيت إلى حيث الشحّاذ. وقد خطر لي، وأنا في طريقي إليه، أنّ الرجل لم يقبل النقود من أمّ زيدان لأنّها كانت دون ما يتوقّعه من بيت تبدو عليه دلائل البحبوحة. لذلك اقتربت منه وفي يدي ورقة الليرة. وعندما حاولت أن أناوله إيّاها خاطبني بصوت فيه من الهدوء والرزانة والوقار ما جعلني أخجل من نفسي. قال:

– ردّها إلى جيبك.

قلت بشيء من الارتباك:

– أتراها قليلة؟

فجاءني جوابه:

– بل هي أكثر من الكثير، وأقلّ من القليل.

– وماذا تعني؟

– أعني أنّها كلّ شيء لِمن كان مثلك. ولا شيء لِمن كان مثلي. وأنا ما من أجلها جئتك.

– من أجل ماذا إذًا؟

– من أجلك وأجل هشام.

وما أدري لماذا أحسستني في تلك اللحظة كتابًا مفتوحًا أمام عينيّ الرجل، ووجدتني بين يديه وكأنّني الطفل بين يديّ أمّه. فما بقيت أدري كيف أخاطبه وبماذا. فمن أين عرفني وعرف ابني؟ وماذا جاء به إلينا؟ وأيّ شيء جاء يفعله في سبيلنا؟ ولا أذكر أنّي أبصرت له وجهًا، أو سمعت له صوتًا في حياتي من قبل.

وأنا في حيرتي إذا بهشام يشدّني من كمّي ليهمس في أذني: «هذا هو يا بابا. هذا هو». فأزداد حيرة فوق حيرة. فماذا جاء بالصبيّ من المكتبة إلى حيث كنت واقفًا خارج الباب مع الرجل؟ والمكتبة بعيدة عن الباب الخارجيّ فلم يكن من الممكن لهشام أن يسمعنا أو أن يرانا. وماذا عناه هشام بقوله: «هذا هو. هذا هو»؟ ومَن هو؟ إنّ لساني ليأبَى أن يتحرّك.

إلّا أنّ الرجل لم يلبث أن حلّ عقدة لساني بسؤاله:

– ألا تسمح بالدخول؟

– أكيد... أكيد. تفضّل. تفضّل...

ونحن في طريقنا إلى «الصالون» أوقفني هشام هنيهة ليهمس ثانية في أذني: «هذا هو يا بابا. هذه هي جبّته وعمامته. وهذه هي لحيته. وهذا هو صوته. وهاتان هما عيناه». فتذكّرت ما قصّه عليّ منذ ساعة وبعض الساعة عن الرجل الذي أهدى إليه في الحلم نجمة الصبح. فلم أزدد سوى ارتباك في ارتباك.

ما إن جلسنا حتّى التفت الرجل إلى هشام وقال:

– اسمح لي يا هشام بخلوة مع والدك.

وللحال نهض هشام وانصرف عنّا. وكنت أودّ لو أنّه لم ينصرف. فقد أخذت أشعر بقلق ورهبة في حضرة الرجل الغريب. وكأنّ الرجل أحسّ ما أُحسّه فبادرني بقوله:

– فيم اضطرابك؟ ليطمئنّ بالك. فالذي يحدّثك لا يريد لك إلّا الخير.

قلت، وقد ردّت كلمات الرجل ونبراته ونظراته الطمأنينة إلى نفسي:

– قد يكون اضطرابي دهشة لا اضطرابًا.

– وماذا يدهشك؟

– كلماتك – حركاتك – نظراتك – قيافتك، ثمّ قدومك إلينا في هذه الساعة، ثمّ مخاطبتك لهشام باسمه كأنّك تعرفه من زمان، في حين أنّه لا يعرفك ولا أبصرك من قبل – كلّ ذلك يثير دهشتي.

– أواثق أنت من أنّ هشامًا لم يبصرني من قبل؟

– بل قال إنّه أبصرك في المنام.

– وما الفرق بين ما نبصره في المنام وما نبصره في اليقظة؟

– الفرق أنّ ما نبصره في المنام أوهام وأضغاث أحلام، وما نبصره في اليقظة حقائق محسوسة، ملموسة.

– أليست حياتك في المنام امتدادًا لحياتك في اليقظة؟

– بلى.

– فكيف لحياتك أن يكون بعضها وهمًا وبعضها حقيقة؟ وكيف لك أن تعرف أين تنتهي الحقيقة وأين يبتدئ الوهم، ما دامت حياتك حبلًا موصولًا، والخيوط التي فُتل منها ذلك الحبل خيوطًا لا انقطاع فيها؟

– سؤال محيّر.

– بل لا مجال للحيرة. إن يكن ما تحياه في المنام وهمًا فما تحياه في اليقظة وهم كذلك. إن يكن ما تحياه في اليقظة حقيقة فما تحياه في المنام حقيقة كذلك. وكيف أبصرني هشام في المنام؟

– كما أنت بالتمام، بجبّتك الزرقاء، وعمامتك الزرقاء، ولحيتك البيضاء، وقامتك الفارعة، وعينيك الواسعتين، والنور الدافئ، الهادئ المنطلق منهما.

– إذن كان توافُق عجيب بين منام هشام ويقظته.

– أجل. توافُق مدهش. وهو توافُق لا يحصل إلّا في النادر من الأحوال.

– وإلّا مع النادر من النساء والرجال.

– إذن ولدي هشام نادر بين الرجال.

– ولذلك تراني الآن في بيتك.

– ماذا تعني؟

– أما أخبرك هشام أكثر من أنّه رآني في المنام؟

– بل أخبرني أنّك أنقذته من سرداب مظلم ثمّ تناولت نجمة الصبح وعلّقتها على صدره كما يعلَّق الوسام.

وتوقّف الرجل عن الكلام فتوقّفت. وطال سكوتنا فأزعجني السكوت. ورحت أشعر بأنّني في حضرة إنسان ولا كالناس. ففي صوته، وفي كلماته، وفي وجهه وحركاته من الثقة بالنفس ما يوحي بأنّه يعيش خارج الدنيا التي نعيش فيها. أو بالأحرى أنّه يعيش في هذه الدنيا وفي دنيوات أخرى شاسعات، قاصيات. وبدا لي أنّ في نظره أشعّة تخترق الأشياء، وتهتك الستائر الظاهرة والخفيّة التي يتستّر بها الناس بعضهم من بعض، وحتّى عن أنفسهم. وتجمهرت في رأسي أسئلة كثيرة كنت أودُّ طرحها عليه – أسئلة عن حياتي الخاصّة، وعن «اليوم الأخير»، وعن هشام، وعن رؤيا وهل تعود أم لا تعود، وغيرها، وغيرها. إلّا أنّني تهيّبت الخوض معه في أحاديث قد تفضح جهلي، وقد لا تهمّه بكثير أو بقليل. وآثرت أن يكون هو البادئ في الحديث عن المهمّة التي من أجلها جاء. وبغتة بادرني الرجل بقوله:

– تريد أن تعرف من أنا، ما اسمي، ومن أين جئت، ولماذا جئت.

فانتفضت لأنّ الذي بادرني به هو عين الذي كان يجول في خاطري. فقلت متلعثمًا:

– أجل. ما اسمك؟ ومن أين؟ ولماذا؟

– وأيّ قيمة للأسماء – أسماء الأشخاص والأمكنة؟

– إنّها تسهّل التعارف والتعامل بين الناس.

– لن يكون بيننا تعامل تجاريّ، أو ماليّ، أو قانونيّ، أو بريديّ، أو أيّ نوع من أنواع التعامل المألوف بين الناس. والاحتكاك الذي يجري بيننا الآن ليس في حاجة إلى بطاقة هوّيّة. فحسبك أن تبصرني وتسمعني، وحسبي أن أبصرك وأسمعك. وإن لم يكن بدّ من اسم تدعوني به فادعني «اللّامُسمّى».

– ها أنت دعوت ولدي باسمه – هشام.

– لأنّك لا تعرفه بغير اسمه. ولأنّك عوّدته أن لا يستجيب إلّا إذا دعوته باسمه. وهشام الذي أعرفه هو غير هشام الذي تعرفه.

– ألعلّك تعرفه خيرًا منّي وهو ولدي وفلذة من كبدي؟

– ذلك هو الحدّ الذي تنتهي عنده معرفتك لهشام وصلتك بهشام: إنّه وُلد من صلبك فهو ابنك، وأنت تملك حقّ التصرّف بحياته وبمستقبله.

– وأيّ غرابة في ذلك؟ أليس أنّي أحبّه محبّة لا يمكن لغيري أن يحبّه بمثلها؟ أليس أنّي أتمنّى له من الخير ما ليس من المعقول أن يتمنّاه له أحد سواي؟

– ينبجس النبع من الجبل فيروي أراضي كثيرة إلّا الجبل. وينطلق النور من أعلى المنارة فينير أرجاء واسعة إلّا المنارة. فلا الجبل يوجّه النبع، ولا المنارة توجّه النور. وحسب الجبل أن يُقال فيه إنّه منبَجَس النبع. وحسب المنارة أن يقال فيها إنّها منطلَق النور.

– لست أفهم إلى ماذا ترمي.

– أريدك أن تفهم أنّ هشامًا، وإن وُلد منك، ليس لك.

– ولِمن؟

– للعالم.

– وما شأن العالم من ولد عاش ثمانية عشر عامًا كسيحًا ومعقود اللسان فلم تُحلّ عقدة ساقيه ولسانه إلّا اليوم؟ وما شأنه من العالم؟

– لو كنت تعرف مَن هو لَما سألت هذا السؤال.

– ألعلّك تعرف عن ولدي فوق ما أعرف؟

– بالطبع. ولولا ذلك لَما رأيتني اليوم في بيتك.

– ومن أين عرفت ما عرفت عن هشام؟

– من حيث لا يبلغ سمعك ولا بصرك.

– ولماذا اهتمامك بهشام؟

– لأنّه بصير بين عميان.

– ومَن هم العميان؟ أنا؟

– هم الناس في مشارق الأرض ومغاربها. وأنت منهم.

– دونما استثناء؟

– وهل خلا أيّ تعميم من الاستثناء؟ لو لم تعرف الأرض بعض المبصرين من حين إلى حين لما كانت غير مأوى للعميان والمجانين.

– وكيف لهشام أن يكون أصفى بصرًا منّي وأنا رجل واسع الثقافة وهو صبيّ جاهل؟

– ربّ جاهل كان أعلم من ألف عالم. العلم في القلب لا في الكتاب.

– والعقل؟

– كلّما اتّسع القلب وامتدّ ضاق العقل وتقلّص. ولو أنّ عقلك لم يكن دليلًا أعمى لك لما قادك إلى ما أنت فيه الآن من بلبلة.

– ومن أدراك أنّي في بلبلة؟

– أليس أنّك تودّع يومك الأخير فيؤلمك الوداع لأنّك لا تدري ماذا تودّع وماذا تستقبل؟ ولو دريت أنّك تودّع ذاتك الميتة لتستقبل ذاتك الحيّة لما كانت بلبلتك، ولما آلمك الوداع.

عندها أيقنت أنّني في حضرة ساحر كبير. فتملّكني خوف عظيم. فمن أين جاءه العلم بأنّني أودّع «اليوم الأخير»؟ وكاد لساني يجمد في فمي لولا ذلك الإشعاع المؤنس، الهادئ الذي ما انفكّ يتدفّق عليّ من وجه الرجل ومن عينيه بالأخصّ. فقد كان يتكلّم وكأنّ الكلمات تأتيه عفوًا دون تفكير. أو هي تأتيه من مصدر غير الفكر. لذلك ما لبثت أن تشجّعت فتابعت الحديث:

– يبدو أنّك كنت بجانبي ساعة هتف الهاتف بي عند نصف الليل: «قم ودّع اليوم الأخير».

– لم أكن بجانبك. ولكنّني كنت الهاتف.

كدت أقفز عن كرسيّي، وأنتف شعري، أو أضرب الحائط برأسي. وما بقيت أدري كيف أتصرّف مع هذا الرجل العجيب، وبماذا أكلّمه. والشعور الذي تولّاني هو أن أرتمي على قدميه، وأطوّقهما بذراعيّ، ثمّ أشبعهما تقبيلًا، ثمّ أضرع إليه بأن لا يبرح مكانه حتّى يكشح عنّي الغيمة الرهيبة التي كانت تكتنفني من كلّ جانب فتكاد تضيّق عليّ أنفاسي. كنت أودّ أن يفتح لي جميع الأبواب الموصدة في وجهي: لماذا أنا – أنا، ولست غير ما أنا؟ لماذا هجرتني زوجتي، وهل تعود؟ ولماذا وُلد هشام كما وُلد ثمّ حلّ به اليوم ما حلّ فتبدّل إنسانًا جديدًا؟ وماذا عناه بقوله إنّ هشامًا بصير بين عميان؟ وما معنى «اليوم الأخير»؟ ولماذا خوفي من الموت؟ لقد بدأت أشعر أنّ الرجل لا يخفاه شيء من أمري. ولعلّه لا يخفاه شيء من أمر غيري كذلك.

إلّا أنّ الرجل لم يفسح لي المجال لشيء ممّا كان يدور في خاطري، إذ التفت إليّ بكلّ بساطة وقال:

– والآن أرجوك أن تسمح لي بخلوة مع هشام.

فأذعنت لمشيئته وكأنّني بين يديه ولد صغير. ثمّ جئته بهشام وانصرفت عنهما.

الساعة الثالثة عشرة

لم أدرِ كيف غادر الرجل البيت ومتى. فهشام في ذهول عنّي وعن كلّ ما حواليه. بل إنّه يبدو كما لو كان في ذهول عن نفسه. وهو لا ينطق بكلمة. حتّى كأنّ العقدة عادت إلى لسانه. وكنت أجزم بذلك لولا الطمأنينة العجيبة البادية على وجهه.

وأنا في حيرتي إذا بمساعدي في الجامعة يأتيني مستفسرًا عن صحّتي الغالية:

– شغلت بالنا يا دكتور. سلامتك. سلامتك. أرجو أن تكون قد تحسّنت الآن.

– أحسن. أحسن والحمد لله.

– لعلّها «تشويبة». لقد جاءنا الحرّ دفعة واحدة، فارتفعت الحرارة إلى الخامسة والثلاثين. شيء غير مألوف في مثل هذا الفصل من السنة. ألا تظنّ أنها التجارب الذرّيّة تتلاعب بالطقس إلى هذا الحدّ؟ ذلك ما يعتقده الكثير من الناس – حتّى العلماء.

– مَن يدري؟ كلّ شيء ممكن. كلّ شيء ممكن. وعلى الأخصّ في هذا الزمان.

– هذا زمان العجائب والغرائب. ومن أعجب عجائبه وأغرب غرائبه أن يصبح رجل كالدكتور فريد شوفان رئيسًا لجامعة محترمة كجامعتنا.

– الدكتور فريد؟!

– نعم. نعم. الدكتور شوفان لا غيره.

– ومتى أُعلن النبأ؟ اليوم؟

– قبل ساعة بالتمام. لقد مضت سنة على وفاة الرئيس السابق – رحمات الله على روحه الطيّبة – وأهل الجامعة يتكهّنون عمّن عساه يكون رئيسهم الجديد. ولم يخطر في بال أيّ منهم أنّ اختيار العمدة سيقع على الدكتور فريد. فالرجل يكاد يكون نكرة من النكرات. والمنصب لا يليق إلّا بك يا دكتور. ذلك ليس رأيي وحدي بل رأي الأكثريّة الساحقة من أساتذة الجامعة وطلّابها.

كنت أعرف عن محدّثي أنّه يتقن فنّ المجاملة والمداهنة والمدالسة حيثما اعتقد أنها تعود عليه بالنفع. فقد كان يهمّه أن أبقى راضيًا عنه. وكان يتمنّى لو استقيل أو أموت لعلّه يحلّ محلّي في رئاسة دائرة الفلسفة. ولكنّني تظاهرت كما لو كنت أجهل ذلك فقلت بشيء من الخبث:

– شكرًا لك على حسن ظنّك بي يا أستاذ.

– لا داعي للشكر. الحقيقة يجب أن تُقال. أنت الرجل الوحيد عندنا يا دكتور الذي يملك جميع المؤهّلات لرئاسة الجامعة: علم واسع، خلق نبيل، عزم وحزم، عدل وإنصاف، طلاقة في اللسان وفي القلم. لا، لا. الحقّ يجب أن يُقال.

تذكّرت ما دار بيني وبين الرجل الغريب قبل دقائق فبدوت لنفسي كما لو كنت دمية مهشّمة مطروحة على الأرض، وبدا لي مساعدي الجالس قبالتي كما لو كان حشرة حقيرة تحاول نهش تلك الدمية. ولأنّني لم أجد في نفسي الجرأة على البوح بشيء من ذلك، أو على الصمت في الأقلّ، عدت فقلت للرجل:

– ما قولك يا أستاذ لو أنّ جامعتنا، وكلّ جامعة، بل وكلّ مدرسة في العالم أقفلت أبوابها؟

كهكه الرجل كهكهة بلهاء عندما سمع سؤالي، وشاعت الحيرة في عينيه وتقاسيم وجهه. فقد كان يعرف أنّني رجل يميل إلى الجدّ، وقطّ لم يسبق لي أن مازحته أو مازحت سواه في شيء. لذلك ارتبك ولم يدرِ بماذا يجيب. إلّا أنّه بعد تردّد، عاد فقال:

– سؤال غريب يا دكتور. وغريب جدًّا من رجل مثلك. أنت تمزح من غير شكّ. هه. هه.

– لا، لست أمزح. ما قولك لو أقفلت أبوابها جميع المدارس في العالم؟

– لو جاءني هذا السؤال من رجل غيرك لما دهشت. أمّا أن يأتيني من رجل مثلك أفنى حياته في الدرس والتدريس فذلك منتهى العجب. نعم. منتهى العجب.

– وأين هو وجه العجب؟ ألم يكن زمان لم يكن فيه مدارس؟

– تريد أن تعود بنا القهقرى – إلى العصر الحجريّ والعصور التي قبل التاريخ؟

– وما أدراك أنّني لا أدفع بك إلى الأمام؟

– هه. هه. أنت تمزح من غير شكّ، وإن قلت لي إنّك لا تمزح. نحن نمشي إلى الأمام لا إلى الوراء.

– وما دليلك أنّك تمشي إلى الأمام لا إلى الوراء؟

– دليلي؟! وهل النور في حاجة إلى دليل؟ دليلي هذه المدنيّة وما جاءتنا به من فتوحات مدهشة بأصنافها. في الاقتصاد. في التربية. في كلّ شيء. نعم. في كلّ شيء. إنّ ما نعمله اليوم ليبدو معجزات بالنسبة لما كان عليه أسلافنا.

– مثلًا.

– مثلًا. لقد بدأنا نغزو الفضاء الأوسع. وقريبًا يكون لنا موطئ قدم في القمر، والمرّيخ، والزهرة وغيرها من الكواكب.

– ومن هم الذين سيطأون أديم القمر والمرّيخ والزهرة وغيرها؟ أليسوا بشرًا مثلي ومثلك؟

– بالطبع.

– وهل إذا بلغ الناس القمر وغيره من الكواكب سيتبدّلون غير الناس؟ هل تتغيّر طبائعهم فلا يولدون من ذكر وأنثى، ولا يجوعون ويعطشون، ولا يحبّون ويكرهون، ولا يحسدون ويطمعون، ولا يتعبون ويستريحون، ولا ينامون ويستيقظون، ولا تتأكّلهم الرغبة في معرفة ما يجهلون، ولا يمرضون ويتوجّعون وفي النهاية يموتون؟

– بالطبع لا.

– إذن في أيّ جانب يكونون أحسن حالًا في القمر أو المرّيخ منهم على الأرض؟

– ولكنّهم، من غير شكّ، سيأتون بمعجزات فوق التي حقّقوها على الأرض حتّى الآن.

– وما هي المعجزات التي حقّقوها على الأرض حتّى الآن؟

– إنّها لأكثر من أن تحصى. أم أنت تمتحنني وتهزأ بي يا دكتور؟

– معاذ الله. إنّي جادّ في ما أسأل.

– ليست معجزات المدنيّة بخافية حتّى على البسطاء من الناس. فكيف برجل مثلك؟

– لعلّني أبسط من البسطاء.

– من أحدث تلك المعجزات ما قرأته عن جرّاح استطاع أن يستبدل بقلب مريض قلبًا سليمًا انتزعه من رجل مات في حادث سيّارة. وهكذا ردّ الحياة إلى إنسان كان مقضيًّا عليه بالموت.

– ولكنّ صاحب القلب السليم مات في حادث سيّارة، وصاحب القلب العليل سيموت بعد أيّام، أو بعد سنين، برغم أنّه بات يملك قلبًا سليمًا. أليس كذلك؟

– نعم. نعم. ذاك أمر طبيعيّ للغاية.

– إذن ما نفع صاحب القلب العليل من قلبه الجديد السليم؟

– يكفيه أن تطول حياته بضعة أيام، أو بضعة أعوام.

– أليس أنّه سيمضي يملأ قلبه الجديد بمثل ما كان يملأ به القديم من شهوات وهواجس وهموم وغموم؟

– تعني أنّ طول العمر وقصره، في نظرك، سيّان؟ وأنّ الذي يعيش في الكهف كالذي يعيش في القصر؟ والذي يمشي ثلاثة أميال في الساعة كالذي يقطع في الساعة ألف ميل؟ والذي لا علم له بالحروف والأرقام كالذي يفلسف الكون ويخترع من الآلات الحاسبة ما يقف العقل مشدوهًا أمام سرعتها ودقّتها في حلّ أعقد المشكلات الحسابيّة؟ إذا كان ذلك ما تعنيه يا دكتور فلا تؤاخذني،

لأنّني لا أستطيع أن أوافقك عليه. قد تكون للمدنيّة العجيبة التي شدناها بعض السيّئات. ولكنّ حسناتها أكثر من سيّئاتها بكثير، بكثير.

– الذي أعنيه يا أستاذ هو أنّ الإنسان لا نفع له من مدنيّاته؛ من علومه وفنونه؛ من فلسفاته ودياناته؛ من عمره طال أم قصر ما دام زمامه في يدٍ، أو في أيدٍ، غير يده.

– ألا ترى أنّ العلم قد وسّع كثيرًا في سلطان الإنسان على الطبيعة؟

– إذا هو وسّع في جانب فقد ضيّق في جوانب. فها هو ينطلق بنا إلى عوالم غير الأرض قبل أن يمكّن لنا من الأرض. فنحن، وقد طال عهدنا بالأرض ملايين السنين، لا نعرف منها حتّى قشرتها. ونحن، حتّى الساعة، لم نتعلّم كيف نستثمر قشرة الأرض من غير أن نتنازع عليها ولا نزاع الكواسر على جيفة، ومن غير أن نحنّيها بدمائنا، ونروّيها بدموعنا، ونفرشها بمآثمنا ومخازينا. ونحن لن نفعل غير ذلك في أيّ كوكب نستوطنه غير الأرض. السرّ في السكّان يا أستاذ وليس في المكان. السرّ في الإنسان، وليس في الأرض، أو في القمر، أو في المرّيخ، أو أيّ كوكب في الفضاء. على الإنسان أن يملك زمام الإنسان أوّلًا قبل أن يُتاح له أن يملك زمام أيّ شيء في الكون.

– ماذا الذي تعنيه بقولك إنّ الإنسان يجب أن يملك زمام الإنسان أوّلًا؟

– أعني أن يتصرّف بحياته تصرّف السيّد المطلق بملكه. فإذا شاء أن يكون له جسد كان له الجسد الذي يشاء، وكان ربّ ذلك الجسد لا يشاركه فيه مشارك، ولا ينازعه فيه منازع. فلا يجوع ويعطش إلّا إذا هو شاء له أن يجوع ويعطش. ولا يأكل ويشرب إلّا مما يختاره له من مأكل ومشرب. ولا يتعب ويستريح وينام ويستيقظ إلّا إذا هو أراد له أن يتعب ويستريح، وأن ينام ويستيقظ. إذا شاءه ذكرًا كان ذكرًا، أو أنثى كان أنثى، أو لا ذكرًا ولا أنثى كان لا ذكرًا ولا أنثى. وإذا شاء تركه لساعة أو لعام ثمّ العودة إليه بعد ساعة أو بعد عام كان له ما شاء.

وعلى الإجمال فالإنسان لن يسيطر على شيء في الطبيعة قبل أن يسيطر على جسده الذي هو ألصق شيء به من كلّ ما في الطبيعة. وهو لن يسيطر على جسده قبل أن يسيطر على فكره الذي يقود جسده. فيجمّد ذلك الفكر عندما يشاء، ويطلقه ساعة يشاء، ويسيّره في الطريق الذي يشاء. ثمّ لا بدّ له من السيطرة المطلقة على قلبه كذلك. فلا يشتهي إلّا ما هو واثق منتهى الثقة من قدرته على الحصول عليه، ومن أنّه لخيره لا لويله، ولا يرضى بالهزيمة إذا فاتته الغنيمة.

أجل. ما لم يسيطر الإنسان على الإنسان – على جسده وفكره وقلبه – فلن يسيطر على الطبيعة. وما لم يسيطر على الطبيعة فهو عبد للطبيعة. والعبد عبد أسَكن الأرض أم سكن المرّيخ وزحل. والعبد عبد، أطار في الجوّ أم مشى على الأرض. والعبد عبد، أكان دكتورًا في الفلسفة أم منظّف أحذية يجهل القراءة والكتابة.

– لكأنّك تريد للإنسان أن يصبح إلهًا.

– وإذا هو لم يصبح إلهًا فأيّ معنى لحياته؟ ولماذا لا يكون الإنسان إلهًا؟ أليس يسعدك، وأنت أستاذ في جامعة، أن يصبح طلّابك في مستواك؟ أليس يسعد أيّ أبٍ أن ينمو ابنه حتّى يضاهيه في القدرة البدنيّة والعقلية؟ والقدرة التي ندعوها الله لا معنى لوجودها إذا هي لم تكن المعلّم الأوّل والأكبر لكلّ ما في الوجود، إنّها المعلّم والأب والأمّ في آنٍ معًا. وإذا هي لم تعمل على رفع طلّابها وأبنائها إلى مستواها فقد خانت رسالتها – رسالة المعلّم ورسالة الأب والأم.

– لو سمع هذا الكلام رجل علمٍ لرماك بالجهل والرجعيّة. ولو سمعه رجل دين لرماك بالكفر والإلحاد.

– لذلك سألتك، وأعيد سؤالي: ما رأيك لو أقفلت جميع المدارس في العالم أبوابها؟ وأضيف الآن: ما رأيك لو أقفلت جميع المعابد في العالم أبوابها؟

– ما ذنب المدارس والمعابد؟

– ذنبها في أنّها تعلّم الإنسان أشياء وأشياء إلّا الشيء الوحيد الذي يمكِّنه من السيطرة على نفسه، وبالتالي على الطبيعة.

– وما هو ذلك الشيء؟

– هو معرفة الإنسان لنفسه. وتلك المعرفة لن تأتيه من المدرسة ولا من المعبد. وتأتيه من نفسه. ولقد أدركها أناس لم يدخلوا في حياتهم مدرسة أو معبدًا.

– اعذرني يا دكتور، اعذرني إذا أنا لم أستطع مسايرتك في ما تذهب إليه، لعلّه فوق إدراكي. أنت تعرف مقدار احترامي لك وإجلالي لعلمك. اعذرني، لقد أطلت المكوث، ولم يكن قصدي من زيارتي إلّا الاطمئنان عن صحّتك الغالية. وقد تطمأنت والحمد لله. وسأنقل إلى زملائك وطلّابك البشرى بعودتك إليهم غدًا إن شاء الله.

شعرت عندما ودّعني الرجل أنّه كان كمن يودّع رجلًا خولط في عقله. ومن أين كان له أن يعرف أنّني أودّع يومي الأخير؟ ويا ليتني سألته ماذا يكون شعوره، وكيف يكون تفكيره لو جاءه، مثلما جاءني، خبر بأن ساعاته على الأرض باتت لا تتجاوز عدد أصابع اليدين؟

كنت أعيد في ذاكرتي ما دار بيني وبين مساعدي من حوار، وأعجب لفكري كيف اتّجه بي في ذلك الاتجاه، عندما دخل عليّ هشام وهو يلوّح ببرقيّة في يده ويردّد وقد طفح وجهه بالبشر:

– برقيّة من الماما.

قلت وقد أدهشتني حركاته ونبراته:

– من الماما؟!

– نعم. من الماما.

– وهل فضضت البرقيّة؟

– لا.

– وكيف عرفت أنها من الماما؟

– عرفت. وعرفت مضمونها كذلك.

– وماذا فيها؟

– الماما عائدة إلينا الليلة.

– الليلة؟! هذا بعيد جدًّا يا هشام.

– بل قريب جدًّا. افتح البرقيّة.

وفتحت البرقيّة فإذا فيها: «أرجو أن تستقبلني الليلة في المطار الساعة الحادية عشرة. رؤيا».

أذهلني الخبر، وتعالت في الحال دقّات قلبي وتسارعت حتّى إنّني رحت أسمعها بوضوح، فكأنّها وقع أظلاف ظبي روّعه الذئب في الغابة. وأذهلني فوق ذلك بكثير أن يعرف هشام مضمون البرقيّة قبل فضّها. فسألته:

– وكيف عرفت مضمون البرقيّة؟

فأجابني بمنتهى البساطة:

– سمعته من فم الماما حالما تناولت البرقيّة من يد الساعي.

– سمعته من فم الماما وهي في سويسرا وأنت هنا؟! ما هذا الهذيان يا هشام؟

ما دريت ساعة نطقت بكلماتي الأخيرة أنّني جرحت الولد في الصميم إذ شككت في صدقه. أو هكذا تراءى لي. فلم يلبث هشام من بعدها أن انصرف عنّي دون أن ينبس بكلمة، وتركني في ضباب كثيف من الحيرة والارتباك.

في أيّ دنيا أنا؟ ما هذا الذي يجري في داخلي ومن حواليّ؟ من أين جاءتني الأفكار التي عبّرت عنها في حديثي مع مساعدي وقط لم تخطر من قبل لي في بال؟ وكيف لولد كهشام أن يسمع صوت أمّه عن بعد مئات الأميال دون أن يكون لأيّ جهاز بشريّ معروف دخل في الأمر؟ والولد لا يكذب. أفَمِن الممكن أن يملك في جانب من كيانه جهازًا أدقّ وألطف بكثير من الراديو ومن التلفون السلكيّ واللاسلكيّ؟ ولماذا لا أملك أنا مثل ذلك الجهاز؟ أم أنّني أملكه ولا أحسن استعماله؟ أم أنّني عطّلته بما ينبعث من فكري وقلبي، ولحمي ودمي، من ضجّة وتشويش (بارازيت)؟ وهل في استطاعتي أن أتخلّص من الضجّة والتشويش في داخلي؟ وكيف؟

أيّ كائن عجيب، رهيب هو الإنسان! إن يكن الله أبعد من متناول العقل فالإنسان كذلك أبعد من متناول العقل. وهو لن يجد طريقه إلى الله إلّا إذا وجد طريقه إلى نفسه. الإنسان طريق الإنسان إلى الله. والإنسان طريق الإنسان إلى الإنسان. فما أغباه يفتش عن الله وعن نفسه في غير نفسه.

ورؤيا...

أصحيح أنّها قادمة إلينا الليلة؟ وماذا وراء هذه العودة؟ ندم؟ توبة؟ إفلاس في الجيب والقلب؟ ضجر وتغيير مناخ؟ أم عطش إلى مناهل المحبّة الصافية بعد التمرّغ في مستنقعات الحبّ الأثيم؟ أرجو أن يصدق الافتراض الأخير.

رؤيا، رؤيا!.. إنّ اسمك لا يزال شهدًا في فمي برغم ما جرّعتنيه من علقم. أتلفّظ به فتسري قشعريرة حلوة في دمي. وينجلي بصري حتّى لأكاد أرى الله في كلّ ما أرى. ويُرهَف سمعي حتّى لأكاد أسمع الله في كلّ ما أسمع. ولكن... يا ليت لي أن أمحو السنة الأخيرة من حياتي. فلا تعذّبني صورتك بين ذراعين غير ذراعيّ، وفي فراش رجل غيري. بل يا ليت لي أن أسمو فوق هذه الـ«يا ليت». فأذكر أنّ جسدك وجسدي من التراب وإلى التراب. وأنّ التراب لا ينجّس التراب، ولا يشرّف التراب. يا ليت، يا ليت!

على أنّني أغتبط بعودتك يا رؤيا. وأحاول منذ الآن أن أقرأ ما في أساريرك وعينيك ساعة تقع عيناك على عينيّ، وساعة تلفّك ذراعاي، ويلتصق صدرك بصدري، فيدقّ قلبك في قلبي. لقاءَ تلك اللحظة – تلك اللحظة وحدها – أراني مستعدًّا أن أصفح عن كلّ شيء. بلى، بلى، عن كلّ شيء. فألف أهلًا، وألف سهلًا يا رؤيا!

لقد سلختني عن نفسي يا رؤيا. فنسيت أنّ هذا اليوم هو يومي الأخير. ومَن يدري أأعيش لأراك أم لا أعيش؟..

الساعة الرابعة عشرة

دعتنا أمّ زيدان لتناول الغداء، فلبّيت الدعوة بأسرع من طرفة الجفن. لأنّ الجوع أخذ يضجّ في معدتي إلى حدّ نسيت معه كلّ ما كان من أمري منذ منتصف الليل. فكأنّني ما سمعت الهاتف الذي سمعت، ولا فكّرت وأحسست ما فكّرت وأحسست، ولا واجهت من غريب الظروف والانفعالات والأشخاص ما واجهت. حتّى برقيّة رؤيا تقهقرت في ذهني إلى زاوية ثانية، مظلمة. إنّي أريد ان أملأ بطني أوّلًا. أمّا فكري وقلبي فليتنحّيا من طريق بطني.

وكانت أمّ زيدان قد أعدّت لنا ديكًا محمّرًا مع بعض الخضروات والتوابل والفاكهة. فما إن جلست إلى المائدة، وجلس هشام قبالتي، حتّى أخذت ألتهم ممّا أمامي بنهم ما بعده نهم وبي خشية أن لا أبقي منه شيئًا لهشام. إلّا أنّني ما ازدردت بعض اللقمات حتّى انكسرت حدّة جوعي وانقلبت إلى ما يشبه التقزّز. وعلى الأخصّ عندما التفتّ إلى هشام فإذا به لم يمسَّ الديك من قريب أو من بعيد، ثمّ إذا به يمسح شفتيه من بعد أن تناول ما يكاد لا يُذكر من الخضر والفاكهة لا غير. قلت للولد وقد رأيته يضع الفوطة من يده على المائدة:

– ما بالك يا هشام؟ ألعلّك اكتفيت؟

فأجابني بمنتهى الهدوء:

– اكتفيت يا بابا.

– ولكنّك لم تذق شيئًا من الديك.

– لن أذوق بعد اليوم لحم أيّ طير أو حيوان.

– ولماذا يا ابني، وحتّى أمس لم تكن تتورّع عن أكل اللحوم بأنواعها؟

– هكذا أُمرت.

– هكذا أُمرت؟! ومن الذي أمرك؟

– معلّمي.

– معلّمك؟! ومَن هو معلّمك؟

– هذا الذي جاءك قبل ساعة وظننته شحّاذًا.

– اللّامسمّى؟

– نعم. صاحب الجبّة الزرقاء، والعمامة الزرقاء، واللحية البيضاء. وقد شاء أن يدعو نفسه «اللامسمّى».

عندها عادت البركة التي اسمها الدكتور موسى العسكري تضطرب من جديد، فكأنّها البحر تسوطه الأنواء الهوج فتتلاطم أمواجه وترغي وتزبد. والجوع الذي كان قد هدّأ من أنوائها انقلب جوعًا من نوع آخر. فقد غادر «اللامسمّى» بيتنا دون أن أعرف شيئًا عنه وعمّا دار بينه وبين هشام في خلوتهما. وهشام من بعد تلك الخلوة لم يشأ – أو لم يستطع – أن يبوح لي بكلمة عن ذلك الرجل الغريب وعلاقته به. وها هو الآن يذكره فيثير فضولي من جديد، وإلى درجة لا أقوى معها على صرف فكري عنه.

– وكيف لهذا الرجل أن يأمرك فتطيعه وهو غريب عنك، وأنت غريب عنه؟

– قد يكون غريبًا عنك. أمّا عنّي فما هو بالغريب.

– وما هي القرابة التي بينه وبينك؟

– إنّها أقوى وأعتق من القرابة التي بينك وبيني.

– هشام!!

– نعم يا بابا.

– ما هذا الكلام؟ أم أنت تهذي؟

– لا هذيان في الأمر يا بابا.

– قل لي، ما دمت جادًّا، قل لي مَن هو وما شأنه معك؟

– إنّه الذي حلّ عقدة لساني وردّ الحركة إلى ساقيّ.

– ماذا تقول؟! إنها النسرينة. إنّها صلوات أبيك وأمّك، وصلوات أمّ زيدان. ولا دخل لهذا المشعوذ في الأمر.

– عيب عليك يا بابا أن تدعوه مشعوذًا وأنت تجهله. إنّه فوق كلّ الظنون والشبهات.

– ومن أين لك هذه الثقة العمياء به؟

– من عينيه. من صوته. من لمس يديه. من كلماته. من السلام الذي يشيعه في نفسي مجرّد قربي منه. من أنّه لا يعمل شيئًا ممّا يعمل في سبيل نفسه بل في سبيل الإنسان الذي ما يزال يجهل نفسه.

– وماذا كان غرضه من الخلوة بك؟

– لقد كشف لي ماضيّ وحاضري ومستقبلي. جاء ليهديني إلى نفسي كيما أهدي الغرباء عن نفوسهم إلى نفوسهم.

– ألعلّه هداك إلى نفسك؟

– لم يهدني. ولكنّه سيهديني.

– ومتى يهديك؟

– لست أدري. أمّا هو فيدري.

– وكيف يهديك إلى نفسك ونفسك معك في كلّ حين؟

– ذلك ما يعرفه هو وأجهله أنا.

– ألعلّك إذا اهتديت إلى نفسك اهتديت إلى كلّ شيء؟ فما بقي يعذّبك خير وشرّ، وولادة وموت؟

– هكذا قال لي. وأنا أصدّق قوله.

– ومتى اهتديت إلى نفسك أتعود إلى والدك فتهديه إلى نفسه؟

– متى اهتديت إلى نفسي لن تكون والدي وأكون ولدك. بل أكون معلّمك وتكون تلميذي.

– نعما المعلّم، وبئس التلميذ. هشام! هذا الرجل يزعجني. وأنا أريدك أن تحذره.

– وأيّ رجل تعني؟

– هذا اللامسمّى الذي يبدو أنّك استسلمت له بكلّيتك، وأنّك تحبّه فوق محبّتك لوالدك.

– وماذا يزعجك منه؟

– أما قال إنّه هو الذي حلّ عقدة لسانك وردّ الحركة إلى ساقيك؟

– وهل في ذلك ما يزعجك؟

– بل فيه ما يخيفني. فالذي يملك القدرة على الحلّ يملك القدرة على الربط كذلك. ألعلّه هو الذي ربط لسانك وساقيك؟ ولماذا؟ ومن ثمّ فقد قال لي إنّه الهاتف الذي هتف بي عند نصف الليل الفائت.

– وماذا قال لك؟

– دعني أبوح لك بالسرّ الذي ما برح يعذّبني منذ نصف الليل فاستلّ النوم من أجفاني، وبعثر أفكاري، فراحت في كلّ وادٍ تهيم، لا تجد ما تطمئنّ إليه وتستقرّ عليه. لقد قال لي: «قم ودّع اليوم الأخير».

– ولم يقل غير ذلك؟

– لا. لم يقل غير ذلك.

وبغتة تغيّرت ملامح الولد. فتبرقعت بما يشبه الحيرة، أو الحزن، عيناه ووجنتاه. وتبلّلت حدقتاه – أو هكذا تراءى لي. فأنّبت نفسي لأنّني بحتُ له بسرّي. وما كان لي أن أفعل ذلك فأعكّر عليه

صفاء نفسه الطاهرة. إنّه ولَد حسّاس إلى أقصى الحدود. وهو عندما سمع بأنّ هذا اليوم هو يوم والده الأخير شقّ عليه الأمر فتألّم، وبدا الألم على وجهه.

هكذا علّلت ما بدا لي كما لو كان حيرةً، أو حزنًا، في وجه هشام وفي عينيه الواسعتين، الهادئتين، الحالمتين. فانعصر قلبي شفقةً عليه وندامةً على ما بدر منّي، وكان من الخير لو لم يبدر. فما شأن الصبيّ بما قاله لي الهاتف عند انتصاف الليل؟ إنّه، وقد استردّ اليوم نعمة النطق والمشي، لأحقّ الناس بأن يستمتع بهذه النعمة صافية من كلّ كدر فلا ينغّصها عليه أيّ همّ.

إلّا أنّني كنت واهمًا فيما ذهبت إليه من تعليل. إذ أنّ الصبيّ لم يلبث أن التفت إليّ وقال، وكأنّه يفرّج عن نفسه بما يقول:

– من الشوق ما يحرق.

أذهلتني كلمات هشام، وأذهلني انتقاله المفاجئ من حديث كنّا فيه إلى حديث لم أفهم بدايته فما كان لي أن أعرف إلى أين ينتهي. وفتّشت عن معنى لكلمات الصبيّ فما اهتديت إلى أكثر من أنّه شاء أن يعبّر عن شوقه إلى والدته. قلت:

– أجل. من الشوق ما يحرق. وشوقك إلى والدتك هو من ذلك النوع. لا بأس. فليس يفصلك عنها الآن أكثر من تسع ساعات. وهذه ستمضي وكأنّها تسع دقائق. حتّى القرون تمضي وكأنّها دقيقة. بل كأنّها ثانية. ليس أبطأ من الوقت وليس أسرع منه في آن معًا.

ومن غير أن يرفع الصبيّ بصره إليّ قال وكأنّه يخاطب غيري:

– إنّه بطيء جدًّا عند مَن يرقب الخلاص.

– وأيّ خلاص تعني؟

– الخلاص الذي وعدني به أبي.

– أبوك؟! لست أذكر أنّي وعدتك بأيّ خلاص.

– أبي... أبي الآخر.

– أبوك الآخر؟! ما هذا الكلام يا هشام؟

– أبي الذي لا اسم له. أبي اللامسمّى.

– عدنا إلى الهذيان يا هشام؟ ما شأن هذا الغريب منك، وما شأنك منه؟ إنّ كلامك عنه ليجعلني أمقته. إنّه، كما يبدو لي، لم يأتنا إلّا ليقوّض أركان بيتنا. إنّه ما جاء إلّا ليسلخك عنّي. وأنت لحم من لحمي، وعظم من عظمي، ودم من دمي. والذي يسلخ الابن عن أبيه ماذا تسمّيه؟ مجرم. مجرم. مجرم.

انقبضت أسارير الولد وتلاصقت شفتاه فما تنفرجان عن كلمة. ولبثنا برهة صامتين إلى أن خطر لي أن أبدّد بعض ما في الجوّ من ثقل وكثافة.

– هشام! ماذا تعني لك كلمات من نوع: الكونغو. أنغولا. تنجنيقا. فورموزا. التيبت. فيتنام. كوبا. غواتيمالا. قنال بناما. قنال السويس. النقب. جدار برلين. البوسفور. الدردنيل. قطر. الكويت. الهلال الخصيب. الجغرافية؟

– لا شيء يا بابا.

– وكلمات من نوع: رأسماليّة. اشتراكيّة. شيوعيّة. ديموقراطيّة. أرستقراطيّة. بروليتاريا. ديكتاتوريّة. استعمار. استقلال. احتكار. تعاونيّة. إضراب. برلمان. وزارة. نيابة؟

– لا شيء.

– وكلمات من نوع: بورصة. بنك. قطع نادر. ميزان تجاريّ. تضخّم ماليّ. أسواق مفتوحة. أسواق مقفلة. جمرك. ضريبة مباشرة. ضريبة غير مباشرة. ضمان حياة. ضمان اجتماعيّ. سنّ التقاعد؟

– لا شيء.

– وكلمات من نوع: حضارة. مدنيّة. ثقافة. أفلاطونيّة. حلوليّة. وجوديّة. تكعيبيّ. تجريديّ. كلاسيكيّ. شعر موزون. شعر منثور. أحمر شفاه. أحمر أظافر. سينما. مسرح. تلفزيون. كرة السلّة. كرة المضرب. مصارعة الثيران. ملاكمة. كباريه. محششة. بيت الدعارة. الرقيق الأسود. الرقيق الأبيض؟

– لا شيء يا بابا.

– وأسماء من نوع: أتيلّا. جنكزخان. ذو القرنين. يوليوس قيصر. طارق بن زياد. نابوليون. هتلر. موسوليني. ستالين. تشرشل. ازنهور. لومومبا. تشومبي. سوكارنو. غاغارين. سوفانا فوما. فرانكو. سالازار؟

– لا شيء.

– وأرقام من نوع: مائة ميغا طنّ. مليار دولار. مليون سنة ضوئيّة. ملايين العوالم الشمسيّة؟

– لا شيء.

– وهل سمعت يا ابني بهوميروس وسوفوكليس وفيدياس وبوتيتشلّي وميكالانجلو وروفائيل ودافنشي ورمبرانت وموتسارت وفاغنر وبتهوفن وشوبرت وتشيكوفسكي وشكسبير وغيته ونيتشه وتولستوي ودوستويفسكي؟

– لا. لم أسمع.

– ولا أنت سمعت بالإلكترون والبروتون والنيوترون؟ ولا بالأورانيوم والبلوتونيوم؟ ولا بالسكيزوفرينيا؟

– لا. لم أسمع بشيء من ذلك.

– والذي ذكرته لك ليس غير نقطة من بحر الأمور التي تجهلها. وأنت، مع ذلك، ترجو الخلاص! هكذا يغريك ذلك اللامسمّى الذي بتّ تعتبره بمثابة أبيك، أو أغلى من ابيك. إنّه يخدعك يا ابني.

– أبي لا يخدع.

– أرجو أن تكون على حقّ. ولكن حذار يا ابني حذار.

كنت أحذّر الصبيّ وفي داخلي صوت يسخر بي ويقول: «لعلّك يا دكتور أحوج إلى تحذير ابنك منه إلى تحذيرك. فما أدراك أنّ الخلاص أو الانعتاق الذي يرجوه ابنك على يد اللامسمّى ليس في غنًى عن جميع ما ذكرت – وما لم تذكر – من مقوّمات المدنيّة؟ بل ما أدراك أنّ هذه الأمور كلّها ليست أغلالًا لعنقك، وقيودًا ليديك، وأصفادًا لرجليك، ودياجير في فكرك وقلبك؟ فهي لو لم تكن كذلك بالنسبة إليك لما كنت تعاني ما تعانيه الآن من اضطراب لا لسبب إلّا لأنّك تعيش يومك الأخير. وهناك الذين انعتقوا دون أن يعرفوا حتّى اليسير، مما تعرف.»

الساعة الخامسة عشرة

بلغت ذلك الحدّ في حديثي مع هشام عندما دخلت علينا أمّ زيدان لتعلن أنّ فرحات جاءني من قِبل والده في أمر خطير للغاية، وسرّيّ للغاية.

توجّست خيفة من الخبر. فوالد فرحات هو القروي الطيّب الذي وكلت إليه أمر العناية ببستان فاكهة في الجبال اشتريناه قبل عامين ليكون مصيفًا للعائلة. ولقد كانت رؤيا أكثرنا اغتباطًا به. فمركزه جميل، وفاكهته لذيذة، وهواؤه منعش، ومياهه غزيرة وباردة. وهو على سفر ساعة بالسيارة من هنا. وأبو فرحات يعتني به فوق عنايته بنفسه وبأولاده: إنّه مزارع مثاليّ بنشاطه، ودرايته، وأمانته، ودماثه أخلاقه. وحتّى اليوم لم يسبّب لي أقلّ انزعاج. فما هو الأمر الخطير السرّي الذي جاءني ابنه من اجله؟ ألعلّه تورّط في مشكلة من المشكلات مع بعض الجيران أو غير الجيران؟ ولكنّه أبعد ما يكون عن إثارة المشكلات. وله طريقة عجيبة في حلّها قبل أن يستفحل أمرها، بل قبل أن تغدو مشكلات. ألعلّه في ضيق من أيّ نوع؟

وفرحات، وهو البكر بين ثلاثة إخوة، وَلَد ما أظنّه تجاوز الخامسة عشرة من عمره. يشعّ الذكاء في عينيه، ويبدو الإقدام في حركاته، وتتجسّد الثقة بالنفس في ملامح وجهه وفي نبراته. تقدّمت منه فبادرني بالسلام ثمّ قال:

– أبي يسلّم عليك ويرجوك أن تصعد إليه في الحال. وأن تصعد إليه وحدك.

– ألعلّكم جميعكم بخير؟

– بخير والحمد لله.

– ألم يقل لك أبوك ماذا يريد منّي؟

– لا. قال لأمر مهمّ جدًّا. وأمرني أن لا أخبر أحدًا عن دعوته لك.

ركبنا السيّارة، أنا وفرحات، وانطلقنا نحو البستان في الجبال. وكم كنت أودّ لو يكون هشام رفيقنا في تلك الرحلة. فالمسكين لم يبرح البيت منذ أن هجرت أمّه البيت. ولكنّ أبا فرحات أوصى

بأن أصعد إليه وحدي. فلا بدّ من الامتثال لوصيّته وإن فاتني القصد منها. وأنا أعرف أنّ أبا فرحات لا يرسل الكلام جزافًا، ولا يضفي على أيّ حدث فوق ما يستحقّ من الأهميّة، ولا يستكبر إلّا الكبير من الأمور. ولو لم يكن الأمر الذي استدعاني من أجله كبيرًا حقًّا لَما استدعاني. فماذا عساه أن يكون؟

لله ما أكرم الطبيعة – حتّى حيث تبدو شحيحة، عابسة، كالحة كما هي الحال في الصحاري المحرقات والبراري القاحلات. فكيف بها إذا هي كانت طبيعة جبالٍ تتّكئ على رؤوسها السماء، وتتراقص على جبهاتها اغرب الظلال والأضواء، وتتهامس في وهادها أعذب النغمات والنسمات، وتكتسي أضالعها بالأخضر من الأشجار، وبالأحمر والأصفر والأزرق والخمريّ والورديّ والليلكيّ من الأزهار، وتترقرق على أديمها مياه الينابيع والجداول والسواقي والأنهار، وتتناغى على صخورها وعلى أفانين أشجارها الأطيار؟ اللهمّ أن يبصرها المبصرون بأكثر من العيون، وأن يسمعها السامعون بأكثر من الآذان، وأن يشمّها الشامّون بأكثر من الأنوف.

وأغلب الظنّ أنّني، وأنا أتوقّل الجبل بسيارتي، كنت أبصر بأكثر من عيني، وأسمع بأكثر من أذني، وأشمّ بأكثر من أنفي. وإلّا فمن أين لي هذا الشعور بالامتداد إلى ما لا نهاية؟ فكأنّني في كلّ ما هو تحتي وفوقي، وأمامي وخلفي، وعن يميني وعن يساري. بل كأنّني في كلّ ما هو أبعد من بصري وسمعي. فأنا لست بعدُ موسى العسكري الذي يدرّس الفلسفة في جامعة، والذي هجرته زوجته منذ عام وستعود إليه بعد ساعات، والذي له ولد كان حتّى صباح اليوم معقود اللسان والرجلين فانحلّت العقدة في رجليه ولسانه، والذي يودّع يومه الأخير.

وعندما أحاول ان أفسّر هذا التبدّل العجيب في شعوري لا أجد ما أقوله لنفسي غير أنّني كنت في قفص فأفلتّ من ذلك القفص.

بيتي قفص. جسدي قفص. فكري قفص. مسؤوليّاتي الزوجيّة والاجتماعيّة قفص. وظيفتي قفص. المعلومات التي جمعتها من الكتب ومن الناس عن الكون وعن الناس – قفص. نفسي التي تأبَى التنازل عن نفسها – قفص. كلّ ما يحيا به الناس من يوم ليوم – قفص. ما عدا الشوق إلى المدى – إلى الانطلاق – إلى الانعتاق. ذلك الشوق هو بشير الحرّية والدليل إلى قدس أقداسها.

المدى! المدى الذي لا ينتهي إلى حدّ – إنّي أتوق إليه بكلّ جوارحي. ويلوح لي أنّ الطبيعة وحدها تستطيع أن تثير فينا التوق إلى ذلك المدى. ففي الطبيعة يشعر القلب أنّ وراء مجال البصر والسمع والشمّ والذوق واللمس مجالات. ووراء مجال الفكر مجالات ومجالات لا ينتهي أيّ منها عند حدّ.

في ذلك المدى اللامتناهي يضيع موسى العسكري. تضيع نفسه الصغيرة، المقفوصة، المحدودة ليجد بدلًا منها نفسه الكبيرة، الحرّة، التي لا تُحدّ. وها هو الآن يعيش لحظات مع الطبيعة فيها من

نشوة الانعتاق العابرة ما يبشّره بنشوة دائمة. أجل. إنّ موسى العسكري لن يجد نفسه التي بغير حدود إلّا إذا هو أضاع نفسه التي تخنقها الحدود.

ولكن سرعان ما تبخّرت نشوتي بعد أن أدركت البستان ووقفت من أبي فرحات على سرّ «الأمر المهمّ جدًّا» الذي من أجله أرسل في طلبي. فقد استقبلني الرجل بوجه يطفح بشرًا، ثمّ راح يعتذر بعبارات كلّها صدق ورقّة عن الانزعاج الذي سبّبه لي. ولم ينسَ أن يستفسرَ عن صحّتي، وصحّة هشام، وعن أخبار الستّ أمّ هشام. وعندما أخبرته عن العجيبة التي ردّت النطق والعافية إلى هشام، وعن أنّ أمّ هشام عائدة إلينا عند منتصف الليل، أشرق وجهه الممتلئ عافية بالنور، وانحنى إلى الأرض يلمس ترابها بيديه، ثم يضعهما على جبينه، ثمّ يرفع وجهه إلى السماء ويردّد: «الحمد لك يا الله. الحمد لك يا الله. الحمد لك يا الله. هذا يوم كامل. هذا يوم نادر بين الأيام. هذا يوم يساوي عمرًا. نيّتك طيّبة يا دكتور. نيّتك صافية. وحسب نواياكم تُرزقون. تفضّل. تفضّل. تفضّل وامشِ معي قليلًا. إلى هناك. إلى حيث شجرة الجوز الكبيرة».

ومشى الرجل في اتّجاه الجوزة المسنّة التي كنت أعرفها جيّدًا، وأحبّها كثيرًا، وأحبّ القيلولة في ظلّها بعد الظهيرة. وكان، وهو يمشي، يتلفّت إلى الوراء، وإلى اليمين واليسار، كمن يخشى أن تترصّده عين رقيب من بعيد أو من قريب.

بلغنا الجوزة وتخطّيناها بضعة أمتار وإذا بأبي فرحات يتوقّف أمام صخرة شبه مستديرة ما أظنّ قطرها يزيد على المتر. ثمّ إذا به يتلفّت ثانية في جميع الاتّجاهات حتّى إذا اطمأنّ إلى أنّ ما من عين ترقبنا التفت إليّ وقال بصوت منخفض:

– أتعرف هذه الصخرة يا دكتور؟

– بالطبع. بالطبع. فقد مررت من أمامها وجلست عليها عشرات المرات.

– أمّا أنا فقد مررت من أمامها وجلست عليها مئات المرّات. أتذكر هذه الكومة من الحجارة الصغيرة المكدّسة عند أسفلها من الشرق؟

– أذكرها. أذكرها جيّدًا.

– لقد عنّ لي اليوم أن أحفر قناة للمياه ههنا. فاعترضتني هذه الصخرة ووجدت أن لا مناص من تحطيمها كيما تستقيم القناة. وقبل أن أباشر تحطيمها أحببت أن أسبر عمقها في التراب. فكان أوّل ما خطر لي هو أن أزيح هذه الكومة من الحجارة الصغيرة عند أسفلها. وهكذا أزحتها حجرًا حجرًا.

– ولكنّها يا أبا فرحات تبدو وكأنها لم تمسّها يد.

– لأنّي أعدتها كما كانت على وجه التقريب.

– ولماذا أعدتها؟

– سيأتيك الجواب عندما أزيلها ثانية.

وانبرى أبو فرحات للحجارة يرفعها بيده حجرًا حجرًا ويضعها جانبًا. حتّى إذا انتهى من الأخير تنحّى من وجهي وقال بلهجة الساحر الظافر:

– ماذا ترى؟

انحنيت قليلًا وإذا بي أبصر في أسفل الصخرة فجوة كبيرة، وأبصر في الفجوة جرّة مستطيلة من الخزف وقد طلي خارجها بالقار، ولها فوهة مستديرة. أمّا طولها فنحو الشبرين أو أكثر بقليل. قلت وقد أدهشني ما رأيت:

– ما هذه الجرّة يا أبا فرحات، ومن أين؟

– لست أعرف عنها يا دكتور أكثر ممّا تعرف. ولكنّنا سنعرف. أتأمر لي بإخراجها؟

– ولماذا لم تخرجها ساعة رأيتها؟

– لا سمح الله. أبو فرحات ما تعوّد أن يخون أمانته. لذلك، من بعد أن رفعت الحجارة وأبصرت الجرّة، عُدت فرددت الحجارة إلى حيث كانت وأرسلتُ في طلبك ليجري استخراج الجرّة والكشف على ما فيها بامر منك وأمام عينيك. ولم أشأ أن أذهب بنفسي إليك مخافة أن يطرأ على الجرّة أيّ طارئ ليس في الحسبان. أتأمر بإخراجها؟

– من كلّ بدّ.

وأخرج أبو فرحات الجرّة ووضعها أمامي. وإذا بفوهتها مغطّاة بقطعة من الجلد المطليّ بالقار كذلك، وقد شُدّت إلى جوانبها بسريد سميك. واستعان أبو فرحات باسم الله ثمّ أزال الغطاء. وإذا بعينيه تجحظان، وبفمه ينفتح انفتاحة واسعة ولا ينغلق. لقد كانت الجرّة مليئة بالدنانير الذهب، وكانت الدنانير تتوهّج في الشمس كأنّها لم تكن مخزونة في قلب جرّة، وفي جوف صخرة، ولمدّة قرن وبعض القرن. فقد تبين فيما بعد أنها تعود للدولة العثمانية في أوائل القرن التاسع عشر.

أحببت أن أقول شيئًا لعلّني أساعد أبا فرحات في التغلّب على دهشته، وعلى انخطاف ذهنه وبصره. فلم أجد ما أقوله غير «مبروك يا أبا فرحات». وقد قلتها بصوت فيه شيء من البرودة والتردّد. فكأنّها لم تخرج من أعماق قلبي. ولكنّني ما لبثت أن أنّبت نفسي على برودتي وتردّدي. لذلك عدت فكرّرت قولي بالكثير من الحزم والحرارة:

– مبروك وألف مبروك يا أبا فرحات!

إلّا أنّ الرجل أجابني في الحال، وبمثل حزمي وحرارتي أو أكثر:

– بل مبروك وألف مبروك يا دكتور. الأرض أرضك. والكنز كنزك. وما أنا غير عامل وحارس. حلال لك. حرام عليّ.

– بل حرام عليّ. حلال لك. لولا يدك الطاهرة، ونيّتك الطاهرة لَما انكشف الكنز لك دون كلّ الناس. إنّ الذين دفنوه ههنا لم يدفنوه لي بل لك. قل سبحان الذي يسخّر الناس للناس. إن الذين دفنوا هذا الكنز منذ قرن وبعض القرن إنّما دفنوه ليعودوا وينعموا به بعد حين. وما دروا أنّهم دفنوه ليُحرَموه وينعم به أبو فرحات وعائلته. ولا صلة، في الظاهر، بينهم وبين أبي فرحات وعائلة أبي فرحات. حقًّا، إنّ من الأمور ما يحيّر العقول.

طال جدالي مع أبي فرحات قبل أن أقنعه بأنّه أحقّ بالكنز منّي. وما كان لي، ولا بطريقة من الطرق، أن أنقل إليه شعوري بأنّ هذا الكنز، لو أنا اقتبلته، أو أيّ قسم منه، لكان رباطًا آخر يشدّني إلى الأرض التي أحاول الإفلات من قبضتها في يومي الأخير.

«حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك كذلك».

هذا قول صادق، وقول جميل. وأنا أريد لي كنزًا لا يذهب منّي فيذهب بذهابه قلبي.

الساعة السادسة عشرة

عاد ابو فرحات فشدّ الغطاء على فوهة الجرّة وردّها إلى الفجوة في أسفل الصخرة. وبمنتهى اللباقة والتأنّي عاد فرصف الحجارة الصغيرة التي كانت تستر الفجوة عن الأبصار ورصفها بطريقة لا يمكن ان يُستدلّ منها أنّ تلك الحجارة كانت أكثر من كومة لا شأن لها على الإطلاق. كلّ ذلك وشفتاه لا تنفرجان عن كلمة، وعيناه لا يرفّ لهما جفن إلّا نادرًا، ووجهه كأنّه وجه أبي الهول.

– ما قولك يا أبا فرحات لو استرحنا قليلًا تحت الجوزة؟ حتّى هنا يشعر الإنسان بوطأة الحرّ. إنّه ليوم أحشاؤه من جمر.

وكأنّ أبا فرحات كان في غفلة فاستفاق. فتنحنح دون حاجة إلى التنحنح، ومسّد شاربيه دون أن يكونا في حاجة إلى التمسيد. ثمّ فرك عينيه وقال دون أن يكون في كلامه أيّ ترابط وانسجام:

– تحت الجوزة؟ إي، إي. تحت الجوزة. الأمر أمرك يا دكتور. تحت الجوزة. يا فرحات! يا أمّ فرحات! هاتوا بساطًا وفراشًا ومخدّة للدكتور.

– وفنجان قهوة.

– من كلّ بدّ. وفنجان قهوة. بل فنجانين.

جلست على الفراش، واتّكأت بمرفقي على المخدّة. وجلس أبو فرحات على الأرض قبالتي، وطوى ساقيه إلى فوق، وشدّ يديه حول ركبتيه وقد شبك أصابعه القويّة بعضها ببعض، ثمّ راح يهزّ بدنَه المتين هزّات لطيفة إلى الوراء وإلى الأمام. وكان أوّل ما تمنّيته عندما تغلغلت نسمة عليلة في أوراق الجورة ثمّ انحدرت فدغدغت وجهي، لو أنّني أستطيع أن أنزع عنّي جميع ثيابي.

وتشبّثت الأمنية بتلافيف دماغي فما أستطيع التفلّت منها. وتخيّلتني أنضو ثيابي عنّي قطعة قطعة، ثمّ أنبطح على الأرض كما ينبطح الثور أو الحمار أو أيّ حيوان من الحيوانات. وتخيّلت أنفاس التراب تمشي في دمي، وأشعّة الشمس المنسربة من بين أوراق الجوزة تتزحلق على جلدي، وظلال الأوراق ترتجف مع خطرات النسيم على وجهي. فسرت في داخلي رعشة لذيذة. إنها

رعشة الانعتاق – ولو بالخيال – من الستائر والسجف التي نتحجّب بها عن الكائنات من حوالينا. إنها رعشة التخلّص من الشعور بالانفصال عن الكون ثمّ الاندماج به اندماجًا لا حواجز فيه ولا حدود.

وعجبت لنفسي كيف أنّني عشت عمري حتّى اليوم وقطّ لم يخطر في بالي أن أقدّم لنفسي حسابًا عن الأمور التي تضايقني وتفسد عليّ عيشي. والآن يبدو لي أنّ هذه الأمور أكثر من أن تعدّ وتحصى. أمّا المركز الذي تنبت فيه وتتفرّع منه فهو الشعور بأنّ بيني وبين الكون حدودًا وحواجز. وهذا الشعور يدفعني بغير انقطاع، وفي كلّ لحظة من وجودي، على التمسّك بتلك الحواجز والحدود والدفاع عنها بعناد لا يعرف الفتور مخافة أن تنهار وتزول فأنهار معها وأزول. فكأنّها، في نظري، الحصون المنيعة التي تحميني من عاديات الزمان والمكان. فلا تستقرّ لمحة واحدة على حال من الأحوال.

ها أنا تحت هذه الجوزة العتيّة، وفي حضرة هذه الطبيعة السرمدية، أسأل الجوزة:

«هل تعرفين أيتها الجوزة مَن هو الرجل المستلقي الآن في ظلّك الظليل؟ إنّه مالكك ومالك الأرض التي منها حياتك. وله السلطان أن يمدّ في حياتك وأن يسلبك إيّاها ساعة يشاء».

فتسخر الجوزة بي وبسؤالي، ولا تجيب.

وأسأل التراب من تحتي:

«أما سمعت أيّها التراب بالدكتور موسى العسكري رئيس دائرة الفلسفة في أشهر جامعة من جامعات هذا البلد؟»

فيضحك التراب منّي ومن سؤالي، ولا يجيب.

وأسأل النسيم الذي ترفرف أوراق الجوزة لنفحاته:

«أتعرف أيّها النسيم أنّ للدكتور موسى العسكري زوجة اسمها رؤيا، وولدًا اسمه هشام؟»

فيمضي النسيم يداعب أوراق الجوزة، ولا يجيب.

وأسأل الشمس المعلّقة بعيدًا في الفضاء:

«أما دريت أيّتها الشمس أنّ الدكتور موسى العسكري يودّع اليوم يومه الأخير؟»

فلا تضطرب الشمس، ولا تجيب.

وأسأل النملة التي عضّت على شعيرة وراحت تجرجرها بمنتهى المشقّة إلى بيتها لتخزنها طعامًا لها في الشتاء:

«أمَا بلغك أيّتها النملة الحريصة، الشحيحة، أنّ الدكتور موسى العسكري قد تنازل قبل دقائق عن كنز ثمين جدًّا؟ وها أنت تعضّين على شعيرة انتزعتِها من روث حمارة ولا تتخلّين عنها حتّى ولو كلّفتك حياتك».

فلا تتخلّى النملة عن كنزها، ولا تستكبر تنازلي عن كنزي، وتمضي تجرجر الشعيرة ولا تجيب.

وأخيرًا أتوجّه بالسؤال إلى الدكتور موسى العسكري:

«وأنت أيّها المغفّل مَن تقول إنّك أنت؟ وماذا تقول في الحصون التي بها تحصّنت ورحت تدافع عنها بمنتهى الضراوة، اعتقادًا منك أنّك بانهيارها ستنهار؟ تلك الحصون هي اسمك، ولقبك، ومركزك، وسمعتك بين الناس، وزوجك، وابنك، وبيتك وما احتواه، وسيارتك، وبستانك، وراتبك، ورصيد من المال في المصرف – يضاف إليها عقلك وأوهامه، وقلبك وشهواته. وهذه جميعها تبدو وكأنها لا قيمة لها، بل لا وجود لها، في حضرة هذه الطبيعة التي تحتضنك الآن. وإذا كان لها من قيمة فقيمتها في أن تعلّمك أنّها بدون قيمة. وإذا كان لها من وجود فمعنى وجودها أن يذوب باستمرار بين يديك وأمام عينيك ليدلّك على الوجود الذي لا يذوب لأنّه وحده هو الوجود».

وبغتة تقوم في ذهني صورة حصاة صغيرة يدحرجها أحدهم عن رأس جبل عالٍ مغطّى بالثلج. فلا تبلغ أسفل الجبل حتّى تغدو، بما التصق بها من الثلج، كرة هائلة تبلغ زنتها المئات، بل الآلاف، من الأطنان. ويخيّل إليّ أنّني تلك الحصاة، وأنّ اسمي ولقبي ومركزي وغيرها من الحصون التي أحاول أن أتحصّن ضمنها، والتي أفني عمري في الدفاع عنها، ليست سوى الثلوج التي التصقت بتلك الحصاة. وهذه الثلوج مقضيّ عليها بالذوبان. مثلما هو مقضيّ بالشقاء على الذين يحاولون الدفاع عنها ضدّ العناصر، والاحتفاظ بها في الشكل الذي كان لها عندما بلغت الحصاة أسفل الجبل.

أجل. إنّني تلك الحصاة. ولكنّها حصاة ليست من المادّة. فلا شكل لها، ولا وزن، ولا لون. إنّها الحياة التي تُحَسّ ولا تُدرَك، فلا يمكن أن توصف. وهي التي، لغاية في نفسها، تتشكّل بشتّى الأشكال وتتلوّن بشتّى الألوان. فتنمو أوّلًا بالتضخّم والانتفاخ، ثمّ تعود فتنمو بالتقلّص والذوبان. إنّها لا تكتسي إلّا لتعود فتتعرّى من أكسيتها. وهي أبدًا واحدة مهما تنوّعت أكسيتها، ومهما اختلف لونها ومذاقها.

ويستبدّ بي الشوق إلى الذوبان – إلى التخلّص من أورامي وأوهامي – إلى التعرّي من ثيابي، ومن جسدي ومن أفكاري ومخاوفي ومطامحي وشهواتي – إلى الانفلات من كلّ رباط يربطني بالناس ومؤسّساتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم – إلى الانعتاق من ربقة التغيّر والتبدّل، والنموّ والانحلال، والساعات والمسافات. ويبدو لي أنّ ذلك مستطاع، وفي متناول يدي إذا أنا استسلمت بكلّيتي للشوق الذي استبدّ بي. بل يبدو لي وكأنّني آخذ بالذوبان، وكأنّ بيني وبين الانعتاق قيد شعرة. وتغمرني طمأنينة عجيبة.

– يا أهلًا، يا ألف أهلًا وسهلًا بالدكتور. نوّر المكان بقدومك. كنت تطلّ علينا من حين إلى حين. أمّا في هذا العام فلم نسعد بقدومك إلّا اليوم. يا ألف أهلًا وسهلًا.

– بك التأهيل يا أمّ فرحات. أنتم دائمًا في بالي. ولكن ما العمل والشغل لا يترك لي وقتًا حتّى لحكّ رأسي؟

– مفهوم. مفهوم. دكتور، وأستاذ، وألف همّ وهمّ. قوّاك الله يا دكتور، وأبقاك في عافية دائمة. أنت فخرنا، وأنت تاج رأسنا يا دكتور. ولنا الشرف أن نعمل في بستانك وتحت جناحك.

ناولتنا أمّ فرحات القهوة ثمّ عادت إلى الحديث:

– لا تسل يا دكتور عن فرحنا العظيم عندما بلغنا اليوم الخبر عن شفاء المحروس. الله – سبحانه في ملكه – لا يبلي حتّى يعين. نيّتك طيّبة يا دكتور. ونيّة الستّ رؤيا.

– لعلّها نيّة هشام يا أمّ فرحات.

– ونيّة هشام كذلك. يقبرني هشام. إنّكم لا تستأهلون إلّا كلّ خير. وأمّ هشام. ما هي أخبارها؟

وعندما أخبرت أمّ فرحات أنّ رؤيا عائدة إلينا قبيل نصف الليل فركت يدًا بيد، وأشرق وجهها الأسمر، المستدير، المملوء عافية، وقالت:

– نشكرك يا ربّي ونحمدك. ولتخرس الألسن الشرّيرة.

وهنا تدخّل أبو فرحات ليحدّ من ثرثرة زوجته، فقال من بعد أن حدجها حدجة لم تفتني:

– المهمّ أن تعود الستّ أمّ هشام وقد استردّت عافيتها تمامًا. فهي ما تغرّبت عن بيتها هذه المدّة الطويلة إلّا طلبًا للراحة والعافية.

وخشيت أن لا تفهم أمّ فرحات حدجة زوجها لها، وأن تعود إلى الحديث عن «الألسن الشرّيرة» فتدخّلت من جانبي وقلت:

– قهوتك طيّبة يا أمّ فرحات. سلمتْ يداك.

– طيّبها وجودك يا دكتور. يا عيب الشوم منك.

ومن طرف خفي أومأ أبو فرحات لزوجته بالانصراف فأخذت الفنجانين وانصرفت. وران على المكان صمت عميق. وطال الصمت. وإذا بأبي فرحات يتنهّد ثمّ ينطق بكلمات ثلاث:

– ضميري غير مرتاح.

– من أيّ ناحية يا أبا فرحات؟

– من ناحية هذا الكنز.

– وماذا يزعج ضميرك؟

– إنّه كنزك وليس كنزي.

– لنفرض أن لا نصيب لك فيه، وأنّه من حقّي وحدي. أما قلتُ إنّني تنازلت لك عنه بملء إرادتي؟ فكيف وأنت اكتشفته؟ حتّى الشرع يعترف لمكتشف الكنز بنصيب فيه.

– ليتك تعطيني منه مائة دينار لا أكثر. وتتصرّف أنت بالباقي. إنّه كنز كبير. فمن يدري كم في الجرّة من الدنانير؟ قد يكون خمسة آلاف. وحتّى عشرة آلاف. الجرّة لا يُستهان بها. مائة دينار تكفيني. أمّا الكنز كلّه فيفضحني.

– يفضحك؟! وكيف ذلك؟

– أوّلًا لأنّ أمّ فرحات لا تكتم السرّ. إنّها ربّة بيت ممتازة في كلّ شيء، إلّا بما يتعلّق بالقيل والقال. حتّى أسرار بيتها لا تلبث أن تصبح ملك الجميع بفضل ثرثرتها. ثانيًا لأنّني لا أستحقّ مثل هذه النعمة تأتيني بدون عناء. فأنا رجل تعوّد أن يأكل خبزه بعرق جبينه. ثالثًا لأنّني لا أعرف كيف أتصرّف بها من غير أن أثير شكوك الجيران في أمري.

– ليس الأمر كما تتوهّم يا أبا فرحات. عندك أولاد – حفظهم الله. وأولادك على زيادة لا على نقصان إن شاء الله. وأولادك في حاجة إلى الدرس حتّى يبلغوا تحصيل الشهادات العالية من الجامعات. فلا عيش في هذه الأيّام إلّا للمتعلّمين وذوي الشهادات.

– هذا صحيح. هذا صحيح يا دكتور.

– أمّا أنا فقد نلت شهادتي من زمان. وعندي من كرم الله ما يكفيني لتعليم ولدي الوحيد في أشهر الجامعات.

– زادك الله خيرًا يا دكتور.

– لذلك أرجوك أن تطرد من رأسك جميع الأوهام، وأن تتقبّل هذا الكنز هديّة لا منّي بل من ربّك.

– ما أظنّ أنّ في الأرض من يقول الذي تقوله ويفعل الذي تفعله يا دكتور. بارك الله فيك وقدّرني على مكافأتك.

الساعة السابعة عشرة

ترى هل جنيت على أبي فرحات وعائلته عندما تنازلت لهم عن الكنز؟ وهل كان تنازلي كرمًا منّي، أم عفّة، أم زهدًا، أم خوفًا، أم إرضاء لنزوة عابرة، كأن أظهر شهمًا كبيرًا، مترفّعًا، حتّى في عين رجل قرويّ من طراز أبي فرحات؟ فأنا، قبل اليوم، لم يكن بيني وبين المال أيّ تنافر أو تباغض. بل على العكس. فقد كنت أُسَرّ بكلّ زيادة في راتبي، وبكلّ مبلغ أقبضه عن مقالة أو محاضرة، وبكلّ زيادة في ممتلكاتي ورصيد حسابي في المصرف. وهذا الكنز يأتيني اليوم عفوًا كان بإمكانه أن يضعني في مصافّ الأثرياء. فيغنيني عن عملي في الجامعة ويأتيني بالكثير من وسائل المتعة والراحة التي توفّرها للناس الاختراعات الحديثة. وإن أنا ودّعت هذا العالم بعد ساعات أمّنت لزوجي وابني عيشًا كريمًا من بعدي.

ما أظنّني أخدع نفسي إذا قلت إنّني تنازلت عن الكنز غير شاعر أنّني أتنازل عن شيء ثمين. فقد بدت لي الدنانير الذهبيّة التي اختطف بريقها بصر أبي فرحات كما لو كانت في مرتبة واحدة مع الحجارة التي اختبأت وراءها. أقول أكثر من ذلك. إنّ نفسي تقزّزت لمرآها. وعلى الأخصّ عندما فكّرت في الذين دفنوها هناك ومضوا دون أن ينتفعوا منها بشيء. ومَن يدري كم تحمّلوا في سبيلها من التعب والشقاء. ولعلّهم اعتصروها واغتصبوها من تعب الغير وشقائهم. ثمّ مَن يدري في أيّ الظروف مضوا وخلّفوها مخلّفين قلوبهم معها وفيها. وهل خطر في بال أيّ منهم أنّها، بعد سنين، ستكون من نصيب أبي فرحات؟ هذا إذا بقيت من نصيب أبي فرحات. فقد يموت أبو فرحات بعد ساعة، أو بعد لحظة، وتبقى الدنانير حيث هي إلى أن يكتشفها أبو فرحات آخر.

حقًّا إنّ الإنسان من دنياه لَفي وضع غريب عجيب. فهو أبدًا واهم أنّه «يملك» أشياء وأشياء في حين أنّه لا يملك شيئًا على الإطلاق. فالذي يملكه أو يحسب أنّه يملكه – اليوم قد يكون غدًا لغيره. حتّى جسده ليس ملكه. لأنّه لا يدري متى يفقد سنًّا، أو ضرسًا، أو إصبعًا أو عينًا، أو أذنًا، أو يدًا،

أو رجلًا، أو أيّ عضو من الأعضاء الكثيرة فيه. ولا هو يدري متى يفقد جسده كلّه. ولا هو يدري أنّ له شركاء بغير حصر في كلّ ما يدّعي أنّه يملكه ويملك حقّ التصرّف المطلق به.

وترى الناس، مع ذلك، يتهافتون على الأشياء ليتملّكوها. وهم في تهافتهم يتشاتمون، ويتباغضون، ويتناهشون، ويتذابحون، ويفتنّون في أساليب المكر والغشّ والرياء والدهاء، ثمّ من سنّ الشرائع التي من شأنها أن تصون لهم ما يملكون. وقد بلغ بهم جنون التملّك أن استنبطوا من وسائل التقتيل والتدمير ما لم يحلم به حتّى الجنّ والشياطين. ففي استطاعتهم أن يذيقوا بعضهم بعضًا ضروبًا من العذاب والشقاء والموت لم تشهد الأرض لها مثيلًا في تاريخها الطويل. وفي استطاعتهم أن يمحقوا الحياة عن وجه الأرض التي على امتلاكها يتخاصمون ويتنازعون. وهم في جنونهم يتطلّعون اليوم إلى أبعد من الأرض. إنّهم يرتفعون بأفكارهم إلى النجوم. أمّا بقلوبهم فينحدرون إلى اسفل الدركات والتخوم. وفي النهاية تتملّكهم الأشياء ولا يتملّكونها. وتبقى الأشياء ويذهبون. هكذا كان شأنهم منذ أن كانوا على الأرض. وهكذا هو شأنهم اليوم. وهكذا سيكون شأنهم في الغد. ولكنّهم لا يرعوون. ويبدو أنّني ارعويت. ولولا أنّني ارعويت لما تنازلت عن الكنز.

لعلّ الذي جعلني أرعوي هو ما تخيّلته من أمر الحصاة المدحرجة على الثلج من رأس الجبل. فالحصاة التي غيّبها الثلج عن ذاتها باتت تحسب الثلج ذاتها، وباتت تسعى بكلّ قدرتها للحفاظ على تلك الذات، والزيادة في حجمها، غير عالمة أنّها تحاول المستحيل. فلا بدّ للثلج من الذوبان. والحصاة لن تجد ذاتها الأصيلة إلّا إذا هي خسرت ذاتها الزائفة التي هي ركام الثلج.

بمثل هذه الأفكار كنت أسلّي نفسي من بعد أن ركبت سيارتي وودّعت أبا فرحات وأمّ فرحات وأولادهما وتزوّدت الكثير من ثنائهم ودعائهم، ثمّ انطلقت عائدًا إلى البيت.

إلّا أنّني لم أقطع أكثر من كيلومترين عندما أبصرت عن يمين الطريق، وعلى مسافة يسيرة منه، مرجة صغيرة تظلّلها من ثلاث جهات صخور عالية نبتت بين أضالعها بعض الأشجار البرّيّة. فاستهواني منظر المرجة ومركزها. وللحال ترجّلت من السيارة ولم ألبث أن وجدتني مستلقيًا على الأعشاب في ظلّ الصخور.

أين أنا؟ أجل، أين أنا؟ وما هذا الذي أنا فيه؟ يتحدّث المؤمنون عن جنّة النعيم. ولست أظنّ أنّ جنّة النعيم تفوق بشيء هذه البقعة الصغيرة التي تحتويني الآن. إنّها في الأرض وكأنّها ليست من الأرض. بل كأنّها سحر ساحر، أو حلم بديع، رائع، تائه حطّ الرحال ههنا ولن يلبث أن يرتحل من جديد.

من تحتي فراش من الأعشاب والأزهار. والحياة التي تدبّ في عروق تلك الأزهار والأعشاب أحسّها تدبّ في عروقي دبيب العافية في عروق السقيم. ومن فوقي سماء صفاؤها صفاء عين الطفل. أمّا شمسها فقد احتجبت عنّي وراء الصخور. فأنا أنعم بدفئها ولا أصطلي بنارها. وعن

جانبيّ بساط من الخضرة المزهوّة بفتوّتها وفتنتها، وقد انتثرت فيها ضمّات من الأزهار التي اصطبغت قلوبها ووجناتها بأصباغ ما خلقت مثلها إلّا الطبيعة ولا أتقنت مزجها ومدّها إلّا يد الفنّان الأعظم الذي يحاول تقليده أكبر الفنّانين من بني الإنسان. ولكنّهم عبثًا يحاولون. فمحاولاتهم، حتّى الممتاز منها، ينقصها أبدًا عنصر الحياة.

نسيت الكنز، ونسيت بيتي ومن فيه، ونسيت أنّني أترقّب عودة رؤيا، وأنّني أودّع يومي الأخير. ونسيتُ حتّى الدكتور موسى العسكري. ولم يبقَ من حقيقة في حياتي إلّا هذا الجمال الذي يحتاطني من كلّ جانب، وهذه الظلال الناعمة التي تغمر نفسي وجسدي، وهذه الطمأنينة العلويّة التي تتغلغل في كلّ دقة من دقّات قلبي. إنّي أنبضها. إنّي أتنفّسها. إنّي أحياها. ولست أودّ إلّا أن يطول مداها فلا ينتهي، وإلّا أن أتلاشى فيها فلا أعود إلى دنيا المقاييس والموازين، ودنيا الحدود والسدود، ودنيا الأسماء والأنانيّات، والطقوس والمعتقدات.

لله ما يفعله الجمال إذا صفا! بل لله ما تفعله النفس إذا هي صفت للجمال، فأحسّت لمسه على الأجفان، وهمسه في الآذان!

ولكن أنّى للنفس أن تصفو وهي معرّضة أبدًا لتقلّبات الدقائق والساعات؟ فها أنا – ولم يمضِ على وجودي في هذه المرجة الفردوسيّة غير فترة بدت لي وكأنّها لمحة – أبصر رجلًا يحثّ نحوي خطاه. ويقترب الرجل منّي فإذا به شابّ وسيم الطلعة، حاسر الرأس، فارع القامة، عريض المنكبين. في يمناه جِفت، ومن خصره الأيسر قد تدلّى، إلى ما تحت الركبة، حبل من العصافير المعلّقة بأرجلها. بينها الحسّون، وأبو الأبلق، وأبو الحنّاء، وغيرها من المجنّحات الصغيرة التي تقطن هذه الجبال أو تأتيها من بعيد لتمضية الربيع والصيف وبعض الخريف.

– مرحبًا يا عمّ!

تلك هي التحيّة التي بادرني الغريب بها. فرددتها بمثلها:

– مرحبًا.

وخشيت أن يبدو جوابي جافًّا وقاطعًا. لذلك عدت فقلت:

– يبدو أنّ نهارك كان موفّقًا.

– على العكس. فمنذ الصباح وحتّى الساعة لم أصطد أكثر من أربعين عصفورًا. وأمس، حتّى الظهر، اصطدت فوق المائة والعشرين.

ولم أشأ أن ينقطع الحديث عند هذا الحدّ من بعد أن آنست من الشاب رغبة في متابعته.

– أما تستحرم قتل هذه المخلوقات الصغيرة، الضعيفة، الجميلة، وبخاصّة في هذا الفصل الذي تبني فيه أعشاشها وتبيض وتربّي فراخها؟

– وأين وجه الحرام؟

– لعلّ بين العصافير المتدلّية من خصرك أكثر من أمّ قضيت على فراخها إذ قضيت على حياتها.

– وأين وجه الحرام في ذلك؟ ففي البيوت، وفي المستشفيات آلاف الأمّهات اللواتي يلفظن في هذه الساعة أنحابهنّ مخلّفاتٍ وراءهنّ آلاف الرضّع واليتامى من الأطفال. ذلك ما يفعله ربّك في كلّ يوم، بل في كلّ ساعة بعباده. وليس مَن يقول: هذا حرام.

– لله في خلقه شؤون.

– ولي مع الخلق شؤون. فأنا كذلك ربّ ضمن قدرتي. وأنا كذلك أُحيي وأُميت في نطاق قدرتي. أربّي الدجاج فأختار اليوم هذا الديك، وغدًا تلك الدجاجة عشاءً أو غداء لي. فلا يعرف الديك، ولا تعرف الدجاجة لماذا اخترته واخترتها دون جميع رفاقه ورفاقها. وأفعل مثل ذلك بالخرفان والشياه والحملان والعجول والأبقار والثيران وغيرها من الماشية التي أقتات بلحومها.

كذلك هو شأني مع الأزهار والأشجار التي أغرسها في حديقتي وفي بستاني. فما تدري أيّ زهرة متى يدركها مقرضي لتغدو زينة على مائدتي أو في عروة سترتي، أو لتُطرح في برميل النفايات. ولا تدري أيّ شجرة في بستاني متى تدركها فأسي لتغدو حطبًا في موقدي ولتحلّ محلّها شجرة أخرى. وهكذا قُل في جميع المخلوقات والأشياء التي لي عليها سلطان. فما دام ربّي لا يعطيني حسابًا عمّا يفعله بي وبأهلي وبجميع الناس فعلامَ أعطيه أو أعطيك حسابًا عمّا أفعله ببعض مخلوقاته؟ تلك هي إرادتي وكفى.

– قد يكون في ما تقوله شيء من المنطق. ولكنّنا لا نعيش بالمنطق وحده يا صاحبي.

– مثلًا؟

– هنالك الإحساس الذي لا ينقاد إلى أيّ منطق.

– مثلًا؟

– الإحساس بالجمال – بالرأفة – بالمحبّة. وهذا الإحساس هو وحده الذي يحرّم ويحلّل. وهو وحده الذي يملي عليك أن تتجنّب إلحاق الأذيّة بالمخلوقات ما دمت تكره أن يلحقك أيّ أذى من المخلوقات. وأنت إذا تجنّبت إيقاع الأذى بالمخلوقات فإنّما تفعل ذلك حبًّا بنفسك التي لا تستقلّ عن المخلوقات، بل تتّصل أوثق الاتّصال بكلّ منظور وغير منظور في الكون. أما كنت تؤثر لهذا الحسّون الذي أرديته بخردقة من جفتك، فبات جيفة مدلّاة من خصرك، لو أنّه كان يتنقّل الآن بين أزهار هذه المرجة البديعة ويملأ قلبك وقلبي بعذوبة ألحانه؟

– ولكنّه سيموت إن لم يكن من يدي فمن يد غيري. وإن هو نجا من يدي ويد غيري فلن ينجو من اليد التي لا تنفكّ تخلق الحياة ثمّ تبيدها.

– لعلّ اليد التي تخلق الحياة ثمّ تبيدها تعرف لماذا تخلقها وتبيدها. أمّا يدك فهل خلقت يومًا الحياة؟ إنّها تبيد ولا تخلق. وهي تكره لذاتها أن تُباد. ومن ثمّ فإذا لم يكن بدّ لكلّ حيّ من الموت فلماذا تجعل نفسك آلة في يد الموت، وخادمًا من خدّامه، وأنت تكره الموت؟

– هذا جدال يطول.

– وقد يطول بغير طائل. أفَلا تلطّفت وقلت لي ماذا تعمل؟ ما هو العمل الذي ترتزق منه؟

– أنا طالب في الجامعة.

– هل تعرف الدكتور موسى العسكري؟

– سمعت به ولم أعرفه. إنّه فيلسوف ورئيس دائرة الفلسفة. أليس كذلك؟

– نعم.

– ألعلّك تعرفه؟

– أعرفه.

– سمعت أنّه رجل طيّب جدًّا. ولكنّه مسكين. إذ قد هجرته زوجته بسبب علاقة غراميّة قامت بينها وبين طالب من طلّابه. ويقال إنّها على جانب كبير من الجمال.

عندها وجدت من الخير أن أغيّر مجرى الحديث. فسألت الشاب:

– وماذا تدرس في الجامعة؟

– الطبّ.

– الطبّ؟ إذن أنت تريد أن تكسب عيشك من أوجاع الناس.

– وأيّ الناس لا يعتاش من أوجاع الناس؟ الخبّاز واللحّام والبقّال والزرّاع والحصّاد وصاحب المطعم وجيش لجب ممّن ينتمون إليهم – جميع هؤلاء يعتاشون من جوع الناس. وبائع المرطّبات يعتاش من عطش الناس. والخيّاط من عريهم. والمعلّم من جهلهم. والقاضي والمحامي من مشكلاتهم. ورجل الدين من مخاوفهم في هذه الدنيا وفي الآخرة. وهكذا دواليك. وأنت بماذا تكسب عيشك؟ أم أنت متقاعد؟

– متقاعد.

– يبدو أنّك رجل مثقّف.

– ليتني كنت بغير ثقافة.

– رجل مثقّف ويتمنّى لو كان بغير ثقافة! هذا منتهى العجب في هذه الأيّام. وهل في نظرك ما هو أسمى من الثقافة؟

– القلب النيّر.

– ومن أين للقلب النور إن لم يكن من الثقافة؟

– يكفي القلب أن يذوب جليده.
– جليده؟! وما هو جليد القلب؟
– هو هذه العصافير المدلّاة من خصرك.
– عدنا إلى العصافير؟
– إنّها لأبلغ الدليل على تفاهة الثقافة.
– اعذرني يا عمّ. فقد رأيت عصفورًا حطّ على غصن تلك الشجرة. هناك. هناك.

وانطلق الرجل انطلاق السهم في طلب العصفور. ولأنّني كنت واثقًا من أنّه لن يعود لبثت مكاني وفي قلبي دعاء حارّ بأن يطيش خردق الصيّاد فينجو ذلك العصفور بحياته.

ولكنّ العصفور لم ينجُ. فقد رأيت الصيّاد يقترب من الشجرة كما تقترب الهرّة من الفأرة الغافلة عنها. ثمّ سمعت دويّ البارود. ثمّ رأيت الرجل يهرول ويقفز من صخر إلى صخر كمن فقد عقله. ثمّ رأيته يهوي إلى الأرض وسمعت دويّ البارود مرّة ثانية. وتلت الدويّ استغاثة ابتدأت كصرخة مذبوح ولم تلبث أن تلاشت. ومن بعدها لم أرَ الرجل ماشيًا أو واقفًا أو قاعدًا. لقد اختفى كما لو أن جنّية اختطفته.

عندها أيقنت أنّ كارثة ما قد نزلت بالصيّاد. فأسرعت إلى حيث رأيته يهوي إلى الأرض. وما إن أدركت المكان حتّى تسمّرت بالأرض. لقد كان المسكين في وضع اقشعرّ له بدني، وانعقد لساني، وجحظت عيناي، ويبست يداي ورجلاي. وجهه إلى الأرض، وقد اصطبغت الحجارة من تحته بالأحمر القاني. رجله اليمنى عالقة بين صخرتين وهي أعلى من رأسه بنحو الذراع. وساقه اليسرى مطويّة تحته حتّى الركبة. وكذلك ذراعه اليسرى حتّى المرفق. الجفت حديده تحت بطنه. أمّا خشبه فمكشوف. في الرأس شدوخ يتدفّق منها الدم فيحنّي الشعر ويجعل منه لبدة لزجة.

اقتربت من الرجل وقد انتابتني الرجفة. ناديته فلم يردّ. أخذت رأسه بين يديّ ورفعته قليلًا فإذا بأنفه قد تهشّم، وإذا بعينيه مغمضتان، وبالدم يجري إليهما من جبهته فينحدر إلى شفتيه وذقنه. وكأنّني لمحت ما يشبه الأمعاء إلى الجانب الأيسر من بطنه. أخذت يده بيدي فإذا بها ساخنة. إذن هنالك بقيّة من حياة.

ربّي! ما هذه الورطة التي أنا فيها؟ ماذا أعمل؟ وبمن أستعين؟ وإلى أين أتّجه؟ ليس من بشَرٍ على مقربة منّي سوى أبي فرحات. وسُرّي عني قليلًا عندما خطر أبو فرحات في بالي.

عدت إلى حيث تركت سيّارتي فامتطيتها وقفلت راجعًا إلى البستان. وعندما ناديت أبا فرحات نداء فيه الرعب وفيه اللهفة هرول الرجل نحوي فأدركني في مثل لمحة الطرف لاهثًا من العياء.

– اركب معي يا أبا فرحات وسأخبرك في الطريق لماذا دعوتك.

بلغنا المكان الذي فيه الصيّاد. فما ان أبصره أبو فرحات حتّى أخذ جسمه الجبّار يرتجف ارتجاف الورقة على الغصن. ثمّ سمعته يتمتم:

– لا تؤاخذني يا دكتور. أنا ربّ عائلة. في عنقي زوجة وأولاد. عليّ مسؤوليّات.

– وما دخل المسؤوليّات؟ ما دخل الزوجة والأولاد؟ هنا رجل يموت. وقد نخلّص حياته إذا نحن نقلناه في الحال إلى المستشفى. دمه ينزف. وما من ضمادات ولا مطهّرات، ولا من يحسن التطهير والتضميد. ساعدني في حمله إلى السيارة ثمّ عد إلى بيتك.

– لا تؤاخذني يا دكتور. تروّ قليلًا. تروّ قليلًا!

– وفيمَ التروّي؟ قد يذهب التروّي بحياته.

– أقول تروّ يا دكتور. فقد يتّهمونك، أو يتّهمونني، أو يتّهموننا معًا بقتله.

– غير ممكن. غير ممكن. هذا كلام هراء. سأروي لهم الحادث كما وقع بالتمام. الدكتور موسى العسكري لم يكن قطّ من الكاذبين.

– اعذرني يا دكتور. سيموت الرجل معك في الطريق، إن لم يكن قد مات الآن. وستوقع نفسك وتوقعني في مأزق.

– لست أريد أن أسمع شيئًا من ذلك. عليّ أن أنقل هذا الرجل إلى المستشفى حيًّا أو ميتًا. هات ساعدني في نقله.

عندها انحنى أبو فرحات فوق الجريح فأمسك بكتفيه وأمسكت برجليه. وأصرّ أبو فرحات على أن يحمله إلى السيارة وحده. وإذ تبيّن لنا أن جانبًا من أمعاء الرجل قد اندلق من بطنه وضع أبو فرحات ظهره تحت ظهره ونهض به كما ينهض البعير بحمله. وحانت منّي التفاتة إلى الحجارة المضرّجة بالدم وإذا بي أبصر بينها جثّة الحسّون وقد انبسط جناحاه على الحصى، وتشعّث الريش الجميل على ظهره، وتجمّدت قطرة من الدم على آخر منقاره.

الساعة الثامنة عشرة

أشار عليّ أبو فرحات، ونحن في الطريق، أن نتوقف عند أوّل مخفر للشرطة ونطلعهم على الأمر. وهكذا فعلنا. فما كان من رقيب المخفر إلّا أن تلفن إلى المستشفى الحكومي ليرسلوا سيّارة إسعاف في الحال، ثمّ إلى المدّعي العامّ ليوافيه إلى المستشفى.

وحضرت سيّارة الإسعاف فوضعوا الجريح فيها وانطلقت في سبيلها. أمّا أنا وأبو فرحات فقد استبقانا الرقيب عنده بضع دقائق ليأخذ تقريرنا. فرويت له تفاصيل الحادث من أوّلها إلى آخرها. وعندما انتهى من عمله التفت إليّ وقال:

– آسف يا دكتور أنّني لا أستطيع إخلاء سبيلكما الآن. فسيكون للمدّعي العامّ معكما حديث. وله وحده الكلمة الفصل في الأمر.

قلت وقد تذكّرت كلمات أبي فرحات «تروّ يا دكتور. تروّ»:

– ولكنّني رويت لك الحادث في أدقّ تفاصيله – كما وقع بالتمام. وأنا لا أكذب. ومن ثمّ فلا بدّ لي من العودة إلى البيت. فأعصابي في حالة انهيار. وثيابي ملطّخة بالدم.

– نحن في حاجة إليك كما أنت. وإلى ثيابك كما هي.

– وهذا الرجل – أبو فرحات – ما ذنبه؟ دعوه يرجع إلى بيته وإلى عائلته. إنّه يقطن بعيدًا في الجبل، وليس حواليه جيران. والنهار يوشك أن يتلاشى.

– نحن في حاجة إليه كذلك. والآن، إذا أمرت يا دكتور، تفضّل وانقلنا في سيارتك إلى المستشفى.

رضخت للأوامر. وكيف كان لي ألّا أرضخ؟ وشعرت كأنّ كلّابة من حديد أخذت تشدّ على حلقي، وكأنّ جبلًا قد رسا على صدري. لقد حسبت ليومي الأخير ألف حساب. ولكنّني لم أحسب أنّني سأقع في يد الشرطة. لا لسبب إلّا لأنّني حاولت أن أنقذ إنسانًا من الموت. ولكم سمعت وقرأت

عن الفظائع التي ترتكبها الشرطة مع الذين يقعون في قبضتها بغية انتزاع اعترافٍ منهم بجريمة قد لا يكون لهم فيها يد أكثر ممّا كان للذئب في دم يوسف ابن يعقوب.

رأسي يضجّ ولا ضجيج خليّة النحل. بل إنّني إخاله يتورّم فيغدو أضعاف حجمه الطبيعي. والأفكار التي تزدحم فيه لا تتّبع في مجيئها ورواحها أيّ نهج، إنّها الفوضى بعينها. لماذا تحرص الشرائع البشريّة كلّ هذا الحرص على الحياة البشريّة ولا تحرص على كرامة الشخصيّة البشريّة؟ ثمّ لماذا تعود تلك الشرائع عينها فتبيح الحياة البشريّة والشخصيّة البشريّة بالمئات، بل بالآلاف، بل بالملايين في حالة الحرب؟ ولماذا يحلو لبعض الناس أن يعذّب البعض الآخر؟ ولماذا يكثر الكاذبون ويقلّ الصادقون بين الناس؟ وكيف للكذّاب أن ينتزع الصدق من كذّاب؟ وكيف للمجرم أن يدين المجرم؟ أليس أنّ جميع الناس محكوم عليهم بالإعدام في محكمة هي أبعد ما تكون عن محاكم الناس؟ فكيف لقاضٍ محكوم عليه بالموت أن يحكم على غيره بالموت؟

ثمّ ما شأني مع المدّعي العامّ، وأنا رجل يودّع يومه الأخير؟ أمن الممكن أن يحتجزني المدّعي العامّ فلا يتيح لي العودة إلى بيتي، ولا استقبال رؤيا في المطار؟ مَن يدري؟ كلّ شيء ممكن في شرائع الناس المعقّدة. أما كان من الأفضل لي لو أنا تجاهلت ما حدث للصيّاد وتركته يموت كما مات ملايين الملايين من قبله؟ ومن أين لي أن أعرف أنّني لا أجني عليه إذا أنا أنقذته من الموت؟ أما كان أبو فرحات على حقّ؟

جاء المدّعي العامّ فدعوني إليه. إنّه رجل التقيته غير مرة في بعض المناسبات. ولكنّه تظاهر كما لو كان لا يعرفني. ولعلّه تجاهلني ليوحي إليّ شيئًا من «هيبة» الحكم.

رويت للمدّعي العامّ ما رويته لرقيب الشرطة دون أيّ زيادة أو نقصان. وعندما انتهيت من سرد روايتي أخذ المدّعي العامّ يستجوبني:

س: هل عرفت هذا الرجل قبل اليوم؟

ج: لم أرَ وجهه قبل اليوم.

س: قلتَ في تقريرك للشرطة إنّه طالب طبّ في الجامعة التي تدرّس حضرتك فيها. فمن أين عرفت ذلك؟

ج: هكذا قال لي.

س: أما تذكر أنّه درس عليك مادّة من المواد؟

ج: أبدًا. أنا أدرّس الفلسفة. وهو يدرس الطبّ. ولا علاقة للطبّ بالفلسفة.

س: ابن سينا كان طبيبًا وفيلسوفًا في آن. هل تذكر الحديث الذي دار بينكما؟

ج: تحدّثنا أوّلًا عن الصيد.

س: وهل حضرتك من المولعين بالصيد؟

ج: على العكس. إنّي أكره الصيد. وأكره قتل المخلوقات البريئة كالعصافير.

س: وهو يحبّ صيد العصافير.

ج: بالطبع.

س: إذن كان بينكما جدال.

ج: جدال بريء.

س: وأنّبته أنت بالطبع، واحتدم الجدال. أليس كذلك؟

ج: قلت لك إنّ الجدال كان بريئًا.

س: كان جدالًا بريئًا. ولكنّه كان جدالًا لم ينته إلى إقناع. أليس كذلك؟

ج: لا. لم يقنعني. وما أظنّني أقنعته.

س: وهكذا افترقتما على خلاف.

ج: أجل. افترقنا على خلاف.

س: وهذا الرجل الذي كان معك ومع الجريح في السيّارة – مَن هو؟

ج: اسمه أبو فرحات. وهو يعتني ببستان فاكهة أملكه في الجبل.

س: آ! حضرتك تملك بستانًا في الجبل؟ ولعلّ طالب الطبّ كان يصطاد العصافير في بستانك. فاستاء منه أبو فرحات. وكان بينهما شجار.

ج: لا شيء من ذلك. لا شيء من ذلك على الإطلاق. البستان يبعد عن مكان الحادث نحو كيلومترين. وأنا الذي ذهب في طلب أبي فرحات ليساعدني في نقل الجريح إلى السيّارة. أرجوك. أرجوك. صدّقني.

– سنرى. سنرى.

– أمِن سؤال بعد؟

– سنعود إلى الأسئلة من بعد أن يصدر تقرير الطبيب. أما الآن فبإمكانك أن تستريح.

– أريد أن أنصرف إلى بيتي.

– عليك بالصبر. فما دامت حياة الرجل في خطر فأنا مضطر أن أصدر مذكّرة توقيف بحقّك وحقّ الرجل الذي تقول إنّه بستانيّك.

نزلت هذه الكلمات عليّ نزول الصاعقة حتّى كاد أن يغمى عليّ. ولقد تمنّيت في تلك الدقيقة لو كانت لي قدرة أبي فرحات. فأصفع المدّعي العام صفعتين مدوّيتين على الخدّين، ثمّ أتفل في وجهه، ثمّ أرفعه بين يديّ وأضرب به الأرض. إلّا أنّني ما خالجتني تلك الفكرة حتّى خجلت من نفسي يتولّاها الغضب إلى ذلك الحدّ فينحدر بها إلى مثل تلك الدركات. وعدت فقلت: «وهذا يا دكتور حصاد بعض البذور التي بذرتَ ونسيتَ متى بذرتها وأين».

وأنا كذلك، إذا برقيب الشرطة يستأذن بالدخول ليقول للمدّعي العامّ إنّ الصيّاد استردّ وعيه. فأسرع المدّعي العامّ إليه، وبعد قليل عاد «ليبشّرني» بأنّ الجريح قد رفع عنّي وعن أبي فرحات كلّ شبهة، وأنّه يريد أن يراني. وعندما اقتربت منه أخذ يدي وقبّلها وهو يردّد بصوت كأنّه من أعماق الأرض:

«اغفر لي. ولتغفر لي العصافير. لقد ثأر الحسّون لنفسه ولإخوانه. إنّني ربّ حقير... حقير».

فلم أستطع حقن دموعي.

عندها دنا منّي المدّعي العامّ باسطًا يده لمصافحتي. ومن غير أن يتبدّل شيء في صوته وفي ملامح وجهه، قال:

– أهنّئك. الآن بات في إمكانك أن تمضي حيثما تشاء. ومضى يستنطق الصيّاد الجريح.

الساعة التاسعة عشرة

الشمس كرة حمراء على الأفق، وهي توشك أن تغطس في البحر. وكتلة اللحم التي أحملها في صدري، والتي أدعوها قلبي، تشبه تلك الكرة إلى حدّ بعيد. إنّي أحسّها تحترق. وأحسّ أنها توشك أن تغطس في لجّة. ولكنّها لجّة بغير قرار.

وهناك توافه تفرض ذاتها عليّ فرضًا. فسيّارتي ملطخة بالدم، ولا بدّ من تنظيفها قبل أن أعود فيها إلى البيت، وقبل أن أمضي إلى استقبال رؤيا في المطار. وهناك أبو فرحات فلا بدّ من ردّه إلى بيته قبل أن أعود إلى بيتي. وهناك أمّ زيدان وهشام. فقد تركتهما من زمان، وإذا طال غيابي عنهما سينشغل بالهما عليّ.

توقّفت في أوّل كاراج صادفته في الطريق وطلبت تنظيف السيّارة في الحال ثمّ تزويدها بالبنزين. ولكنّ المنظّف ارتبك وأجفل ثمّ تراجع عن السيارة عندما وقع بصره على لطخ الدم في داخلها وعلى ثيابي. ونادى صاحب الكاراج، وأشار بيده إلى لطخ الدم إشارة ذات معنى. فكأنّه أراد أن يقول: «انظر. قد تكون وراء هذه اللطخ جريمة». فارتبك صاحب الكاراج كذلك وأجفل. وبعد تردّد قال:

– اعذرني يا سيدي. أفلا تلطّفت ونظفت سيارتك في غير هذا الكاراج؟

– ولماذا في غير هذا الكاراج؟ أليس تنظيف السيّارات بعضًا من عملكم؟

– بلى. ولكن...

– ولكن ماذا؟

– قد تكون في الأمر مسؤوليّة.

– وأيّ مسؤوليّة؟

– هذا الدم دم مَن هو؟ إنّه يبدو غير قديم. وقد تتّهمني الحكومة بالاشتراك في الجريمة.

عندها فهمت سبب تردّد الرجل في تنظيف السيّارة. فطمأنت باله من ذلك القبيل وسردت له الحادث من أوّله إلى آخره. فاقتنع بصدق روايتي، ثمّ أمر بتنظيف السيّارة وبأن يؤتَى بكرسيّين وبفنجانين من القهوة لي ولأبي فرحات. وبعد قليل جاء بكرسي وجلس بجانبنا، وراح يروي لنا القصّة التالية:

– لا تؤاخذني يا سيّدي على ما بدر منّي. فإنّ أخشى ما أخشاه هو الوقوع في يد الحكومة. ولعلّ الحكومة لا تُلام في قساوتها مع المجرمين. فالجرائم في ازدياد مستمرّ. والصدق بين الناس في نقص مستمرّ. حتّى ليكاد الصدق في هذه الأيّام يكون أندر من شعرة شائبة في رأس طفل. لقد وقع لي منذ سنوات ما يشبه الذي وقع لك اليوم. ولكنّك نجوت. أمّا أنا فمكثت في السجن ثلاثة اعوام وبعض العام.

كنت عائدًا ذات ليلة في سيّارتي إلى بيتي. وكنت وحدي. وكان طريقي يمرّ وسط غابة كثيفة. وكان مقفرًا من المشاة والسيّارات. وعند عطفة في الطريق سمعت عويلًا واستغاثة. وكان الصوت صوت أنثى. ثمّ انقطع الصوت. فتوقّفت للحال وترجّلت ودخلت الدغل الذي انطلق منه الصوت. فأبصرت على ضوء النجوم شبح رجل كان منبطحًا على الأرض فنهض واندفع يعدو. ولم يلبث أن اختفى.

بقيت هنيهة مكاني لعلّني أهتدي إلى صاحبة الصوت. وإذا بي أبصر على الأرض، حيث كان الشبح الهارب منبطحًا، ما يشبه جسم امرأة ممدّدة. وفطنت للبطاريّة اليدوية التي في السيّارة. فذهبتُ في طلبها. وعندما عدت وسلّطت البطاريّة على المرأة صُعقتُ وتسمّرت في مكاني. لقد كانت فتاة في نحو الحادية عشرة لا أكثر. وكان شعرها مبعثرًا، وفستانها الأبيض قد انحسر عن ساقيها حتّى البطن، وعلى فمها منديل. وكانت عيناها مغمضتين، وذراعاها مسبلتين على جنبيها. وتبيّن لي أنها كانت في إغماءة. إلّا أنّها فتحت عينيها لحظة ثمّ أطبقتهما. وعرفت من البقعة الحمراء التي تحتها أنّ الشبح الهارب لم يكن سوى وحش بشريّ افترسها وفرّ حالما سمع وقع أقدامي.

ماذا كان عليّ أن أفعل في تلك الحالة؟ بالله قولا لي. أأمضي وأتركها؟ معاذ الله. قلبي لا يطاوعني. وأنا أب لثلاثة أولاد، بينهم ابنة في مثل عمر تلك الفتاة. وهي أحَبّهم إليّ. لا. لا. قلبي لم يطاوعني.

وحملت المسكينة في سيّارتي إلى أوّل مخفر للشرطة. والشرطة نقلتها ونقلتني معها إلى المستشفى. وفي المستشفى وقع لي مع المدّعي العامّ مثلما وقع لك تمامًا، تمامًا. فقد هدّدني المدّعي العام بالتوقيف وبحجز سيّارتي ما دامت الفتاة في إغماءة ودامت حياتها في خطر. ولكنّها أفاقت.

فاستدعوني إليها وسألوها: «هل تعرفين هذا الرجل؟» فما كان منها إلا أن تملّكتها رجفة عنيفة ثمّ صاحت بأعلى صوتها: «هذا هو! هذا هو!» وعادت فغابت عن الوعي.

واتفق أنّ الفتاة أصيبت بنزيف استعصى على الأطبّاء وقفه، ورافق النزيف هبوط في القلب أدّى إلى وفاتها. فكانت النتيجة أنّني حوكمت وحُكم عليّ بالسجن خمس سنوات. إلّا أن الله تحنّن عليّ. فما انقضت السنة الثالثة حتّى أُلقي القبض على المجرم الحقيقي. فاعترف أنّه افترس تلك الفتاة وعشرًا غيرها في مثل سنّها وأصغر. وهكذا أفرجوا عنّي دون أن يعتذروا لي، ودون أن يدفعوا أيّ تعويض عن الخسارة التي لحقت بي في عملي وفي شرفي وسمعتي بين الناس.

نجّنا اللهمّ من المحاكم والحكومات!»

هذه العبارة الأخيرة من فم صاحب الكاراج ردّدها أبو فرحات غير مرّة ونحن في طريقنا إلى البستان. ولعلّه أكثر من ترديدها لأنّه بات يخشى أن يُفتضح أمر الكنز، فيبلغ خبره الحكومة وينتج له عن ذلك «وجع رأس».

كان الليل قد لفّ الجبال والبحر بعباءته عندما تركت أبا فرحات في البستان وعدت وحدي إلى البيت. وكنت، وأنا في الطريق، أحاول جمع أفكاري المشتّتة فلا أستطيع. أبو فرحات والكنز. المرجة الخضراء. صيّاد العصافير وما كان من أمره مع الحسّون ومن أمري معه. الشرطة والمستشفى والمدّعي العامّ. الكاراج وقصّة صاحب الكاراج مع الفتاة. هذه كلها «وقائع» سجّلتها ذاكرتي. ولكنّها تبدو لي كما لو كانت حلمًا من نوع الكابوس، أو صورًا مزعجة من وحي شيطان. إلّا المرجة. فقد كنت، كلّما مرّت بخاطري، أشعر كمَن أنهكه السير في الصحراء، وأعياه السراب، وبرّح به العطش، ثمّ وقع بغتة على واحة غنّاء.

تلك المرجة كيف أنساها، وكيف السبيل إلى العودة إليها، والعيش فيها أبد الدهر؟ فالدقائق التي أمضيتها فيها قبل مجيء الصيّاد بدت لي وكأنّها الأبديّة. لقد أحسستني، وأنا مستلقٍ على أعشابها الطريئة، وبين أزهارها البديعة، كما لو كنت غير مقيّد بمكان أو زمان. فأنا المكان كلّه والزمان كلّه. أحسستني واسعًا – واسعًا، وعميقًا – عميقًا، وبعيدًا – بعيدًا، وخفيفًا – خفيفًا، حتّى كأنّي بغير وزن، وبغير لون، وبغير شكل، وبغير فكر، وبغير اسم. نسيت موسى العسكري وجميع الروابط التي تربطه بالأرض ومَن فيها وما فيها، والحبال التي تشدّه إلى شتّى الواجبات والمسؤوليّات. ولم يبق غير الشعور بأنّني أسع الكون ويسعني الكون. فلا أنا أضيق به ولا هو يضيق بي. بل كلانا وحدة لا تنفكّ ولا تنقسم. وليس لها بداية أو نهاية، ولا فوق اكتمالها اكتمال.

من الأكيد أنّني، وأنا أعيش تلك اللحظات الفاتنات في تلك المرجة الفاتنة، كنت أحتفظ في زاوية من زوايا ذاكرتي بالكثير من صور الحياة التي يحياها الناس على الأرض ويحسبون أنّها الحياة كلّ الحياة. أو أنّها «الواقع» الذي لا حقيقة إلّاه. فهناك الظلم والظالمون، والجياع والمتخمون،

والبخلاء والمبذّرون، والمتعبّدون والكافرون، والمتعفّفون والمتهتّكون. وهناك الأعاصير والبراكين، والزلازل والطوفان، والأوبئة والمجاعات، والحروب والثورات. وهناك الموت الذي لا مفرّ منه لكلّ حيّ وغير حيّ. إلّا أنّ تلك الصور تقهقرت بعيدًا عن وعيي حتّى باتت وكأنّها غير موجودة. أو أنّها اندمجت جميعها في صورة واحدة هي صورتي وقد أصبحتُ خارج نطاق المتناقضات. فلا دمي يضجّ بالشهوات، ولا فكري يدبّ في الظلمات، ولا المخاوف والهموم والغموم ترعى في لحمي وفي عظامي.

سرعان ما هربت منّي تلك الدقائق من الغبطة التي لا توصف! ولكنّها لم تهرب إلّا من بعد أن لقّنتني درسًا لعلّه أثمن درس تلقّنته في حياتي. أليس أنّها فتحت في كياني كوّة ما كنت أشعر بوجودها من قبل؟ فمن خلال هذه الكوّة أبصرتني لأوّل مرّة وحدة متكاملة مع الكون وبالكون، وهكذا انهارت من أمامي جميع الحواجز التي أقامها جهلي بيني وبين الكون. لقد تخلّصت الحصاة – الجوهر في داخلي من كلّ ما علق بها من ثلوج وأدران.

وهذه الكوّة العجيبة التي انفتحت في كياني قد عادت الآن فانسدّت. ولكنّ انسدادها لا يعني أنّها غير باقية حيث كانت. ويعني أنّه بات لزامًا عليّ أن أعود فأفتحها من جديد، وأن لا أقيم أيّ وزن لأيّ شيء في حياتي إلّا لها. فما أشبه حالي معها بحال أبي فرحات مع كنزه. لقد بقي ذلك الكنز في جوف تلك الصخرة قرنًا وبعض القرن. ولقد مرّ به في تلك الفترة مئات الناس ممّن تملّكوا الأرض قبلي، وممّن حرثوها واستغلّوها. فما اهتدى إليه أحد. حتّى أنا، مالك الأرض، لم أكن أعرف بوجوده. واهتدى إليه اليوم أبو فرحات عندما أزاح الحجارة التي سدّت الباب إلى الفجوة في أسفل الصخرة. وكان أن أبصر أبو فرحات الكنز فاغتبط به أيّما اغتباط، وإن هو حاول أمامي أن يخفي اغتباطه. ثمّ كان أن ردّ أبو فرحات الكنز إلى الفجوة وعاد فسدّ عليه بالحجارة. فغاب الكنز عن أبصار أبي فرحات. ولكنّ أبا فرحات يعرف أنّه باق هناك، وأنّ في مستطاعه الوصول إليه ساعة يشاء.

وأنا قد اكتشفت في نفسي كنزًا أين منه كنز أبي فرحات. وما اكتشفت كنزي إلّا ساعة أزحت عنه جميع الحجب التي تحجّب بها. ولكنّني عدت بعد حين فأسدلت عليه تلك الحجب – حجب المقاييس والموازين البشريّة. وأنا أعرف أنّه باقٍ حيث كان. فما عليّ إلّا أن أعود فأهتك عنه تلك الحجب مهما كلّفني الأمر من مشقّة وعناء.

لا. لم تذهب سدى، ولغير رجعة، تلك الدقائق الساحرة والمسحورة التي أمضيتها في المرجة الخضراء بين الصخور. فموسى العسكري الآن هو غير موسى العسكري الذي أفاق مذعورًا عند نصف الليل لأنّ هاتفًا هتف به: «قم ودّع اليوم الأخير».

الساعة العشرون

في جميع بيوت القرية تتلألأ الكهرباء. إلّا بيتي، فهو وحده لا يطلّ من نوافذه الكثيرة أيّ شعاع من النّور.

ما الخبر؟ ولماذا انقبض قلبي، ثمّ لم يلبث أن راح يقرع أذنيّ قرعًا عنيفًا؟ من الممكن ان يكون هشام قد نام. ولكن من غير الممكن أن تنام أمّ زيدان قبل أن أعود إلى البيت، وقبل أن أتناول عشائي. وهي، من غير شكّ، قد أعدّت لنا عشاء طيّبًا. أتراها أقلقها طول غيابي عن البيت وطول الانتظار فمضت تقتل بعض الوقت عند الجيران؟ أم تراها، بدافع من عاطفتها القويّة، عادت إلى بيت المختار لتخفّف من نكبة زوجته بابنها؟ هذا محتمل، بل هذا هو الأرجح.

على ذلك استقرّ فكري عندما دخلت البيت وضغطت زرّ الكهرباء. وانتبهت في الحال إلى أنّ بقايا من دم الصيّاد لم تزل بادية على ثيابي. فمضيت لتوّي إلى غرفتي وبدّلت ثيابي. ثمّ اقتربت على مهل من غرفة هشام، وعلى مهل فتحت الباب مخافة أن أوقظه. ولشدّ ما أذهلني أن أرى سرير هشام وكأنّ يدًا لم تمسّه من زمان. إذن أين هو؟ ألعلّه في المكتبة وقد أدركه النعاس هناك فنام في الكرسيّ نومًا عميقًا ولم يسمع وقع أقدامي في البيت؟ ولكنّ المكتبة كذلك لا أثر فيها لهشام.

تفقّدت جميع زوايا البيت إلّا المطبخ. ولكن دون جدوى. وأخذت تساورني أفكار سود. وأخذت ترافق تلك الأفكار قشعْريرة تسري من أمّ رأسي حتّى أخمصيّ. وعبثًا حاولت أن أبدّل في لون أفكاري وأن ألطّف من قشعريرتي.

أخيرًا دخلت المطبخ. وماذا وجدت؟ وجدت أمّ زيدان جالسة على كرسيّ بجانب طاولة المطبخ وقد انتفش شعرها، وجمدت عيناها، وتصلّب بدنها فلا يتحرّك فيه شيء غير أصابع يديها المضمومتين في حضنها. فهذه الأصابع كانت كأنّها تفتّش عن شيء من الأشياء. وتولّاني ذهول عندما لم تهشّ لي العجوز ولم تبشّ. والذهول انقلب رعبًا عندما ناديتها ثلاثًا، وبصوت عال، فلم تلتفت إليّ، ولم تردّ بكلمة أو بحركة.

ربّي! ما هذا الذي يجري في بيتي؟ أفي يقظة أنا أم في منام؟ ماذا طرأ على هذه العجوز الطيّبة؟ ألعلّها فقدت عقلها؟ أيكون أنّ فاجعة المختار وزوجته قد أثّرت بها إلى هذا الحدّ؟ أم أنّه قد جاءها في غيابي خبر عن وفاة ابنها زيدان؟ كيف لي أن أجعلها تنطق؟

اقتربت من العجوز، وأخذت كتفيها بكلتا يديّ، وهززتها في البداية هزّة لطيفة:

– أمّ زيدان!

فاهتزّ رأسها دون أن يهتزّ لسانها. وظلّت أصابعها في حضنها تتلمّس ثيابها كأنها تفتّش عن شيء فقدته. ولولا تلك الحركة في أصابعها لبدت وكأنّها التمثال من الشمع أو الجصّ.

وقفت مشدوهًا أمام ذلك المشهد الرهيب. وتشتّتت أفكاري فما أستطيع لمّها. وتعطّلت إرادتي فما أدري ماذا أعمل. أأدعو الطبيب؟ أم أستعين بالجيران؟ أم أصبر قليلًا بعد لعلّ الذي طرأ على العجوز لم يكن غير عارض ويزول؟

إني أحبّ هذه العجوز محبّة نبعتها صافية، صافية. وأودّ أن أدرأ عنها كلّ ضيم حتّى ولو حمّلت نفسي ذلك الضيم. فمحبّتها لي ولرؤيا ولهشام ما وقفت يومًا عند حدّ. إنّها تعيش بنا ولنا، وغيرتها علينا لا تنقص عن غيرتها على نفسها. بل ما أظنّها تهتمّ بنفسها على قدر اهتمامها بنا. وها هي في ضيق. وضيقها يؤلمني ويحيّرني. وأنا، مع ذلك، كالأبله. أنظر إليها ولا أعمل شيئًا لآتيها بالفرج.

أيّ جهاز مدهش، رائع، عجيب، غريب هو الجسم البشريّ! أجزاؤه من حيث الكثرة، ومن حيث التنوّع في الشكل والحجم، ومن حيث تداخلها بعضها في بعض، وتعاونها بعضها مع بعض، ثمّ من حيث وفرة الوظائف التي تقوم بها لممّا يفوق حدّ التصوّر. وهذه الأجزاء المعقّدة تعمل عملها من تلقائها وبانتظام هو الغاية في الدقّة والسهولة. وتعمله ساعة بعد ساعة، وشهرًا إثر شهر، وعامًا تلو عام. تعمله في النهار والليل. في الحرّ والقرّ. على الأرض وفي الجوّ. في أعماق البحار وعلى رؤوس الجبال. لا فرق بين حارث الأرض وبين الذي يسهر ليله على موائد القمار. أو بين عالم وجاهل، وسيّد وعبد، ومؤمن وكافر، وزعيم وزنيم.

وجهاز معقّد ومحكم مثل هذا الجهاز لا عجب أن يطرأ عليه خلل من حين إلى حين. بل العجب أنّه، في الغالب، يصحّح الخلل الذي يطرأ عليه. والأعجب أن يمضي في عمله بضعة عقود من السنين دون أن يطرأ عليه أيّ خلل. فها هي أمّ زيدان ما شكت يومًا أيّ وجع أو مرض منذ أن عرفتها. وقد قالت لي غير مرة إنّها لم تتناول في حياتها دواءً، ولا هي احتاجت يومًا إلى طبيب.

فماذا طرأ عليها الآن؟ وأين هو مصدر الخلل؟ أيّ لولب لا يزال يحرّك أصابعها؟ وكيف تعطّلت اللوالب الأخرى فما تقوم بأيّ حركة؟ إنّها تملك لسانًا ولكنها لا تتكلم. وتملك عينين سليمتين وأذنين لا صمم فيهما، ولكنّها لا تبصر ولا تسمع. لها رجلان صحيحتان، ولا تمشي. ودماغ، ولا تفكّر. ومعدة وأمعاء، ولا تجوع وتعطش. إذن ماذا بقي من أمّ زيدان غير الصورة؟ وأين هي الآن

أمّ زيدان التي كانت قبل ساعة أو ساعتين تملأ البيت حركة ولهفة وعطفًا ومحبّة؟ وفي أيّ دنيا هي الآن؟ إنّ جسد أمّ زيدان على قيد أنملة منّي. أمّا أمّ زيدان التي عرفتها وأحببتها فبعيدة عنّي جدًّا. لا منّي إليها. ولا منها إليّ. فكأنّنا في عالمين لا يربطهما أيّ رابط.

سبحان الذي صوّر فأبدع وحيّر!

أعود فأسأل نفسي: ما العمل؟ إنّني أمام أحجيّة كبيرة. بل أمام مشكلة في منتهى التعقيد. والذي يزيد في تعقيدها اختفاء هشام من البيت. فأين هشام؟

أيكون أنّه استطال غيبتي فمضى في نزهة خارج الضيعة؟ ولكنّه من غير المعقول أن يبقى خارج البيت من بعد أن هبط الليل. ألعله في الدور السفليّ من البيت؟ ولكنّنا نهجر ذلك الدور في الصيف ولا نلجأ إليه إلّا في الشتاء.

وأنحدر إلى الدور السفليّ فأتفقّده شبرًا شبرًا دون أن أقع فيه على أيّ أثر لهشام. إذ ذاك ينتابني شبه نوبة من الجنون. فأعود أدراجي إلى الدور العلويّ وأمضي أفتح الأبواب وأغلقها. فلا أنسى حتّى الخزانات التي في الغرف. وأنبطح على بطني أفتّش تحت الأسرّة والطاولات والأرائك، ولا أنفكّ أنادي: «هشام!» فلو أنّ غريبًا رآني وسمعني وأنا في تلك الحالة لما شكّ في أنّني قد فقدت عقلي.

عدت للمرّة الثالثة، أو الرابعة، إلى غرفة النوم – غرفتي. وعلى غير هدى أخذت أزحزح الأشياء التي فيها من أمكنتها، وأرفع الأغطية حيثما وجدت. وإذا بي، عندما رفعت الغطاء عن سريري، ألمح ورقةً بيضاء مطويّة. فآخذها وأفتحها ثمّ أقرأ ما فيها فلا أصدّق ما أقرأ. والذي قرأته كان ما يلي:

«لا تفتّش عن هشام، وفتّش عن نفسك. فأنت متى وجدت نفسك وجدت فيها كلّ شيء، وكلّ إنسان.

«أنت ضائع، وجارك ضائع، وجار جارك ضائع. كلّكم يشرب الماء الأجاج ويعجب كيف أنّه لا يرتوي. كلّكم يقتات بالموت ويعجب كيف أنّه لا يحصل على الحياة. كلّكم يبحث في الجليد عن النار، وفي الحديد عن النّور.

«الذين اهتدوا إلى أنفسهم من أبناء الأرض هم القلّة المغبوطة في الأرض والسماء. وهشام سيكون منهم، وسيكون هاديًا للضائعين والتائهين. ولكن من بعد أن يستكمل عُدّته.

«وهشام سيستكمل عُدّته في عهدتي. وحيث يكون لن تكون. فلا تبحث عنه.

«حسبك شرفًا أن تكون والدًا لهشام، وأن ترعاه إلى حين. فالمحبّة التي أغدقتها عليه ستكون أكبر العون لك في يومك الأخير.

«حذار أن تطلب لمحبّتك ثمنًا. كأن يبقى هشام في كنفك، وفي متناول يدك وبصرك. فالمحبّة التي تتقاضى أجرًا تنقلب دَينًا في عنق المحبّ.

«هشام سيبقى يحبّك حيثما كنت. فأحببه حيثما كان. ولا تنسَ أنّ الحياة لباب وقشور.

«فتّش عن اللباب في القشور، فالقشور للفناء، واللباب للبقاء. ولا يستوي العميان والمبصرون.

اللامسمّى»

قرأت الورقة مرّات ومرّات. حتّى بتّ أشعر كأنّ جميع كياني فرغ من كلّ شيء إلّا منها، وكأنّ العالم الذي كنت أعيش فيه وأحسبه من السعة والثبات بمكان أخذ ينهار من حواليّ، ويهرب من تحت قدميّ. وعبثًا حاولت أن أردّه إلى حيث كان. أو أن أتمسّك منه بشيء نظير ما يتمسّك الغريق بخشبة.

لكأنّ النار التي أخذت تتأكّلني منذ نصف الليل لم تكن كافية لتقضي عليّ حتّى جاء هذا اللامسمّى، يصبّ عليها زيتًا وكبريتًا. ومَن هو هذا اللامسمّى، وما دخله في بيتي وفي حياتي، وما شأنه من ولدي الذي هو فلذة من كبدي؟ أفما من سبيل إليه وإلى تخليص هشام من يديه؟ ولكن في كلماته من قوة الجزم ما يجعل كلّ محاولة للاهتداء إليه مضيعة للوقت. «لا تفتّش عن هشام، وفتّش عن نفسك». هذه كلمات قاطعة لا تقبل الشكّ والجدل.

هشام – ولدي الحبيب – أملي الأخضر وعزائي الأكبر؛ هشام الذي ردّ بسمة الحياة إلى شفتيّ عندما ارتدّت العافية إلى ساقيه وارتدّ النطق إلى لسانه؛ هشام الذي كنت أمنّي نفسي بوليمة ولا كالولائم عندما تعود أمّه الليلة فأرى الغبطة تملأ وجهها وهي تضمّه وتقبّله ولا تصدّق أنّه عاد شابًّا وسيمًا وسليمًا؛ هشام الذي بات يملأ بيتي والذي سيحمل اسمي من بعد مماتي – كيف أطيق أن أبقى بعده دقيقة في بيتي؟ وما معنى النفَس في صدري لا أثر فيه لأنفاس هشام؟

لا. لا. هذا فوق طاقتي. هذا وقتك يا موت. فما بالك تتلكّأ وتتباطأ؟ ما بال الدقائق أصبحت تدبّ بأرجل من رصاص وكانت تمتطي البرق من قبل؟

«لا تفتّش عن هشام، وفتّش عن نفسك».

وماذا تراني فعلت منذ نصف الليل غير التفتيش عن نفسي؟ وماذا نالني من تفتيشي غير عناء التفتيش؟

وبغتة خطرت في بالي المرجة الخضراء بين الصخور. هناك وجدت نفسي لأوّل مرّة في حياتي. نعم. هناك ذاب الثلج المتجمّع حول الحصاة التي أدعوها «أنا» فأصبحتُ ولا حاجز بيني وبين أيّ شيء في الكون. وأصبحت أعتق من أيّ ماضٍ، وأطول من أيّ حاضر، وأبعد من أيّ مستقبل. لقد تعطّل في ذهني الزمان، وتقلّص المكان، وغابت عن خاطري كلّ خداعات التقلّبات والمناقضات. فلا أنا وُلدت. ولا أنا سأموت. ولا أنا ههنا. ولا أنا هنالك.

في تلك المرجة انفتحت في داخلي كوّة أطللت منها على الكنز المدفون في أعماق كياني. وذلك الكنز هو نفسي. فما بال نفسي تهرب منّي الآن؟ ما بال المرجة تتبدّل أعشابها الطريئة أحساكًا، وأزهارها البديعة أشواكًا؟ ما بال الكوّة ينغلق بابها، والكنز ينخطف بريقه؟ ما بال الحصاة النقيّة تعود ركامًا من الثلج؟

وهذا اللامسمّى – هذا الغريب الملفّح بالأسرار، والذي يتدفّق ما يشبه السِّحر من عينيه الواسعتين، الهادئتين – أتراه يملك سرّ الاهتداء إلى النفس؟ أتراه مضى بهشام إلى حيث يدرّبه على الوصول إلى ذلك السرّ؟

ههنا قفل ضاع مفتاحه. ولولا أنّني فتحت ذلك القفل مرّة من قبل، وأبصرت الكنوز المدهشة التي وراءه، لما كنت واثقًا من وجوده ووجود مفتاحه. لقد لمست المفتاح بيدي. وبيدي فتحت القفل والباب. وها أنا أبحث الآن، وفي كلّ مكان، عن ذلك المفتاح فلا أجده، لقد بقي الباب والقفل، وضاع المفتاح.

وأمّ زيدان؟ تبًّا لي. لقد شغلتني نفسي، وشغلني هشام، عن تلك العجوز الطيّبة. وكيف أهتدي إلى نفسي ما دمت أهمل نفسًا حبيبة كأمّ زيدان؟

لم أصدّق عينيّ عندما عدت إلى المطبخ فوجدت أمّ زيدان واقفة على رجليها، وفي يدها ملعقة تحرّك بها قِدْرًا على النار. وكان ظهرها نحوي، فلم تنتبه إليّ حتّى أصبحت على قيد خطوة منها. فأجفلت، ووقعت الملعقة من يدها على الأرض، ثمّ استدارت نحوي وشهقت شهقة طويلة انفجر الدمع على أثرها من عينيها، وطفقت تردّد:

– اسم الله! اسم الله! ! اسم الله! ! !

وبلمحة الطرف اندفعت نحوي، فطوّقتني بذراعيها، وألقت برأسها على كتفي، ومن دون أن تحبس دموعها راحت تؤنّبني بلهجة هي الرقّة والتحنان والمحبّة في أصفى منابعها:

– أهكذا تفعل بي يا ابني؟ ما هذه الغيبة الطويلة، وأين؟ عند أبي فرحات؟ وماذا عند أبي فرحات، وقد هبط الليل من زمان، وأنت وحدك، وطريقك وعر في جبال وعرة؟ لا كان الشيطان ووسوسات الشيطان. فقد راح يصوّر لي أنّك تدهورت في سيارتك، وأنّك في قعر وادٍ مظلم تستغيث ولا مغيث. أو أنّ لصوصًا قطعوا عليك الطريق فأثخنوك جراحًا وتركوك بين حيّ وميت. ما حيلتي؟ حاولت أن أطرد من رأسي أفكار السوء فكان أن ازدادت أفكاري سوءًا. قاتل الله العجائز، ما أوهى قلوبهنّ وأسخف عقولهنّ! وزاد في الطين بلّة أنّ صاحب الجبّة الزرقاء والعمامة الزرقاء جاء فسألني عنك أوّلًا. ثمّ لم يلبث أن خرج مع هشام في نزهة. هكذا قال لي. ولكنّه لم يرجع. ولم يرجع هشام. ولا رجعت أنت. وأقبل الليل. وأمّ زيدان وحدها في هذا البيت كالبومة.

فهل تلومها إذا طارت جميع الأفكار من رأسها إلّا أفكار السوء؟ لا كانت أمّ زيدان... وكيف دخلت البيت دون أن أسمعك؟

عصرت كلمات العجوز قلبي، وحاولت جهدي أن أهدّئ من روعها. وما كان لي، بالطبع، أن أخبرها عن الكنز، وعن الصيّاد، وعن المستشفى والمدّعي العامّ. ولكنّي عجبت لصمتها التامّ عن الحالة التي وجدتها فيها عند عودتي إلى البيت. أمن الممكن أنّها لم تشعر بها؟ هكذا يبدو. ولولا ذلك لجاءت العجوز على ذكرها من غير شكّ.

بقيت في حيرة من أمر هشام واللامسمّى، والورقة التي تركها لي هذا الأخير. أأطلع أمّ زيدان على ما أعرف أم أسكت؟ وقرّرت أنّ السكوت أجدى. فأيّ خير لأمّ زيدان أن تقف منّي على مضمون تلك الورقة وهي، بالتأكيد، لن تفهم منها شيئًا، ولن تزيدها غير تشويش في تشويش، وحرقة فوق حرقة؟

وأنهت العجوز شكواها بالسؤال:

– أما تريد أن تتعشّى يا روح أمّ زيدان؟ أم تنتظر ريثما يعود هشام؟ يقبرني هشام.

ولأنّني كنت أعرف أنّ هشامًا لن يعود، وكنت أخشى أن أمّ زيدان قد اشتدّ بها الجوع، أجبتها:

– بل نتعشّى الآن. فنزهة هشام قد تطول.

وسرّني أن تقبل أمّ زيدان على الطعام بشهية كبيرة. أمّا أنا فقد سايرتها مسايرة لا أكثر. وتظاهرت بالأكل دون أن آكل. فالجوع الذي كان ينهشني كان جوعًا إلى أكثر من الخبز والأدام.

الساعة الواحدة والعشرون

ما كاد ينتهي العشاء حتّى أحسستني ماكينة معقّدة التركيب وقد أوشكت أجزاؤها أن تنفرط. فالدماغ في خدَر، وهو يأبَى أن يستعيد صورة قديمة أو أن يتقبّل صورة جديدة. واليدان والرجلان تضنيهما أيّ حركة. واللسان يستثقل مضغ الحروف والكلمات. والأذنان تضيع فيهما الأصوات. والأجفان تأبى إلّا الانطباق. لقد أخذ العياء والنعاس منّي كلّ مأخذ، وأعصابي تُضرب عن العمل.

لذلك انسحبت إلى غرفتي قبل أن يتعذّر عليّ الانسحاب. وأوصيت أمّ زيدان بأن لا تزعجني ولا تدع أحدًا يزعجني.

– وهشام؟ بالي مشغول عليه.

وأغلب الظنّ أنّ أمّ زيدان عادت فآخذت نفسها على الكلمات التي بدرت منها. فقد رأتني أترنّح كالسكران. وكنت، في الواقع، في مثل ما يشبه السكر. وكانت الأسماء والأشياء وكأنّها أشباح مبهمة وأصداء بعيدة لا وزن لها ولا معنى ولا قيمة: هشام. اللامسمّى. رؤيا. موسى. عيسى. محمّد. نهار. ليل. حياة. موت. أمس. اليوم. غدًا. حقّ. باطل. نعيم. جحيم. وغيرها وغيرها – كلّها دندنة أو طنين ذبابة على لوح من زجاج. إلى ذلك الحدّ تفكّكت اللوالب التي كانت تشدّ بعضي إلى بعض. فلا عجب أن أدركني النوم حالما استلقيت على سريري، دون أن أنزع شيئًا من ثيابي.

ما أظنّني استغرقت في النوم أكثر من ساعة. ولكنّه كان نومًا مشحونًا بالأحلام. وأبرزها حلم غريب ما تزال جميع تفاصيله ودقائقه محفورة في ذهني وماثلة أمام عينيّ:

أنا على ضفّة نهر عظيم الاتّساع، عظيم العمق، يجري وكأنّه لا يجري. وعندما يبلغ النقطة التي أنا فيها يدخل نفقًا مظلمًا ويحتجب عن السمع والبصر. أمّا من أين يجري وإلى أين، فلا عيني، ولا أذني، ولا فكري، ولا خيالي بقادرة أن تعطيني جوابًا. والذي حملني إلى حيث أنا رجل نصفه – من أعلى إلى أسفل – أبيض، ونصفه الآخر أسود. وقد جلس بجانبي ونصفه الأبيض يلاصقني.

على وجه النهر، وعلى امتداد البصر، تزدحم سفن وزوارق وقوارب متفاوتة الحجم والشكل واللون، ولا حصر لأعدادها. وكلّها يجري مع النهر إلى أن يبلغ النفق فيختفي فيه. وقد قال لي الرجل الأبيض والأسود عندما وضعني حيث أنا:

«لقد جئت بك إلى هنا لترى بأمّ عينك الجنازة الأبدية».

أبصرت، أوّل ما أبصرت، مركبًا عظيمًا تدلّت من جوانبه الأزهار، وتلألأت صواريه ونوافذه بالأنوار، وصفّقت من فوقه الأعلام، واكتظّت ردهاته وممراته بالراقصين والراقصات تساوقهم في حركاتهم أمواج من الموسيقى يترنّح لها حتّى الهواء. وسمعت الراقصين والراقصات يهتفون بحياة الملك والملكة وحياة المولود السعيد. وفهمت أنّ المولود هو وليّ العهد. فسألت الرجل الأبيض والأسود بجانبي:

– ما هذا؟

فكان جوابه:

– هذه جنازة أكبر مملكة في الأرض، وجنازة ملكها وملكتها ووليّ عهدهما.

ولم يلبث المركب العظيم أن دخل النفق حيث ابتلعته الظلمة بكلّ مَن فيه وما فيه.

ثمّ أبصرت قاربًا صغيرًا قادمًا من بعيد وفيه رجلان يضربان وجه النهر بمجذافيهما ضربًا عنيفًا. وعندما اقتربا من النفق توقّفا قليلًا ليمسحا العرق المتصبّب من جبهتيهما. وسمعت أحدهما يقول:

– نحن رجال الدين أوسع الناس سلطانًا في الأرض وأقلّهم حظًّا من خيرات الأرض.

وسمعت الآخر يجيب:

– بالحقّ نطقت يا أخي. ألسنا أطبّاء أرواح! وأين قيمة الجسد من قيمة الروح؟ وها هم أطبّاء الأجساد يتقاضون لطبابتهم أفحش الأجور. فيبنون القصور، وبشتّى أسباب الرفاهية ومظاهر الإجلال ينعمون.

– أجل. أيّهما أنفع للناس: ذلك الذي يجبر عظمًا كسيرًا أم الذي يجبر قلبًا كسيرًا؟ وذلك الذي يستأصل بمبضعه المرارة والزائدة الدوديّة. أم الذي يستأصل بصلواته الأوبئة النفسانيّة؟ وذلك الذي يخفّف من أوجاعك لساعة أو لعام، أو الذي يتوسّط لك مع الرحمن الرحيم ليُسكنك جنان النعيم، لا لساعة أو لعقد من السنين، بل إلى أبد الآبدين؟

والتهى الرجلان عن النهر بالحديث. ولكنّ النهر لا يلتهي بشيء. فما هي غير لحظات حتّى دخل القارب النفق وغاب في الظلام.

وأبصرت، في ما أبصرت، قاربًا آخر في مثل حجم الأوّل. وكان في القارب رجلان، وقد أكبّ أحدهما على مجهر، وتمسّك الثاني بمرقب. وقد سمعت الأوّل يقول:

– حتّى متى تعذّبنا هذه الذريرات المتناهية في الصغر؟ أما لها من نهاية تقف عندها فنهتدي إلى كنهها؟

فيقول الآخر:

– حتّى متى تعذّبنا هذه العوالم المتناهية في البعد والكبر؟ أما من نهاية لأبعادها وأحجامها؟

ولم يلبث القارب أن غاب في النفق.

وأبصرت بعد ذلك قاربًا ثالثًا فيه امرأتان عاريتان، وقد تهدّل اللحم على صدريهما وعلى أوراكهما. وسمعت إحداهما تقول لرفيقتها:

– لم أتوقّق في حياتي مثلما توقّقت الليلة البارحة. فقد جاءني أمير من الصحراء. وكان بخيلًا، على عكس ما توقّعت. فلم يدفع لي عند انصرافه قبيل الفجر إلّا مبلغًا زهيدًا جدًّا. ولكنّه نسي محفظة نقوده عندي وفيها ألف دينار وخاتم ألماس ثمين. فأخفيت الخاتم واقتسمت النقود مع القوّادة. واتّفقنا أن ننكر عليه المحفظة إذا هو جاء يطلبها. وهكذا كان.

فقالت رفيقتها:

– أمّا أنا فقد بدّلت في ليلتي ثلاثًا – شابًّا وكهلًا وشيخًا. وكان الشيخ أكرمهم فنفحني بمائة دينار.

وغاب القارب في النفق المظلم ومعه المومسان. ثمّ أبصرت زورقًا في منتهى الروعة. وكان في الزورق فتى يداعب أوتار قيثار، وقد اتّكأت بجانبه فتاة هي أقرب إلى البشاعة منها إلى الجمال. وسمعت الفتى ينشدها الشعر فيتغنّى بسواد شعرها، وبسحر جبينها وحاجبيها وعينيها، وبجمال ثغرها ووجنتيها، ومرمر صدرها ونهديها، وبدا لي أنّ نشوة الشاعر وفتاته كانت في عنفوانها عندما انزلق الزورق إلى جوف النفق وغاب في ظلماته.

ثم أبصرت بارجة هائلة تشقّ الماء بزخم وسرعة. وقد نبتت على ظهرها غابة كثيفة من الصواريخ، وأطلّت من بين الصواريخ فوهات مدافع كثيرة. وفي ظلّ الصواريخ والمدافع أبصرت طاولة مستديرة وقد جلس إليها عظماء العالم. وكان كلّ واحد منهم مدجّجًا بالسلاح. وكانوا يتفاوضون في قضيّة نزع السلاح. وسمعت رئيسهم يقول:

– لقد بات السلاح، أيّها الإخوان، عبئًا ثقيلًا يرهق كواهلنا وكواهل شعوبنا.

وسمعت أحدهم يضيف:

– وبات السلاح خطرًا يهدّدنا ويهدّد شعوبنا بالفناء.

فأضاف ثالث:

– وبات لزامًا علينا أن ننزع السلاح رأفة بأنفسنا وبشعوبنا. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ ومن أين نبدأ؟

وهنا تعالت الأصوات، وتضاربت الآراء، واختلط حابل القوم بنابلهم. ولم أسمع واحدًا منهم يقول:

– تعالوا، أيّها الإخوان، ننزع من قلوبنا ورؤوسنا جميع الشهوات والأفكار التي لولاها لما كان السلاح. تعالوا نفتّش عن هدف لوجودنا غير الكسب والنفوذ والسلطان.

وظلّ القوم يتجادلون ويتماحكون وبشتّى التهم والشتائم يتراشقون إلى أن ابتلعهم النفق وغيّبتهم ظلماته.

ورأيت بعد ذلك مركبًا في شكل معبد بديع الهندسة، وقد تعالت قبابه المذهّبة إلى السماء وراحت تتلألأ في الشمس بأنوار تبهر الأبصار. وسمعت ترانيم المصلّين تتدفّق من المعبد أمواجًا تلو أمواج:

«اللهمّ نحن عبيدك. منك حياتنا. وفي يدك مماتنا. اللهمّ اعطنا العافية، والثروة، والعزّة، والكرامة، والقوّة، والحرّيّة، وجميع أسباب السعادة. اللهمّ مكّنّا من اعدائنا، ولا تمكّن أعداءنا منّا. اللهمّ نحن أخلصنا لك العبادة فانصرنا. وأعداؤنا لم يخلصوا لك العبادة فأخذلهم. اللهمّ ادفع عنّا غضب الطبيعة وغضبك. وأجزل لنا الأجر في هذه الدنيا وفي الآخرة».

ولكنّ النهر لم يلبث أن جرف ذلك المعبد البديع وجميع مَن فيه إلى النفق حيث ابتلعتهم الظلمة وابتلعت صلواتهم.

وتتالت أمام عينيّ أشكال وأشكال من المراكب والزوارق والقوارب. فهذا مصرف. وذلك معهد علمي. وهذه مزرعة. وتلك صومعة. إلى آخر ما هنالك من الأمور التي يتعاطاها الناس في حياتهم من يوم ليوم. وجميعها كانت تجري في النهر إلى حين ثم تبلغ النفق فتدخله وتختفي فيه.

لم يقتصر الذي رأيته على مشاهد الناس وما يجري لهم في حياتهم، بل كانت هنالك جبال، وغابات، وطيور، وحيوانات، وحشرات، وبحور، وبحيرات، حتّى وشموس وأقمار ومجرّات تجري زمانًا في ذلك النهر فتبلغ النفق وهناك تضيع في الظلمات.

أخيرًا قلت للرجل الأبيض والأسود الجالس بجانبي:

– ما قصدك من عرض هذه الأمور عليّ؟ إنّه لعرض رهيب. ولكنّه مملّ.

فأجابني:

– قصدي، كما سبق وقلت لك، أن ترى الجنازة الأبديّة. كلّ ما يجري في نهر الزمان ينتهي إلى نفق الظلمات. كلّ ما لا يثبت على حال مآله إلى الزوال.

قلت:

– وهل هنالك ما يثبت على حال؟

قال:

– إنّه الذي يُجري ولا يَجري. الذي يغيّر ولا يتغيّر. الذي يتستّر عن الأشياء بالأشياء، ويذيع ذاته لكلّ ذات انعتقت من ربقة الأشياء. إنّه أنت، وأنت هو. إنّه قاهر الزمان.

– وهل لي، أو لأيّ الناس، أن نقهر الزمان؟

– أجل. إذا أنت جذّفت ضدّ مجرى النهر الذي هو الزمان، فبلغت منابعه وتعدّيتها إلى حيث لا زمان ولا مكان، بل الذات التي ليس لوجودها بداية، فلا يمكن أن تكون لها نهاية.

وتوقّف الرجل هنيهة ثمّ تابع:

– انظر إليّ جيّدًا. كيف تراني؟

– أرى نصفك الأقرب منّي أبيض. والنصف الأبعد عنّي أسود.

– إذن لن يكون في مستطاعك أن تجذّف ضدّ مجرى نهر الزمان، وأن تبلغ منابعه فتتعدّاها إلى حيث لا زمان ولا مكان، ما دمت تبصرني في شكلين متناقضين.

لبثت فترة كالمصعوق. فلا أنا أستطيع فهم ما يقوله الرجل، ولا أنا أملك الجرأة على البوح بأنّني لا أفهم. وأيقنت أنّني لو طلبت إليه المزيد من الشرح لما فهمت. فآثرت السكوت.

وبغتة انقطع سيل المراكب والزوارق والقوارب على صفحة النهر وأطلّ من النفق زورق صغير فيه رجلان. وكان الزورق يجري ضدّ مجرى النهر، والرجلان اللذان فيه يجذّفان بمنتهى النشاط من غير أن يبدو في حركاتهما أيّ تردّد أو عياء أو وجل.

وما كان أشدّ دهشتي عندما اقترب الزورق منّي فتميّزت الرجلين اللذين فيه وإذا بهما اللامسمّى وولدي هشام! عندئذ، وعن غير وعي منّي، انتصبت واقفًا ومددت ذراعيّ إلى الأمام كمن يحاول أن يقفز إلى الزورق المنطلق نحو منابع النهر، ثمّ صحت بكلّ ما في حنجرتي من قوّة:

«هشام! خذني معك!!»

وللحال أفقت من نومي وقلبي ينتفض حتّى ليكاد يطير من بين ضلوعي...

الساعة الثانية والعشرون

أمّ زيدان تنقر على بابي نقرًا لطيفًا. إنّها تخشى أن أستغرق في النوم فيفوتني الموعد مع رؤيا في المطار. وفي الوقت ذاته تريد لي أن أستردّ نشاطي وقد مضى عليّ أكثر من عشرين ساعة لم أذق في خلالها طعم النوم.

– يا تقبرني أنت. لا قلبي يطاوعني أن أوقظك. ولا هو يرضى لأمّ هشام أن تبلغ المطار فلا تقع عينها على هشام وأبي هشام. كم كنت أتمنّى أن أكون معكم عندما ترى السيّدة رؤيا هشامها الحبيب وقد استردّ عافيته. نشكرك يا ربّي ونحمدك. هذا أكثر ممّا نستأهل – ممّا أستأهل أنا.

– لا مانع من مجيئك معنا يا أمّ زيدان.

– لا. لا. عليّ أن أزيّن البيت بالأزهار والأنوار. وعليّ أن أهيّئ لكم العشاء. وقد باشرت العمل في العشاء منذ الظهر تقريبًا. ولا يجوز أن تعود أمّ هشام إلى البيت فتجد الأبواب مغلقة في وجهها. لا. لا. يجب أن أبقى في البيت، وأن أستقبل الستّ رؤيا عند البوّابة الكبيرة. تقبرني الستّ رؤيا كم أنا مشتاقة إليها!

– كما تريدين يا أمّ زيدان.

– بل كما يقضي الواجب. ولكن... أما آن لهشام أن يعود من نزهته؟

– هشام مضى في نزهة نهريّة. والنهر طويل. ومنابعه بعيدة. وهو يجذف ضدّ مجرى النهر، ولن يعود حتّى يدرك منابعه.

– أي نهر هذا؟

– نهر الزمان.

– لم أسمع في حياتي أنّ في بلادنا نهرًا بمثل هذا الاسم.

– بل هو في بلادنا وفي كلّ البلاد.

– ولماذا اهتمام هشام بمنابع ذلك النهر؟

– لأنّه إذا بلغها عرف من أين البطّيخة والسّمسمة، والثور والبرغشة، والمختار وأمّ زيدان، ولماذا يولدون ويتكاثرون ثمّ يموتون. وعرف لماذا نصف الكون أبيض ونصفه الآخر أسود.

– يعني أنّه صار مثل الله؟ نجّنا يا الله! هذا هو الكفر بعينه. هذا هو الجنون. عجّل وزوّجه يا دكتور. حينئذٍ يعود عقله إلى رأسه. كلّ الشبّان في مثل سنّه يفقدون عقولهم. عجّل بزواجه. ابنة السلطان تموت على ظفره. يجب أن لا تطيل له الرسن. هذه النزهة النهريّة لا تدخل في مشطي. فتّش له عن ابنة حلال وزوّجه حالما يعود.

– أما سمعت بالنفق المظلم يا أمّ زيدان؟

– أيّ نفق تعني؟

– النفق الذي داخله مفقود والخارج منه مولود. وهشام قد خرج من ذلك النفق. أمّا أنا وأنت ورؤيا وجميع المخلوقات فسندخله لنبقى فيه.

– لست أفهم. لست أفهم. هذا حديث تركي. من رأيي أن تزوّج الصبي في الحال. أمّا الرأي الأخير فلك ولأمّه.

– سنرى يا أمّ زيدان. سنرى.

– والأفضل أن تبعث في طلبه الآن. أبعيد من هنا هذا النهر الذي تحدّث عنه؟

– نعم. بعيد.

– أرسل في طلبه الآن إكرامًا لأمّه. فشوقها إليه، لا شكّ، شوق عظيم.

– سنرى يا أمّ زيدان. سنرى.

– من كلّ بدّ. من كلّ بدّ. حرام أن تعود الستّ رؤيا بعد غياب سنة كاملة فلا ترى ولدها الحبيب في استقبالها.

– سنرى. سنرى.

انصرفت أمّ زيدان من عندي، وكنت أودّ لو لم تنصرف. فقد بتّ أخشى أن أبقى في خلوة مع نفسي من بعد أن تنكّرت لي نفسي. فكأنّها،حتّى منتصف الليلة البارحة، كانت سافرة. وكأنّها، بعد ذلك، قد تحجّبت بألف حجاب. لقد كنت، قبل أن يهتف بي هاتف نصف الليل، أسير ونفسي مع النهر العظيم مثلما يسير غيري من ربوات المخلوقات. وكنت أتوقّع أن يصيبني رذاذ من خير النهر وشرّه. فأطمع من الخير بأوفر نصيب. وأحطاط للشرّ ما وسعني الاحتياط. وإذا حدّثني محدّث عن النفق المظلم الذي ينتهي إليه كلّ السائرين مع النهر تناسيت الحديث أو تلهّيت عنه بمشكلات ساعتي.

أمّا الآن وقد رأيت النفق الرهيب بأمّ عيني، وكيف أنّه يبتلع كلّ ما ليس يثبت على حال، فقد بات يغريني أن أعرف إذا كان في نفسي ما ليس عرضة للتبدّل والتغيّر مع الأحوال، وكيف

الاهتداء إليه لعلّني أستطيع أن أحيا به وحده فلا أتبدّل ولا أتغير.

إنّي أريد أن أتعرّى من جميع الزوائد والفضلات. فلا تنهشني الثواني والساعات، ولا تخطف بصري الظلمات، ولا تبري قدميّ الفلوات والمسافات. ولكنّني لا أدري كيف أبدأ ومن أين. إنّي أريد للحصاة التي هي أنا – التي هي جوهري الأزليّ، الأبديّ – أن يذوب عنها ركام الثلج والجليد الذي التصق بها على مدى السنين فبتّ أحسبه وكأنّه أنا؛ وكأنّه جوهري الأزليّ، الأبديّ.

أقول ذلك، ثمّ أعود فأحاسب نفسي. وإذا بي في هذه الساعة غير ما كنت قبل نصف الليل. فها أنا أفكّر في الجامعة وكأنّني أفكّر في حفنة من الرمل على شاطئ البحر. فلا يهمّني انقطع فيها عملي أو استمرّ. ولا يهمّني أزاحمني أحد زملائي على منصبي فاغتصبه منّي، أم زاحمته فقهرته. ولا يهمّني ما يقوله فيّ طلّابي والأساتذة وباقي الناس من خير ومن شرّ. ثمّ ها أنا يهجرني ولدي ووحيدي فلا أشعر أنّ الحياة قد هجرتني، وأنّ الأرض قد زُلزلت من تحت قدميّ، وأنّ السماء قد هوت على رأسي. وكنت، قبل ساعات، أسهر الليالي أفكّر في هشام، وإذا قيل لي إن شوكة أدمت إصبعًا من أصابعه اضطرب قلبي، وتشتّت فكري، وغام بصري.

وعندما هجرتني زوجتي تمنّيت لو تنشقّ الأرض وتبتلعني. وعندما جاءني خبر منها عن توبتها وعن أوبتها كاد يطير عقلي من شدّة فرحي. وها أنا، في هذه الساعة، لو قيل لي إن رؤيا عادت إلى عشيقها وعدلت عن العودة إليّ لما انقبض قلبي، وتوتّرت أعصابي، وأظلمت الدنيا في عينيّ.

ثمّ ها أنا أفكّر في الموت فلا أرتجف فَرَقًا من الموت كما فعلت عندما سمعت الهاتف في نصف الليل. والنفق الرهيب المظلم الذي أبصرته في حلمي قبل قليل لا يخيفني ما دام في استطاعة بعض الناس أن يخرجوا منه ويجذّفوا ضدّ مجرى النهر حتّى منابعه.

أليس معنى ذلك كلّه أن الدكتور موسى العسكري قد اكتسب في خلال ساعات مناعة ضدّ تقلبات الزمان لم يكتسبها في خلال سنوات؟

بلى. بلى. ولكنّه من الحكمة يا دكتور، وأنت تودّع يومك الأخير، أن لا ترحل عن هذه الفانية وتترك خلفك مشكلات ومتاعب لغيرك. أجل. إنّه لمن الخير لك أن تكتب وصيّتك قبل فوات الأوان.

ويجمد فكري عند هذه النقطة. إلّا انّني لا ألبث أن أعود فأقول: «دعك من هذه التوافه يا دكتور. فأبواك ما ورّثاك شيئًا من خيرات الأرض. وخيرات الأرض ما كانت يومًا من الأيّام وقفًا على أيّ إنسان، أو أيّ جماعة من الناس، دون كلّ الناس. إنّها تمرّ بأيدي الناس مرور الكرام. فالذين حُرموا منها الآن لسبب من الأسباب لن يُحرموا منها إلى الأبد. والذين يستمتعون بها اليوم لن يستمتعوا بها غدًا وبعد غد. فما أكثر الذين اغتنوا من بعد فقر. وما أكثر الذين افتقروا من بعد غنى. أما قلت من قبل إنّ الأشياء تتملّك مالكيها؟ ومن ثمّ فللطبيعة ميزان لا أدقّ ولا أعدل. فهي ما

بحبحت لأيّ الناس في أيّ شيء إلّا تباخلت عليه في أشياء. وهي ما قتّرت على إنسان في جانب إلّا سخت عليه في جوانب أخرى».

وهكذا أرحت فكري من قضيّة الوصيّة.

وحانت منّي التفاتة إلى الساعة التي على معصمي فإذا بها قد جاوزت العاشرة. فلا بدّ من الذهاب إلى المطار. والعجيب أنّ حماستي للقاء رؤيا أخذت تعلو وتهبط فكأنّها النار في الهشيم – تشبّ فتحسبها ستلتهم كلّ شيء في طريقها، ثمّ تخمد فتحسبها انطفأت. ثمّ تعود فتشبّ من جديد.

بلى. بلى. إلى المطار.

الساعة الثالثة والعشرون

أيّ قفزة هائلة قفزها الإنسان في نصف قرن!

من الحمار والبغل والحصان والبعير إلى الطائرات النفّاثة التي تقطع الف كيلومتر في الساعة، وتصعّد في الجوّ عشرات الكيلومترات، وتحمل من الركاب المائة والمائتين وأكثر. وإلى الصواريخ التي تفوق سرعتها سرعة الصوت؛ والأقمار الصناعيّة التي تدور حول الارض والقمر؛ والمراكب الفضائيّة التي تحمل البشر أيّامًا في طبقات الجوّ العليا.

ومن أسلاك التلفون والتلغراف إلى الراديو والرادار والتلفزيون. ومن السينما المسطّحة، الخرساء، والسوداء والبيضاء إلى السينما الملوّنة، الناطقة، وذات الثلاثة الأبعاد. ومن المدفع والبندقيّة إلى القنبلة الذرّيّة والهيدروجينيّة. ومن الاقطاعيّة إلى الرأسماليّة فالاشتراكيّة فالشيوعيّة. ومن المحراث والمنجل إلى التراكتورات والحاصدات. ومن استعمار الضعفاء واستثمارهم إلى استقلالهم في إدارة شؤونهم واستغلال خيراتهم لسدّ حاجاتهم.

لقد وسّع الإنسان كثيرًا في نطاق العالم الذي يعمل فيه بعقله ويده، ولكنّه لم يوسّع طول قمحة في حدود العالم الذي يعيش فيه بروحه وقلبه. فهو ما يزال، كما كان منذ أقدم الأزمان، يحاول المستحيل: يصادق بعض الكون ويعادي الآخر. فيختار أشياء وينبذ أشياء. وإذا بالحياة تعبث بصداقاته وعداواته، وبما يختار وينبذ. فتكرهه على نبذ ما يختار، واختيار ما ينبذ؛ وعلى مصادقة الذين عاداهم، ومعاداة الذين صادقهم. إنّه يريد أن يسلب النحلة عسلها دون أن يتعرّض للَسعة من إبرتها. إنّه يصرّ على غربلة الحياة، ولا يخامره أقلّ الشك في أنّ غرباله هو أدقّ الغرابيل، وأنّه يسع الحياة. وهو لذلك لا يسمع صوت الحياة المردّدة دائمًا أبدًا:

«مَن غربلني غربلته. ومن تقبّلني كما أنا تقبلته كما هو».

في مثل هذه الأمور كنت أفكّر وأنا في طريقي إلى المطار. وكان من الجليّ عندي أنّ فكري، مهما اتسع، لن يسع جميع ما في الكون. فما دام في الكون ما يزعجني دمت بعيدًا عن الانسجام مع

الكون. وأنا ما لم أنسجم مع الكون انسجام قطرة الماء مع البحر سأبقى في صراع مع الكون. وسيبقى الكون يصرعني لأنّه موحَّد في ذاته، وأنا منقسم على ذاتي. وإذ ذاك فلا بدّ لي من أن أتوحّد مع ذاتي أوّلًا لأصبح وحدة مع ذات الكون.

وأنا في الطريق أطلّ القمر من فوق الجبل، فلم يسعني إلّا أن أتوقّف قليلًا لأستمتع بالسحر الذي نشره ضوؤه الحالم على الدنيا الغافية من حواليّ. إنّها غير الدنيا التي يفضحها نور الشمس في النهار. وليس لي أن أقول أيّهما الأجمل والأبهى. فكلتاهما في غاية الروعة. وأسأل نفسي عن «واقع» الأشياء ما هو؟ فالأشياء في الظلام غيرها في ضوء القمر. وفي نور الشمس غيرها في الضباب، وفي ظلال الغيوم، أو تحت وابل من المطر. وهي، وقلبي في عرس، غير ما هي وقلبي في مأتم. فكيف لي أن أجزم بأنّ «الواقع» هو هذا، وليس ذاك أو هذاك؟

ربّاه، كم أودعت لنا من الاغراء والفتنة في الأشياء! وهي، إلى ذلك، أشياء لا تلبث أن تزول. ولكنّ القلب يتعلّق بها، والفكر ينخطف بجمالها. فكيف لنا أن نخلّص القلب والفكر من فتنتها كيلا يزولا بزوالها؟ أم أنّ القلب كذلك شيء من الأشياء، والفكر شيء من الأشياء، وكلاهما معرَّض للتبدّل بتبدّل الأشياء، وللزوال بزوالها؟ أمّا الذي لا يتبدّل ولا يزول فهو ذاتك التي هي ذاتنا، والتي شغلتنا عنها الأشياء فلم نهتد إليها بعد.

بلغت المطار قبيل الحادية عشرة، وهو موعد الطائرة التي تقلّ رؤيا. مضيت لتوّي إلى الشرفة التي تشرف على مدارج المطار فإذا بها مكتظّة بالمودّعين وبالمستقبلين. واتّفق أن وقفت بجانب كهل في مثل سنّي وقد أمسكَت بيده فتاة بديعة التكوين وفي ربيع العمر. واتّفق أنّ الرجل من الذين يستطيبون التحدّث إلى الناس وإن كانوا غرباء عنهم. فلا تثنيه عن رغبته التقاليد واللياقات. لذلك لم يعتّم أن التفت إليّ وقال:

– حضرتك من المودّعين أو المستقبلين؟ قلت:

– من المستقبلين.

– ونحن كذلك – أنا وابنتي – من المستقبلين. ومَن جئت تستقبل؟

– زوجتي.

– ومن أين هي قادمة؟

– من سويسرا.

– إذن أنت مثلنا. فنحن جئنا نستقبل خطيب ابنتي زهيّة. وهو قادم من سويسرا. إنّه شابّ جميل جدًّا، ومهذّب جدًّا، وغنيّ جدًّا، ومن أشرف العائلات. يقولون إنّ ربّنا لا يكمل نعمته على أحد. لقد أكملها على كمال. فطابق الاسم المسمّى.

– زادكم الله نعمة وكمالًا.

– ونحن كذلك من كرم الله بألف خير. يحسدنا الناس ولا نحسد أحدًا من الناس. والعرس الذي سنقيمه سيكون أفخم وأعظم عرس في تاريخ هذا البلد.

– جعل الله كلّ أيّامكم أعراسًا.

– والقائل. أليس عندك أولاد؟

– صبيّ وحيد.

– وكم عمره؟

– ثماني عشرة سنة.

– تفرح منه إن شاء الله. في المدرسة؟

– لا. ذهب في سياحة.

– إلى أين؟

– إلى منابع نهر الزمان.

– نهر الزمان؟! لعلّه النهر العظيم في إفريقيا الذي سمعت عنه كثيرًا. إنّها لسياحة محفوفة بالخطر. ليتك لم تسمح له.

– وأيّ السياحات تخلو من الخطر؟

– صحيح. ولكنْ هنالك فرق بين خطر وخطر. ألا توافقني أنّ الطيّارة في هذه الأيّام أصبحت أقلّ خطرًا من السيّارة؟ السفر بالطيّارة مريح وسريع. سافرت عشرات المرات ولم أنزعج في شيء. وأمس، لولا رحمة الله، لانقلبت بنا السيّارة في الوادي وانتشلونا منها جثثًا مهشّمة أفظع التهشيم.

وهنا تدخلت الفتاة لتقول:

– لقد تأخّرت الطائرة.

نظرت إلى ساعتي فإذا بها الحادية عشرة والربع. إلّا أنّ والد الفتاة لم يأبه لملاحظة ابنته. وعاد إلى الحديث معي:

– عصرنا عصر العلم يا صاحبي – عصر العجائب. غدًا نركب سفينة فضائيّة إلى القمر – إلى المرّيخ – إلى الزهرة. نفطر على الأرض ونتعشّى في المرّيخ كما نفطر اليوم في بيروت ونتعشّى في نيويورك. لم يبقَ في نظر العلم من مستحيل. غدًا نصنع حتّى البشر في المصانع، كما نصنع الزجاج والفولاذ. لا. ما من مستحيل في نظر العلم يا صاحبي. حتّى الموت سيتغلّب عليه العلم.

بدأت أتبرّم بثرثرة جاري. وكان فكري يشرد بي إلى الطائرة القادمة من سويسرا. فأتخيّلها تقترب من شواطئنا. وأتخيّل رؤيا جالسة بجانب النافذة وعيناها تفتّشان عن معالم بلادها، وقلبها

يخفق كلّما اقتربت من تلك المعالم. فتقوم في ذهنها صورة بيتها، وصورة هشام، وصورتي، وصورة أمّ زيدان. كنت أتخيّل الطائرة تحوّم فوق المطار، ثمّ تحطّ بعيدًا على مدرج من مدارجه، ثمّ تدرج من هناك لتتوقّف غير بعيد عن الشرفة التي أنا واقف عليها، ثمّ ينفتح بابها فيتدفّق منه الركاب، وأبصر بينهم رؤيا كما رأيتها لآخر مّرة، وأبصر في يدها حقيبة صغيرة. ثمّ أتخيّلها تلمح وجهي بين الواقفين على الشرفة، فيخفق قلبها ويخفق قلبي، وتلوّح لي بيدها وألوّح لها بيدي، ويشرق وجهها ويشرق وجهي.

حاولت أن أصنّف الكلمات التي ستستقبلني بها والكلمات التي سأستقبلها بها. فتارة أسمعها تقول: «موسى! روحي! قلبي! نور عيني!» وأخرى أسمعها تكتفي بلفظ اسمي ثمّ تخنقها الدموع. وكنت أراها ترتمي عليّ وتطوّقني بذراعيها، وأراني أضمّها إلى صدري بلهفة، وأسمعني أناجيها: «رؤيا، رؤيا! يا رؤيا موسى على الطور!» ولم أكن أتوقّع منها أن تسألني لماذا هشام ليس معي. فهي لم تكن تعرف أنّه شفي. وكنت أتوقّع أن تسألني عنه فلا أهتدي إلى جواب على سؤالها. أأقول لها إنّه استعاد عافيته بأعجوبة، وإنّه يمخر الآن مع اللامسمّى نهر الزمان؟

بيد أن جاري لم يكن يعرف ما يجول في خاطري، ولا أنّني غير حافل بما يقول. فلم يلبث أن عاد إلى الثرثرة:

– إنّي أسمع هديرها وأبصر أنوارها. هناك. هناك. إنّها تقترب.

وفي الواقع كان هنالك هدير، وكانت أنوار، وكانت طائرة تقترب من المطار. وما هي إلّا دقائق حتّى رأينا الطائرة تحطّ على مدرج من مدارج المطار وتأخذ في الجري نحونا. ثمّ ما هي غير لحظات حتّى أبصرناها تنقلب على جانبها، فيتحطّم جناحها، وفي مثل لمحة الطرف تندلع النيران فيها فتنشب ألسنتها من النوافذ، وتخترق بطنها وسطحها، فلا تلبث أن تنقلب أتّونا بل جحيمًا.

جاري – نصير العلم والواقف على قمّة السعادة – يرتجف ارتجاف القصبة ويردّد كلمة واحدة بغير انقطاع: «يا الله! يا الله» وابنته الحلوة تتخبّط على الأرض كمن صرعتها نوبة من داء النقطة. والجمهور الذي على الشرفة يموج، ويلوّح بالأيدي، ويصرخ، ويعول، ويستجير، وينتحب. وعمّال المطار ورجال الاطفاء بزمّاراتهم وخراطيمهم يهجمون ويرتدّون، والجنود يضربون طوقًا واسعًا حول المكان الذي تحترق فيه الطائرة، والنار المشبوبة تتعالى ألسنتها وتتراقص مع الريح، وأعمدة الدخان تنعقد ثمّ تتمطّى ثمّ تنفرط بعيدًا فوق أرض المطار.

الذين على الشرفة، وفي جملتهم أنا، كانوا يعرفون أنّ هناك، حيث اللهيب الأحمر والدخان الأسود، أجسادًا بشريّة تُشوى – أجساد شيوخ وأطفال، وشبّان وشابّات – أجسادًا كانت قبل دقائق تعجّ بكلّ هواجس اللحم والدم وشهواتهما ومطامحهما وآمالهما وأوجاعهما. ويعرفون أنّ أيديهم

أقصر من أن تمتدّ إليهم بأيّ معونة. ويتمنّون لو كان لهم أن يطفئوا النار بدموعهم، وأن يبدّدوا الدخان بنفخة من صدورهم. ولكنّهم عاجزون، وعلى تجرّع بلواهم وحسرتهم مكرهون.

كنت أبصر ما أبصر وأسمع ما أسمع بقلبي. وكنت أحاول أن أصرف فكري عمّا أبصر وأسمع فلا ينصرف. وكيف أصرف فكري عن رؤيا يخنقها الدخان، وتلتهمها النيران. تلتهم شعرها وجبينها وحاجبيها وعينيها ووجنتيها وأنفها وشفتيها. تلتهم دماغها ودمها وكلّ ما اختزنه دماغها ودمها من صور وذكريات وكلمات ومخاوف وآمال وتمنّيات وشهوات. فلا يبقى من كلّ ذلك إلّا الرماد تذروه الرياح. هيكل رائع التكوين والهندسة يتقوّض ويتلاشى في لحظات. عمر زاخر بالحياة والحركة ينقطع بغتة حبله فكأنّه ما كان. صراخ وبكاء وعويل. استغاثات وابتهالات، وسباق خاسر مع الموت.

وأنا كذلك، إذا بيد كأنّها يد ساحر تمسح عينيّ. فيتحوّل المشهد أمامي نهرًا بغير ضفاف. وإذا بصفحة النهر تموج بالمراكب والزوارق والقوارب من شتّى القياسات والأشكال والألوان، وهذه جميعها تجري مع النهر إلى أن تبلغ نفقًا مظلمًا تدخله وتغيب فيه. ثمّ إذا بزورق يخرج من ذلك النفق ويجري ضدّ مجرى النهر وفيه اللامسمّى وهشام. فأكاد أهتف بصوت عال:

«هشام! خذني معك!!»

ألسنة النار تنكفئ، وأعمدة الدخان تنهار وتتبعثر. والطائرة ركام يعلوه السخام. ومن فيها وما فيها بقايا من رماد.

أعود أدراجي إلى البيت وأنا أعجب لنفسي من أين جاءتني القوّة لأشهد ما شهدت دون أن أحترق أنا كذلك وأترمّد. فمن أعماق أعماقي كانت تطفو بين الفينة والفينة صورة الزرع والحصاد، وصورة الكنز في البستان، وصورة الحصاة المغمورة بالثلج، ثمّ صورة الزورق الجاري ضدّ مجرى النهر. فأشتدّ وأتصلّب في وجه الكارثة. وأحسّني أقوى من النار والدخان والموت.

كادت أمّ زيدان يجنّ جنونها عندما أبصرتني عائدًا إلى البيت وحدي. ولكنّها، وهي توشك أن تعول وتنتف شعرها، فطنت إلى برقية جاءتني بُعيد مغادرتي البيت. فناولتني إيّاها بيد ترتجف ووجه خيّم الذعر في جميع قسماته.

فضضت البرقيّة وإذا فيها ما يلي:

«سبقتني الطائرة. استقبلني غدًا في الموعد ذاته. رؤيا».

الساعة الرابعة والعشرون

أفقت من نوم طويل، عميق لأستقبل نهارًا جديدًا، ولأودّع يومًا كان في الواقع اليوم الأخير من أيّام موسى العسكري القديم.

أفقت وخلف أجفاني صورة زورق جميل يمخر عباب نهر عظيم، ويجري ضدّ مجراه. وقد ركب الزورق ثلاثة:

اللامسمّى

وهشام

وموسى العسكريّ الجديد.